د. يوري ريوريكوف



الحب والأسرة عبر العصور

تعريب: د. نزار عيون السود

الحب والأسرة عبر العصور

تأليف: الدكتور يوري ريوريكوف

تعريب: د. نزار عيون السود

الناشر: دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص. ب 443 هاتف: 2134433 (11 - 963 +)

فاكس: 3314455 – 2134433 (11 - 963 +)

E-mail(1): said.b@scs-net.org

E-mail(2): kanaanbooks@yahoo.com

الطبعة الأولى: 2006 / عدد النسخ 1000

إخراج: لبنى حمد

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها

على صفحة الشبكة التالية:

http://www.furat.com

الدكتور يوري ريوريكوف

الحب والأسرة عبر العصور

تعريب

د . نزار عيون السود

قالوا في الحب :

الحب... هو تجلي البداية الخالدة في الكائن الفاني...

أفلاطون

الحب... هو ضوء الخلود في اللحظة الراهنة... عندما نحب ندرك جوهر الكون...

م.م. بريشفي

الحب... إما أنه فتات شيء ما ولد، وكان عظيماً في يوم من الأيام، أو أنه جزء من شيء سيصبح كبيراً في المستقبل، أما في الحاضر، فهو لا يكفي، ويمنحك أقل مما تنتظر...

أنطون تشيخوف

تقديم

على مر العصور والأزمنة

تمثال أفروديت.. إنه قصيدة حب منحوتة عظيمة نحته الفنان الإغريقي (براكسيتل) في القرن الرابع قبل الميلاد. كانت أفروديت ولازالت إلهة الحب والجمال، لأن الإغريق لم يفصلوا الحب عن الجمال، وهي كلها، روحاً وجسداً، مستغرقة في هذا الجمال الخالد.

أفروديت... إنها مديدة القامة، طويلة الرجلين، ممتلئة اليدين والكتفين، كبيرة العينين والشفتين، صغيرة الرأس، بيضاوية الوجه، رقيقة الملامح. إنها عالية الخصر والردفين، ذات نهدين جميلين ومرتفعين... وفي هذا كله ثمة قوة إلهية رفيعة وتناسق بديع، ورشاقة أولمبية. وهذا الجمال كله جمال طبيعي دون أناقة الثياب، ودون الرشاقة المحلقة التي أصبحت الآن من معايير المثل الأعلى الجديد للجمال.

تقف أفروديت (في التمثال)، متكئة على قدم واحدة، ولهذا ينحني جسدها ويتمايل على نحو متناسق هارموني موسيقي، وكأن موجة بطيئة ناعمة مرت عبر خصرها وردفيها ورجليها، وأبقت تموجاتها عليها.

إنها ولدت من موجة وتحمل في طياتها جمالها الرتيب الهادئ. لو نظرت إليها لوجدتها مفعمة كلها بروح السكينة والهدوء والمسؤولية. إنها حافية القدمين لكنها تقف بثبات وهدوء ولا أثر للخجل في وقفتها ووضعيتها. ولا تخشى من أن يجلب عري قدميها الرعب لأحد. كما لا تخاف من أن تدنسها نظرة شرير.

الإلهة أفروديت – ربة الحب والجمال – تبدو وكأنها تعيش في عالم خاص، عالم العواطف الطبيعية، غير المشوهة. إنها تعيش من أجل النظرة الإنسانية البسيطة، تلك النظرة التي ترى فيها وفي جمالها تعبيراً عن عظمتها الروحية، وفي غريزة حبها تعبيراً عن جاذبيتها وحبها، وترى في هذا كله جمال أفروديت وانسجامها.

وبما أنها أرفع من المراءآة والنفاق وأسمى من الشهوانية فكأنها تسمو بالناظرين إليها وتطهرهم، وتمنحهم ذرة من جمالها وانسجامها، وذرة من نظرتها المتميزة والطبيعية إلى العالم. ويكمن فيها مثل أعلى خاص متميز، مليء بالقيم الرائعة، وكأنها تشرك الناظرين إليها بهذا المثل الأعلى. ويبدو أنه هنا بالذات، وبالإضافة إلى المتعة المباشرة من النظر إليها، يكمن خلودها وجبروتها وقوتها الإنسانية.

الإلهة أفروديت الإغريقية – إلهة الحب الروحي – الجسدي المنسجم، لقد استوعبت في ذاتها أسمى قيم الحب وربما لهذا بعمق القرار وصعوبة النفاذ واستحالة البلوغ والمنال. وهي على الأغلب، ليست صورة ولا تمثالا، بل هي حلم، حلم باتحاد الحب والسلام الذي نفتقده في حياتنا. إنها طوباوية الحب الأولى على وجه الأرض – الحب الإلهي والحب الإنساني في الآن نفسه. إنها المثل الأعلى لجميع العصور والأزمنة. لأن التواؤم والانسجام والتوحد بين الحب والسلام هو، على الأغلب، حالة عارضة، زائلة، مهددة دوماً بنشوء النزاع بينهما إذا لم نُعد ترتيب العالم وفق قوانين الحب....

نحو مدنية جديدة

الحب – سيد العواطف والمشاعر بلا منازع، وأكثرها جاذبية وإغراء، لكنه في الوقت نفسه أكثرها خداعاً، وخيبة للآمال. إنه يمنح اللذة الأقوى والسعادة الأكبر لكنه يسبب أيضاً الألم الأشد، يمنح المسرة

كما يمنح الكآبة وتندمج أقطاب الحب وتبايناته في سبائك فريدة، ويرى الإنسان الحب في السبيكة التي تكون من نصيبه.

الحب يتبدل دوماً عبر العصور، وخاصة في المراحل الانتقالية، عندما ينتهي عصر ويحل آخر، وحيث تتقاطع العلاقات والمشاعر والعواطف الإنسانية. وربما لهذا السبب ولغيره أيضاً، كانت تدور النقاشات العاصفة، ولا تزال تدور حول الحب. وهذا أمر طبيعي. ففي الحب ظهرت اليوم أشياء وظواهر جديدة، غامضة، وكلما ظهرت مستجدات كلما أثارت نقاشات أكثر.

الحب والأسرة - هما مركز تقاطع جميع قوى العالم التي تحكم الحياة، وهما مرآة جميع التحولات التي تجري في النوع البشري. وكي نفهم فهماً صحيحاً في الحب والأسرة، علينا أن ندرك أولاً ما يجري في أركان المدنية، في أعماق الحياة الاجتماعية: فالمصائر الشخصية لا يمكن إدراكها بحق إلا من خلال رؤية شمولية للعالم والكون.

في عصرنا هذا يجري، كما يبدو، انعطاف جذري كبير في الحضارة الإنسانية، فقد بلغت البشرية موقعاً استراتيجياً خطيراً لا مثيل له في تاريخها. وبدأت ترتقي إلى قمم وذرى لم تراودها حتى في الأحلام والأساطير واليوتوبيا، ولكن في طريقها، وتحت أقدامها ظهرت هوة وفجوات لم تعرف مثيلها من قبل.

لقد أصبحت أركان المدنية الرئيسة موضع تساؤل واستفهام: إلى أين تقودنا الثورة العلمية التكنولوجية - إلى طرق مسدودة أم إلى آفاق رحبة جديدة؟ الهجرة العظيمة للشعوب إلى المدن الكبرى - إلى الواحات المضاءة وسط الطبيعة: ماذا تعطي الناس ومن ماذا تحرمهم؟ أفلا تقودنا إلى الانفصال عن الطبيعة؟ ألا تقتل فينا الإنسان الطبيعي؟ وكيف العمل، كي لا تتحول البشرية إلى مدنية وحشية تقضي على كوكب الأرض؟

ثلاثة من سيوف داموقليس تهدد الإنسانية وكل واحد منها أمضى وأشد فتكاً من الآخر: الأول سيف الموت الذري، والثاني سيف دمار البيئة

وموتها، وأما الثالث فهو سيف النزعة الأنانية القاتلة وسيطرتها على الناس وانحلالهم الأخلاقي. وهذه كلها تشكل الأركان الرئيسة للحضارة الحالية: القاعدة التقنية - الصناعية، ونمط الاستقرار والسكن في المدينة الكبيرة ووضع الإنسان نفسه في إطار حضارة الحشد. وهذه الأركان بالذات تقود إلى موت الطبيعة وانتحار البشرية. ولا بد كما يبدو بالتحول الجذري عنها ولإعادة بناء مدنية جديدة كلياً.

بادئ ذي بدء، إن البشرية بحاجة ماسة إلى قاعدة صناعية جديدة كلياً، حيث أن القاعدة الصناعية الحالية تقوم على مبدأ «فليتوقف العشب عن النمو من بعدنا». حيث أن نسبة تتراوح بين 1-3 ٪ فقط من الخامات تتحول إلى منتجات ومواد صناعية بينما يتحول 79-99٪ منها إلى نفايات. وبحلول نهاية القرن الماضي استخرجت دول العالم ما مقداره /300/ مليار طن من الخامات من باطن الأرض وكلها تقريباً، أي ما بين /290-297/مليار طن يتحول سنوياً إلى نفايات تسمم الأرض والبحر والجو. ولهذا تحتاج البشرية إلى إسعاف سريع، إلى قاعدة صناعية بدون نفايات، قاعدة صناعية نظيفة بيئيا، لا تسمم الطبيعة ولا تميتها.

أما الركن الثاني من أركان المدنية، المميت بالنسبة لنا، فهو الوسط الذي نعيش فيه، إنه الاستبطان البشري. لقد أصبحت القرية اليوم منعزلة عن الثقافة، وخالية من التربة المناسبة لازدهار الإنسان ولتلبية حاجاته الحياتية العميقة المتعددة الجوانب. أما المدينة، وبخاصة المدينة الكبيرة، فهي أقسى وأشد ضراوة.

إنها تحطم صحة البشر وتنهك أعصابهم وتفسد أخلاقهم. إنها تشتت الناس وتجعلهم أنانيين وتحولهم إلى حشود في الشوارع وإلى أفراد منعزلين، متقوقعين في شققهم. وبالإضافة إلى ذلك، فالمدينة بالذات هي المسمم الرئيس للبيئة والوسط الحيوي، وفيها بالذات تتجمع غالبية المصانع والمعامل.

إن الإنسان بحاجة ماسة إلى مواطن جديدة للسكن، تطرح جانباً

شوائب المدينة والقرية الحاليتين، وتدمج في طياتها بين القرية والطبيعة وبين المدينة والثقافة. إنها يجب أن تكون مدينة نظيفة بيئيا، مدينة حديقة، مدينة غابة، صديقة للإنسان وللطبيعة وليست عدوة لهما.

أما أركان المدنية الأخرى، كعمل الإنسان وحياته الاجتماعية والشخصية، فهي بحاجة إلى إعادة بناء جذرية. حيث يسيطر الآن على الإنسان وعلى حياته التقسيم المميت للعمل: عمل يدوي وعمل عقلي في مختلف التخصصات، كما أنهم مقسومون إلى مديرين ومدارين، إلى حكام ومحكومين. فهذا التخصص الضيق وهذه الحياة العملية التخصصية حولت الإنسان إلى عجلة، وإلى برغي في آلية المجتمع.

لقد دفعت الثورة العلمية التقنية والتكنولوجية إلى مصاف النوابض الرئيسة للحياة التناقضات فوق التشكيلات الاجتماعية والقضايا العالمية الكونية. وتسيطر هذه التناقضات الرئيسة الجديدة على الحياة أكثر من سيطرة التناقضات الطبقية القديمة كما أنها لأشد قوة منها. وهي تحاول استيعاب التناقضات القديمة في طياتها وجعلها جزءاً منها، وهذا ما يزيد من قوة هذه التهديدات الاجتماعية في جميع الأنظمة الاجتماعية.

ومن أجل خلق مدنية عادلة لابد من استبعاد كافة أشكال اغتراب الشخصية: من العمل، من الاقتصاد، من الحياة المدنية، ومن الأسرة والعلاقات الشخصية. ولابد من نقل جميع العلاقات البشرية إلى مسار النزعة الإنسانية العميقة والديموقراطية والتواصل الروحي بين البشر.

ومن أهم العتلات الرئيسة لإعادة البناء هذه: الثورة الجذرية في أنظمة التربية والتعليم الحالية، هذه الأنظمة التي حولت الإنسان منذ زمن طويل إلى منفذ سلبي، غير مبدع، وتنمي فيه النزعات التكيفية والاستهلاكية والأنانية. وبدلاً منها لابد من غرس نماذج جديدة كلياً للأسرة والتربية، ونمط حياة جديد وثقافة جديدة للعلاقات الشخصية.

إن جميع أركان المجتمع هذه- من نمط الإنتاج إلى التربية هي الشوائب الأعمق والسلبيات الأشد خفاء للمدنية المعاصرة. وهي كلها

معادية للمثل العليا الإنسانية، وكلها تشكل سلسلة واحدة تقيد البشرية. ومن أجل نزع هذه القيود لابد من انقلاب جذري في المدنية ولابد من التخلي عن جميع الأسس اللا إنسانية وبناء أسس جديدة إنسانية حقاً.

ولم يبق أمامنا سوى بضعة عقود من السنين من أجل إحداث هذا الانقلاب. فنحن نسمم الطبيعة بتصميم وإصرار لدرجة أنه قد تبدأ منذ العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين تحولات حتمية تقود إلى الخطوات الأولى نحو موت الطبيعة، نحو الإيدز الكوني.

فهل ستتمكن البشرية من التحول عن هذا الطريق المميت أم لا؟ - هذا هو سؤال البشرية الرئيس- سؤال الحياة أو الموت. لهذا، نحن بحاجة ماسة إلى استراتيجية عاجلة لإنقاذ البشرية، استراتيجية لن يكون بدونها حب ولا أسرة، ولا حياة ولا إنسان.

وتبدو كرتنا الأرضية الآن أشبه بسفينة فضائية سقطت في منطقة جاذبية لثقب أسود، وهي تنطلق نحوها بسرعة متزايدة. وكي ننقذ أنفسنا، لابد من تغيير الاتجاه بطريقة عاجلة وتعديل جميع حركاتنا وجميع أنظمة حماية الحياة على الأرض بصورة عاجلة أيضاً.

غير أن هذا يتطلب تحالفاً سريعاً بين جميع من يحلق في سفينتنا الكونية الجبارة: بين جميع البشر، جميع الشعوب والأجناس والطبقات، فبهذا التحالف وحده وبحشد قوى كافة أبناء البشرية بشكل عاجل، سنتمكن من التخلص من الكارثة والنجاة منها. كما أن تغيير النهج يجب أن لا يقتصر على سفينتنا الكونية وحدها. فكل إنسان هو نموذج صغير من هذه السفينة، وكل واحد منا عليه أن يغير نهجه الداخلي. ويبدو أن علينا أن نبدل كل شيء في بنية حياتنا، وفي بنية النفس الإنسانية. لأن خلق حضارة جديدة هو بمنزلة خلق نفس إنسانية جديدة، وخلق روح جديدة للعالم.

إن نفوسنا تميل اليوم إلى النزاع والخلاف أكثر من ميلها إلى التعاون والوفاق. وحتى في علاقاتنا الشخصية نجد التنافر أكثر من

التوافق، والنزاعات أكثر من المودة والصداقة. إن الآباء والأبناء، والشبان والشابات، والأزواج والزوجات تسيطر على نفوسهم وتوجه علاقاتهم عوامل الأنانية وحب الذات أكثر من محبة الآخرين، وتوجهها متطلبات «الأنا» أكثر من متطلبات الـ «نحن». وتتنافس نفوس الأقرباء فيما أكثر من أن تعيش بسلام ووئام، وتبرز أوتار القوة والعنف أكثر من أوتار السلام. فمنذ سنوات المهد أو ما بعدها بقليل تتلوث نفوسنا ونفسياتنا بجراثيم التنافر والنزاع والعداء، وتشكل فينا لا شعوراً تنافرياً وآلية مشاعر العداء والنزاع والشقاق.

إن هذا هو الصدى السيكولوجي للبنية الاجتماعية للمدنية المعاصرة، هذا هو الأثر السيكولوجي لهذه البنية في نفوسنا. إنها مدنية الإنسانية المتشرزمة والبشرية المتشتتة - هكذا يمكننا أن ندعو مدنية اليوم، حيث الإنسانية متشرذمة ومتشتتة إلى ومجزأة إلى أمم متعادية وطبقات وجماعات متصارعة. والإنسان مجزأ إلى شعور و لاشعور، إلى لوحة فسيفسائية من الرغبات والحاجات والأهواء المتصارعة.

إن مدنية الإنسان المشتت تسير اليوم إلى نهايتها وتعيش أيامها الأخيرة. أما المدنية الجديدة التي تنضج الآن في أحشاء المدنية الحالية فستكون على الأغلب مدنية الإنسان الواحد، الإنسان الهادف وستتخذ قانوناً عاماً لها على الأغلب، يقوم على التعاون والتعاضد بين الناس لا على التنافس..

لقد ولدت جميع الأفكار الرئيسة للمدنية الجديدة في أحضان المدنية الحالية، وخلال آلاف السنين. وهذه الأفكار هي المثل العليا للإنسانية التي نادت بها مدنيتنا، والأسس الخيرة الطيبة لبناء الحياة التي وضعتها.

وهي أيضاً الأسس المشتركة للحياة الشعبية التي تقوم على تحالف «الأنا» والـ«نحن»، وهي أيضاً تلك المنجزات والذرى الثقافية لمختلف العصور والأزمان والشعوب التي تلهمنا، والحقائق الخالدة التي اكتشفتها

الشعوب المختلفة، وهي أخيراً القيم السامية لمدنيتنا الحالية والتي ستغدو روح المدنية الجديدة.

أما الباني الأعظم لهذه المدنية، ومهندسها المعماري الرئيس فهو الحب، الحب بكل أجناسه وأنواعه، إنه الحب من حيث هو مبدأ، من حيث هو موقف الإنسان من العالم ومن الناس الآخرين.

هذا الكتاب

إن هذا الكتاب هو كتاب شامل لجميع المسائل والقضايا المعاصرة، الغامضة والعويصة، التي نحتك بها يومياً، والتي تزداد عدداً وصعوبة. ولا يمكن حلها أو التخفيف من حدتها إلا بجهودنا المشتركة وبعقولنا المجتمعة وخلال عدة أجيال.

والكتاب من حيث صعوبته، ذو مستويين: مستوى بسيط ومستوى صعب. أما الجانب الصعب فيشمل المسائل الاستراتيجية الرئيسة في حياتنا. إنها تلك المسائل المفتاحية التي لا يمكن بدونها فهم القوانين التي تحكم المجتمع والأسرة والتي تتحكم بمشاعرنا وعواطفنا اليوم. كما يشمل هذا الجانب المسائل السيكولوجية الحيوية الهامة، والتي ترد في الفصل الخاص بالطباع والمزاج. إنها مسائل صعبة ولكن يستحيل بدونها الوصول إلى علاقات جيدة في متاهات الصعوبات الأسرية الهائلة. واستيعاب وفهم هذا المستوى أو الجانب الصعب يحتاج بلا شك إلى الإرادة والعزم، والتصميم والجهد، والأهم، الاهتمام بهذه المسائل الصعبة.

وموضوع الكتاب يشمل جميع جوانب الحب المعاصر والأسرة المعاصرة. إنه يشمل الجوانب الأربعة الرئيسة من الثقافة الأسرية: الجانب السيكولوجي، والجانب الجنسي والجانب التربوي والجانب الأسري مع التركيز على الجانب الرئيس وهو الجانب الأسري. كما سنتناول في هذا الكتاب الثقافة العالمية الجديدة للحياة الخاصة التي بدأت تتفتح أولى براعمها منذ الآن والتي ستسود في الغد. ومثل هذه

الثقافة ستساعد في إخراج الحياة الخاصة من الأزمات الحالية وستؤمن لها التربة المناسبة.

القسم المعنون بـ «الحب والأسرة على مفترق الطرق» يتألف من ثلاثة محاور: الأول، واسمه «عسل الحب»، وهو بمثابة «كتاب العواطف» - إنه مكرس لعاطفة الحب، وصولاً إلى تكوين الأسرة، وبدون ذلك، وسيتناول الأسس الخالدة لعاطفة الحب، والتحولات المعاصرة فيها، وكذلك الأشكال السيكولوجية المختلفة لعاطفة الحب ومراحلها الحياتية المختلفة: نشوئها وازدهارها وأفولها. كما سيتناول هذا المحور الثقافة النفسية الجديدة للحياة الزوجية، والأسس التي ترتكز عليها الأسرة اليوم.

في القسمين الثاني والثالث من هذا الكتاب سيتركز الحديث حول الأسرة ذاتها، وقوانين الحياة الأسرية، حيث سنتناول بالبحث ثقافة التواصل الجديدة التي لا تقتل العواطف، ونعالج «هندسة» هذا التواصل، والمراحل الثلاث في حياة الأسرة الناشئة، وقوانين كل مرحلة. كما سنتطرق إلى ثقافة الحوار والخلاف، وقوانين الجنس والحياة الجنسية، وأسس الثقافة الجنسية المهذبة والإنسانية، وكذلك مواضيع الريادة والقيادة في الأسرة، وعظمة العمل المنزلي وعبوديته، والطلاق و«الخيانة» الزوجية و«المثلثات» ومفهومها الحديث. كما سنتحدث عن الحب «المعمّر» - الحب الذي يسعى إلى تحقيقه وإطالة عمره علم إطالة عمر الحب UVENOLOGY، وعن التحولات الجارية في أدوار المرأة والرجل في جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية والجنسية.

وهناك محور خاص في القسم الأخير من الكتاب مكرس للاكتشافات الحديثة في علم نفس الطفل وعلم وظائف الأعضاء عن الأطفال، التي قلبت بصورة جذرية تصوراتنا عن طبيعة الطفل، وهي الاكتشافات التي ستحدث أكبر ثورة تربوية في التاريخ، وستؤدي إلى تحولات جذرية في التربية والتعليم...

وثمة محور أخير في الكتاب، عنوانه «الأركان الرئيسة للأسرة»، وهو مكرس للاستراتيجية الجديدة للمعونة والخدمة الاجتماعية للأسرة، تلك المعونة والخدمة الشاملة والتي تمس جميع جوانب حياة الأسرة، والتي أصبحت ضرورة ملحة وحاجة ماسة لن تتمكن الأسرة بدونها من الصمود.

أما الخاتمة «ماذا ينتظر العالم غداً» فيتضمن عرضاً لنظريات وتصورات وفرضيات حول مستقبل الحب والأسرة بعد عدة أجيال.

الفصل الأول

علم الحب *AMOURALOGY*

إن العلوم المعاصرة تدرس، ويا للغرابة!، الحياة الخاصة. وهي تجزئها، مثل البرتقالة، إلى أجزاء، وكل علم يدرس قسمه الخاص، دون الاقتراب من الأقسام الأخرى. فعلم النفس يدرس المشاعر والعواطف الخاصة والشخصية والتواصل بين الناس؛ وعلم الاجتماع يدرس الحياة الأسرية وأنواع الأسر والعلاقات الزوجية؛ وعلماء الاقتصاد يدرسون الاقتصاد المنزلي والظروف المادية للحياة الأسرية؛ وعلماء السكان يدرسون حالات الولادة والزواج والطلاق؛ وعلماء الجنس يهتمون بالعلاقات الجنسية؛ وعلماء التربية يهتمون بالجانب الأخلاقي والتربوي من الحياة الشخصية.

ولكل علم من هذه العلوم مدخله الخاص ومقاربته المتميزة، وكل علم يعالج جانباً واحداً فقط دون أي ارتباط، تقريباً، بالعلوم الأخرى. وعلى أي حال، فقد بدأ، الآن، تعاون وتوحيد وتنسيق بين مقاربات ومداخل جزئية، كالتعاون والتنسيق بين المدخل الجنسي والمدخل السوسيولوجي، وبين المدخل السوسيولوجي والديموغرافي (السكاني)، وبين الاقتصادي والتربوي والسيكولوجي.

إلا هذه الخُطا الخَفِرة هي الأولى وهي غير كافية، ولا بد من ثورة منهجية في هذا المجال. فالمطلوب ليس مقاربة جزئية، بل مقاربة شمولية من قضايا الحب والأسرة. وهذا يحتاج إلى منهج علمي جديد لبلوغ مثل هذه المقاربة.

وإذا ما سلطنا على الحب الأضواء الكشافة لجميع المعارف والعلوم المتعلقة به فستنفتح أمامنا أعماق، ورواسب مخفية من العواطف بحيث يستحيل بلوغها من خلال النظرة الجزئية. ففهم ماهية الحب، ورؤية دوره في حياة الإنسان والبشرية أمر غير ممكن بدون مدخل شمولي بانورامي تكاملي. ولابد هنا، من اندماج جميع العلوم الفرعية المعالجة لظاهرة الحب، وسبكها في فرع جديد من فروع المعرفة وفي علم جديد هو علم الحب - سبيكة من العلم والفن والثقافة.

وسعياً إلى مثل هذه المقاربة البانورامية الشمولية التكاملية جاءت فصول هذا الكتاب من حيث خطوات استكشافية خفرة أولية نحو هذه المقاربة المنشودة. فنحن أمام سبيكة من الفهم التقليدي والجديد للحب - إن سبيكة المقاربة من الحب تجمع ما كان منذ القدم في الثقافة الإنسانية وفي العلم والفن الإنسانيين مع نظرة جديدة إلى الحب، ومع منعطفات ومستجدات في سيكولوجية الحب وأخلاقياته وفلسفته.

وسيرتكز بحثنا للحب على الاكتشافات المنجزة في مختلف العلوم الإنسانية: في الفلسفة، وعلم النفس، وعلم الأحياء، وعلم النمو، وعلم الجنس والتربية. كما سنعتمد على منجزات سوسيولوجيا الأسرة، واقتصاديات الأسرة، وعلم السكان وعلم الأخلاق. إن غالبية هذه المنجزات والمكتشفات لا تتعلق بالحب بصورة مباشرة، بل بصورة غير مباشرة. ولهذا، ليس بالأمر السهل أبداً البحث فيها وسبكها وصهرها مع بعضها البعض. علاوة على ذلك، نضيف إلى تلك المنطلقات والأركان السابقة «سوسيولوجيا الرأي الخاص» - أي تلك الرسائل والمذكرات والأصداء التي تحدثنا عنها والتي سنوردها في موضعها من هذا الكتاب.

على هذا النحو يولد علم شمولي جديد، فرع جديد في العلوم والمعارف، ندعوه على سبيل التجريب والاختبار «علم الحب Amourology». إنه علم يجمع في منهجه سبيكة من العام والخاص، ودمجاً بين المعرفة العلمية المتعاملة بالمفاهيم، والمعرفة الأدبية المتعاملة

بالصور، حيث أن الحب لا يمكن إدراكه بإمعان الفكر وحده، ولابد فيه من تلاحم الفكر والعاطفة.

لقد أمكن في القرن العشرين الوصول إلى اكتشاف من أعظم الاكتشافات في طبيعة الإنسان. لقد تم اكتشاف الدور المختلف كلياً لنصفي الكرة الدماغية، حيث يوجد في نصف الكرة الدماغية الأيسر التفكير المنطقي والمفاهيم، المنفصلة عن الانطباعات الحسية الحية، بينما تتواجد في نصف الكرة الأيمن الصور الحسية المرتكزة إلى الانطباعات الحسية - البصرية، والسمعية - الحركية.

فالتفكير القائم على المفاهيم يقسم مواضيعه إلى أجزاء، فيأخذ منها جوهرها ويرمي جانباً صورها الحية وفرديتها. أما التفكير القائم على الصور فيأخذ الانطباعات بكليتها، مستوعباً ومتمثلاً ملامحها الحية مع الجوهر، لكن الجوهر يكون غير ظاهر أو شبه ظاهر. ولكل من هذين النوعين من التفكير جوانبه القوية والضعيفة، وكل منهما قادر على ما لا يقدر الآخر عليه. وهما معدان، حسب قوانين الطبيعة، للعمل معاً.

لم تكن الثقافة الروحية الإنسانية في العصور القديمة منقسمة إلى رؤيتين منفصلتين للعالم: رؤية منطقية قائمة على المفاهيم، ورؤية صورية قائمة على الفنون، وكانتا تشكلان عند أفلاطون وحدة، كنوع من الفلسفة العلمية - الفنية.، ودعيت هذه السبيكة باسم الاتحاد أو الاندماج syncretism. في تلك الأثناء عاش التفكير القائم على المفاهيم والتفكير الصوري في اتحاد طبيعي، وعملا معاً.

ثم افترقا، وأخذا يبتعدان، الواحد عن الآخر بصورة متزايدة، وتوقفا عن دعم أحدهما الآخر بالمنجزات الفريدة. وانقسم العلم بصورة متزايدة إلى خلايا، كلما انغمس أكثر في كل منها، كلما ازداد عجزه عن الرؤية الشمولية الواحدة للعالم. وكذلك الفن، فبدون التحالف مع العلم أصبح أكثر عجزاً عن النفوذ إلى الأسرار العميقة للحياة الإنسانية، والوصول إلى أسرارها وخفاياها الاجتماعية والسيكولوجية.

لقد أعطى كل من العلم والفن للناس الكثير من المنجزات، خلال تطورهما المنفصل، ولكن كان بإمكانهما العطاء أكثر لو لم ينفصلا، وبقيا في كل واحد.

إن هذا الانفصال يناقض طبيعة الإنسان، حيث أن نصفي الكرة الدماغية كلما عملا بصورة منفصلة كلما كانت ثمارهما أقل، وكلما عملا بتحالف أوثق كلما كانت ثمارهما اكبر. وقد أصبح معروفاً الآن أن جميع اكتشافات العلم والفن العظيمة قد تم إنجازها وتحقيقها بالقوى المتحدة والمتعاونة للتفكير الصوري والمفهوماتي، ولعل انعزال أو انفصال هذين الأسلوبين في التفكير هو أحد الأسس التي تقوم عليها مدنيتنا، وهو أحد أهم المخالفات الصارخة لطبيعة الإنسان.

ربما يقترب العلم والفن الآن، من المراحل الأخيرة لانفصالهما، وسرعان ما سيتحدان لينشأ اتحاد جديد، سبيكة جديدة لهذين النوعين العظيمين من التفكير الإنساني. وهنا بالذات سيكمن أحد المجاري الرئيسة للثورة السيكولوجية العلمية. وإذا ما حدث هذا فسيحل على الغالب انقلاب جذري في حياتنا الروحية، وفي جميع أسس العلم والفن والثقافة.

إنه سيكون انتقال من العلم الذي ينظر إلى العالم نظرة مفاهيم ضيقة ومن الفن الذي ينظر إلى العالم نظرة صورية بحتة إلى رؤية اندماجية موحدة، إلى إدراك شمولي هادف للعالم، يجمع بين الصورة والمفهوم في الآن نفسه. وربما سيقود إدراكنا للحب إلى التسريع بهذا الانتقال، حيث سيغدو علم الحب أحد العوامل الحافزة لهذا الانتقال، وأحد المواطن الأولى التي سينمو فيها هذا الاتحاد الجديد...

أصوات الشك

هاكم فيما يلي بعض الآراء والأحكام القاسية بحق الحب، صادرة عن أشخاص من فئات ومهن اجتماعية مختلفة:

- «قال أحد الشعراء» الحب هو مجرد نقط سم على الحد المرهف للجمال «- الحب، برأيي، هو حالة نفسية مرضية، إنه نوع من العصاب».

- «هل يمكنك دحض الأطروحة القائلة بأن الحب هو مجرد تقارب فيزيولوجي؟».

- «ألا ترون أن الحب يشبه أسطورة اخترعها الإنسان نفسه، وأقنع نفسه بها، واضطر دائما لمسايرتها والامتثال لها؛ واعتبر الحالات التي لا تنسجم معها ولا تتوافق بأنها حالات غير طبيعية»

- «إن العاطفة التي تدعى باسم «الحب» تعيق الإبداع، وهذا ليس لأنها تلهي عن التفكير والأفكار فحسب، بل ولأنها تستهلك كثيراً من الوقت. إن الحب هو عاطفة لأشخاص من الدرجة الثانية، للأشخاص المستهلكين الذين لا يريدون ولا يفكرون بترك أثر في الحياة. أما المبدعون والمفكرون فلا تجلب عاطفة الحب إلا الضرر»...

بعد هذا العرض للأفكار والآراء حول الحب، سنحاول الحديث بلغة علمية تحليلية عن الموضوع نفسه:

أجرى علماء الاجتماع في روسيا في الثمانينات استفتاء سألوا فيه /15/ ألفاً من العمال والموظفين والمهندسين والباحثين العلميين الشباب عن موقفهم من الحب. وقد أجاب الثلث من المستفتين بأنهم لا يؤمنون بالحب، وأجاب قسم آخر منهم أنهم لم يعودوا يؤمنون بالحب، بينما أجاب الباقون بأن الحب هو بدعة اخترعها الشعراء والأدباء.

وقد دعموا أحكامهم بالحجج والبراهين. فالمبالغات الشعرية في مدح الحب والتغني به معروفة للجميع، ويكفي أن الحديث عن الحب يأتي بالقصائد الشعرية، ويزيدونه تأنقاً ورقة، ويجعلونه أسمى مما هو في الحياة العادية اليومية.

كذلك يولد عدم الثقة بالحب إضفاء الصفة «الملائكية» عليه وتحويله إلى عاطفة بيضاء خالية من أي إحساس. كما يتصور كثيرون

الحب على أنه جنة من الأفراح والمسرات والسعادة، وبما أنه لا وجود لمثل هذه الجنة، فهذا يعني أنه لا وجود للحب.

ومما يسكب الماء في طاحونة المشككين بالحب وغير الواثقين به حالات الزواج الهوائية والخلّبية التي تنهار عند هبوب النسمة الأولى، وحالات الطلاق المتزايدة، وكذلك حالات الزواج الهزيلة المرتكزة على الواجب والعادة والعرف والأطفال.... لهذا يصاب كثيرون بالذهول والحيرة: ماذا يحصل للحب؟ لماذا يضعف الحب؟ وعموماً، هل هناك حب؟

قالت إحدى الفتيات (16 سنة) المشاركات في الاستفتاء الذي سبق ذكره: «أي أسرة خلّبية كرتونية نشهدها الآن؟ وهل هناك الآن أسرة بالمعنى الحقيقي للكلمة؟ يتزوجون وبعد انقضاء شهر يطلبون الطلاق. حتى أصبح من المأثور القول بهذا الصدد: «فترة الحب الخالد المكفولة هي شهر واحد، شهر العسل». إنني لا أثق بما يكتبونه بخصوص الحب. ولماذا اصطنعوا هذا الحب؟ لماذا هذا كله، إذا لم يكن هناك أي حب في الأسر بين الأزواج والزوجات، إذا ما كان الآباء في كثير من الأسر يتهجمون على الأمهات ويضربونهن».

إن الحياة الخاصة تمزقها الآن أزمات لا سابق لها ويدعونها بمفارقة التقدم العادية، وسلبيات الحياة وإيجابياتها. إن أي تقدم، مهما كان، يحمل معه الضرر والخسارة. فالثمرة تقتل الزهرة - هذا هو قانون الحياة، وتلك هي مفارقة التقدم، وهي تؤثر تأثيراً حاداً على الحب الإنساني.

منذ القديم، كان بعض الحكماء يرى أن البشرية ترتقي درجات التقدم إلى الأعلى، بينما رأى آخرون أنها تنحدر على درجات التخلف نحو الحضيض. وكان ير ى المفكرون القدماء أن البشرية قد عاشت عصرها الذهبي، ثم انتقلت إلى العصر الفضي، وبعدها ستنتقل إلى العصر البرونزي، ومع اجتيازها كل قرن وكل عصر جديد تنحدر إلى

الأسفل. لقد تأثرت هذه الآراء التأخرية التشاؤمية بكتاب (هسيود Hesiud – القرن الثامن ق. م.) الشهير (نشوء الآلهة Theogony) وبأساطير جميع الشعوب والحضارات القديمة وبمؤلفات مفكرين كثيرين في العصور القديمة.

أما أيديولوجية التقدم فقد نشأت في القرن السابع عشر وازدهرت في القرن الثامن عشر في عصر التنوير. لم تكن هذه الأيديولوجية جدلية، ديالكتيكية، لكنها كانت ترى أن كل شيء في الحياة يسير نحو الأفضل، نحو التحسن، يتجه من الأدنى إلى الأعلى. وفي هذه الفترة، سجل الكاتب الناقد الفرنسي الشهير (فولتير) عيوب الحياة في قوله الساخر الشهير: «كل شيء نحو الأفضل في هذا العالم، الذي هو أفضل العوالم».

أما القرن العشرون فقد أثبت أن التقدم والتخلف مندمجان ومتحدان فيما بينهما كنصفي ثمرة جوز واحدة، وكل خطوة من خطى الإنسانية هي في الحقيقة نصف خطوة عظيمة إلى الأعلى ونصف خطوة عظيمة إلى الأسفل. لقد تفاقمت «مفارقة التقدم» المميتة هذه بصورة لا مثيل لها في نهاية القرن العشرين.

لم تكن القوة التقنية للبشرية بمثل هذا الجبروت في يوم من الأيام، ولم تهدد كوكبنا بالموت الإيكولوجي كما هي الآن، ولم تكن الدول والأنظمة الاجتماعية على هذه الدرجة من القوة، ولم يصل العداء فيما بينها إلى هذه الدرجة الانتحارية للجنس البشري. ولم يشهد العالم أبداً مثل هذا الفيضان من الغلال والمشاهد، ومثل هذه الفيضانات من اللا أخلاقية في الوقت نفسه. إن هذه الأضداد تنمو وتزدهر معاً في الآن نفسه: الديموقراطية والفاشية، الترف والجوع، الظلم والعدوان، الثقافة والوحشية الهمجية.

إن حركة البشرية الآن «تقدّم» و«عودة إلى الوراء» في آن واحد، إنها سبيكة من التقدم إلى الأمام والتقهقر إلى الوراء، هبوط إلى الأسفل

على الدرج الذي يقود إلى الأعلى- إن مثل هذه الحركة كانت تميز الكائن الخرافي وحده - كائن خرافي هجين يجمع بين الخُلْد الذي يحفر متقدماً إلى الأمام والسرطان (كبوريا) الذي يزحف جانباً وسرطان النهر الذي يشد إلى الخلف.

ولهذا الكائن الهجين المتناقض والدان: الأول هو انقسام البشرية إلى معسكرات متعادية وصراع بلدان وأنظمة يرغمها على تفضيل الأرباح التكتيكية التي تؤدي إلى خسائر استراتيجية. والثاني هو قصر نظر العلم وزعماء المجتمع والإدارة وعدم القدرة على سبر العواقب المقبلة لأحداث اليوم واكتشافاته.

قد يتمكن أحفادنا، مستقبلاً، من تبديل الملامح الاجتماعية للبشرية، فيلجموا العداء الاجتماعي ويتعلموا تقدير الجوانب المميتة والخطيرة للاكتشافات والأحداث. وإذا ما حدث هذا فقد ينشأ نوع جديد من الحركة - تحرك البشرية إلى الأمام دون الرجوع إلى الوراء، تقدُّم دون تقهقر. لكن على الأغلب ستبقى جدلية النور والظلام وسبيكة الخير والشر إلى الأبد، أساس حركة البشرية.

إن دور الحب في حياة الإنسان اليوم قد انخفض وتناقص. لقد ولّى ذلك الزمان عندما كانت تدفع الإنسان حوافز قليلة، كانت ترتكز عليها جميع قواه الروحية، وتتحول نتيجة لذلك إلى توق، إلى حزمة قوية من الطاقة، الموجهة والمتمركزة حول نقطة واحدة.

إننا نعيش في عصر الحوافز والدوافع الكثيرة، وقد تبدلت حياة الإنسان الروحية تبدلاً كبيراً وتحولت من حياة بسيطة إلى حياة في غاية التعقيد. ودخلت فيها وأصبحت في عداد حوافزها الرئيسة تلك العوامل مثل الاقتصاد والسياسة والميول الثقافية والإبداعية، والترفيه والهوايات وما شابه ذلك..أما الحب فقد تراجع إلى الوراء وتنازل عن جزء من مكانته في نوابض الحياة الشخصية ودوافعها. وبالإضافة إلى هذه التبدلات الكبيرة، ثمة عوائق تعرقل سيرورة الحب كالإضطرابات

العصابية، والإرهاق العصبي والأعباء والهموم والحاجات الاجتماعية المختلفة.

إن حياة الناس كلها - الداخلية منها والخارجية - تتغير وتتبدل من جذورها، والحب يشغل في هذه الحياة المتبدلة مكانة متبدلة أيضاً. إنه يدخل في تناسبات جديدة مع حاجاتنا الجديدة، ويتشرب معاناة جديدة، وينصهر بصورة جديدة مع عواطف جديدة. إنه يفقد بعض الأشياء والملامح ويكتسب أشياء وملامح أخرى، ويغدو أقوى من ناحية وأضعف من ناحية أخرى... وتجرى فيه انعطافات وتبدلات درامية تدمي روح الإنسان وتوجعه بصورة مؤلمة.

الفصل الثاني

أركان الحب الخالدة

1- سر الأسرار

ما هو كنه الحب، من حيث هو عاطفة، وأين يكمن أساس قوته السحرية، التي تبدل حياة المحب كلها؟

الحب هو أعلى ذروة في شجرة العواطف والمشاعر الإنسانية، إنه التعبير الأكمل عن جميع القوى التي تطورت عند الإنسان خلال تاريخ وجوده الطويل كله. إنه بنية فوقية لحاجات الإنسان العميقة، وللمتطلبات الأولى لروحه وجسده.

إن عاطفة الحب هي أشبه بسبيكة مكثفة من جميع المثل العليا للإنسانية، ومن جميع منجزات العواطف والمشاعر الإنسانية. ولا تقتصر هذه السبيكة على المنجزات والمثل العليا؛ ففي الحب، وإلى جانب التحليقات والتألقات والإشراقات، هناك انحدارات وانهيارات دائمة، كما أن الحب مشبع ومفعم بالتناقضات المنفرجة. وكالشمس التي تشتمل على الأشعة والبقع، وكالنار التي تحرق وتبعث الدفء، كذلك الحب له نوره وله ظله، له دفؤه وحرارته وله حروقه وقروحه.

ولعل الحب هو أكثر العواطف الإنسانية تعقيداً وغموضاً. ففيه من الأسرار والألغاز والأحاجي أكثر مما في العواطف الإنسانية الأخرى كلها مجتمعة.

لقد حاول كثيرون تعريف الحب، لكن تعريفاتهم، للأسف، جاءت تبسيطاً وتسطيحاً لعاطفة الحب إلى حد كبير. ذلك لأن العاطفة عامة،

وعاطفة الحب خاصة، متعددة الوجوه والجوانب، لدرجة أنه لم يتمكن أحد حتى الآن من اصطيادها وإدخالها في شبكة منطق المفاهيم. وهاكم بعض هذه التعريفات.

جاء في قاموس الأخلاق (موسكو 1983) التعريف التالي: «الحب هو عاطفة تطابق علاقات التوحد والتقارب بين الناس، قائمة على اهتمامهم المتبادل وميول أحدهم للآخر». فالحب يفهمه علم الأخلاق والفلسفة على أنه علاقة بين شخصين، ينظر أحدهما للآخر على أنه قريب جداً منه، وبالتالي فهو يتوحد معه، أي يشعر بالحاجة إلى التوحد معه والاقتراب منه، إنه يتقمص اهتماماته وتطلعاته الخاصة، وهو يقدم نفسه جسدياً وروحياً، بصورة طوعية، للآخر، ويسعى إلى أن يمتلك أحدهما الآخر».

إن، مثل هذا التعريف للحب بلغة معادية له، يميت عاطفة الحب ويحيلها إلى جثة هامدة.. إنها مقاربة منطقية جافة، بمفاهيم ضيقة، بعيدة عن التفكير الحي الصوري، وبالتالي محكوم عليها بالانهيار. إن مثل هذه النزعة العلمية الكئيبة غير قادرة على إدراك الخلجات الحية للحب وتعقيداته المتناقضة وأسراره الكامنة - تلك الأسرار التي تستغرقه دوماً، ولا تخضع لأي تعبير لفظي.

إن التعريف الذي يمكن أن يكون مرآة صادقة للحب، بدرجة أو بأخرى، يجب أن يكون على الأغلب ثمرة التفكير المجرد والصوري في آن واحد، وأن يحمل في طياته نصاً يبين ماهو واضح وجلي في الحب، ومضمونا بين سطور النص يكشف عما هو غير واضح. وكما قال الشاعر البلجيكي الكبير (ميترلينك Maeterlinck) فإن تعريف الشيء تعريفاً دقيقاً جداً يعني تقييد هذا الشيء.

كما يجب أن يكون تعريف الحب متعدد الأجراس والأنغام، كتعدد أجراس الحب نفسه. و يجب أن يدخل في إطاره تشابك الأفكار الكبير والمعقد، حيث تمسك كل فكرة بشعاع واحد من أشعة هذه العاطفة، وتضم

هذه الأفكار كلها في وحدتها كامل حزمة هذه الأشعة، بكامل تموجاتها فيما بينها. ومثل هذا التعريف يجب أن لا يبدأ الكلام الحديث عن الحب، بل أن يكمله وينجزه، ويكون محصلته المكثفة، ونتيجة لكل ما قيل سابقاً عن جوانب الحب وأبعاده وأطرافه.

وعلى أي حال، فإن مثل هذه الصيغة الشمولية، مثل هذا التعريف الإجرائي الشامل للحب هو أكثر ضرورة وأهمية، على الغالب، للعلماء وللأغراض العلمية، ومنها علم النفس من أجل الاستشارات الزوجية والإرشاد النفسي وخدمات الأسرة. أما بالنسبة للأغراض العامة، وللاستخدام اليومي فتكفي، حسب اعتقادي، تلك الكلمات الرائعة، وغير الشمولية (التي لا تشمل ظاهرة الحب بشكل كامل) التي قالها الكاتب الفرنسي الكبير (ستاندال) في تعريفه للحب:

«أن تحب، يعني أن تشعر باللذة والمتعة، وان ترى وتدرك وتلمس وتحس بكافة حواسك، وأن ترغب بأن يكون الإنسان الذي تحبه ويحبك، على أقرب مسافة منك».

وفعلا، فالحب هو أشبه بوليمة لجميع الأحاسيس والمشاعر، تشارك فيها متعة الحواس الخمس: البصر والسمع واللمس والذوق والشم. وهذا ليس بجديد، وكان معروفاً في الحضارتين العربية والهندية القديمتين.

فالحب هو الميل الشديد إلى الاندماج - الروحي والجسدي؛ إنه الميل الشديد لكي يكون المرء، بكامل كينونته، قريباً من الإنسان الذي يحبه..

بيد أن هذا كله ليس سوى «جزء» من الحب، إنه جانبه الانفعالي والعاطفي وحده. وكلمات (ستاندال) لا تنسحب على الحب وحده، بل تنسحب أيضاً على التعلق والولع والغرام، وهي عاطفة أقل تعقيداً وأبسط تركيباً من الحب، من حيث جوانبه المختلفة.

2- عدسة الحب المزدوجة

«عندما يغرم الرجل بأنثى، لماذا تبدو له أنها أفضل امرأة في العالم، في حين أنه ما إن يتعرف عليها عن قرب، حتى يكتشف أن هذا كله وهم وخداع، وأنها ليست أفضل من الأخريات؟!»...

من بين أسرار الحب الرئيسة رؤيته الغريبة المزدوجة: فهذه الرؤية تضاعف من فضائل المحبوب وصفاته الحسنة، تماماً مثل العدسة المكبرة، وتصغّر وتضعف من نقائصه، تماماً مثل العدسة المكبرة المقلوبة.

وأحيانا لا ندرك بوضوح، من الذي نحبه أكثر: الإنسان المحبوب نفسه، أم خداع البصر، أي قرين هذا المحبوب، الوردي المتخيل الذي نسجه لا شعورنا؟

شاب (وليكن أحمد) أحب فتاة (ولتكن كاتيا)، ونشأ لدى أحمد شعور غريب: «بالنسبة لأحمد، جميع فتيات العالم ينقسمن إلى قسمين: الأول جميع الفتيات، ما عدا كاتيا، وتتجمع لديهن جميع النقائص البشرية، وهن فتيات عاديات؛ والقسم الثاني كاتيا وحدها، الخالية من أي عيوب أو نقائص، وهي أعلى من البشرية كلها».

في مثل هذا الارتقاء بالإنسان المحبوب يظهر بوضوح أحد أسرار الحب الأكثر مأساوية والأكثر تضليلاً وخداعاً.

لقد عرفت البشرية الحب منذ آلاف السنين، وليس من باب الصدفة أن يظهر العاشق (كوبيدون)، في الأساطير اليونانية، معصوب العينين دائما، وليس من العبث أن الشاعر الروماني (لوقريطيوس)، الذي عاش في القرن الأول للميلاد، كان يقول: «إن العاشقين الذين أعماهم الحب يرون فضائل محبوبيهم حيث لا وجود لها، ولا يلحظون أبداً عيوبهم ونقائصهم». وقبل ما يزيد على قرن ونصف حاول الكاتب الفرنسي (ستاندال) تفسير هذا اللغز في نظرية «التبلور crystallization». فقد ذكر في كتابه «الحب»، بأننا إذا ما تركنا غصنا عادياً أجرد في منجم الملح، فإن هذا الغصن سيتغطى كله ببلورات الملح البيضاء، ولا يمكننا أبداً

التعرف فـي هـذا المنظـر اللامـع المتبلـور علـى الغصـن الأجـرد. ويقـول ستاندال إن الشيء نفسه يحدث في الحب، حيث نكسو الإنسان المحبوب بآلاف الفضائل والصفات الجميلة، تماماً مثل العود الأجرد الذي انكسى وتغطى بالبلورات. وكتب يقول أيضاً: «إن الإنسان، مهما كان عقلانياً ومنطقياً، وبعد أن يحب ويغرم، فإنه لا يرى أي شيء إطلاقا، كما هو في الواقع». ويقول أيضاً في الكتاب نفسه: «إن المرأة القبيحة تغدو، في نظرنا، عادية واستثنائية، آية في الجمال. ولهذا فإننا في الحب نستمتع بالوهم، والوهم وحده، الذي نخلقه نحن أنفسنا».

لاشك في أن هذا الحكم يعاني من كثير من التطرف والقسوة، ومن المستبعد جداً أن نعد كل حب وأي حب مثل عاطفة دون كيشوت، الذي بدت له الراعية القذرة أميرة رائعة. ولكن أليس صحيحاً، أن الحب هو منسوج بخيوط الخيال إلى درجة خمسين بالمائة على الأقل؟

وهناك تحالف آخر مغاير تماماً في الحب. ففي الحب، وإلى جانب الوهم وخداع البصر، ثمة رؤية مستبصرة، لا تتوفر في أي عاطفة أخرى. فالمحب يرى في محبوبه تلك الأعماق التي لا يدركها المحبوب نفسه. إن نور الحب ينضج في الإنسان البذور الخفية الكامنة لفضائله، التي يمكنها أن تتفتح بنور الحب الحي الخلاق.

❖ ❖ ❖

إن رؤية الحب المستبصرة هي بمثابة الشعور بأعماق الإنسان الخفية والإدراك اللاشعوري بذراه المكنونة - إنها بمثابة الكشف عن فضائله المطوية، إنها إحساس مسبق بالقوى غير الظاهرة التي يمكن أن تتفتح بنار الحب، ومن ثم ترقى بالإنسان إلى مستوى ذراه الداخلية الكامنة.

إن حدس الحب هو عدسة مكبرة غريبة: فهي ترى في البذور

الكامنة في الإنسان ثماراً مزهرة، والشرارات تبدو أمامه شعلات ملتهبة، وتبرز رؤية المحب المستبصرة بمثابة إحساس - «فرضية» وإحساس حدسي تنبؤي - إنها تلك العاطفة التي ترى الإنسان في إمكاناته الظاهرة والكامنة، وتراه كما يمكنه أن يكون. إنها مبادرة لا شعورية لذلك الازدهار المثالي، الذي يمكن للإنسان الوصول إليه في الظروف المثالية دون أن يصل إليه في الظروف العادية.

من أين أتى هذا الهجين الجامع بين الإعماء والرؤية المستشرفة، بين الاحتقار وخداع الرؤية؟ ولماذا تغلغل هذا الهجين إلى الحب الإنساني وكيف؟

ليس لدى هذا الحدس هدف مباشر أو قريب، ولكن ربما لديه هدف بعيد، غير مباشر، ويعني الكثير بالنسبة للإنسان. إن عدسة الحب المزدوجة هي، على الأغلب، المحرك السيكولوجي الأكثر اتقاداً، والذي يجذبنا ويرتقي بنا إلى ذرى الإنسانية، إنه يحفز الإنسان بشيء ما، ليصبح على نحو ما تراه عينا المحب الورديتان المزينتان.

وسواء هذا أم ذاك، فالحب، من البداية إلى النهاية، منقسم إلى قطبين، وهما سر الأسرار، يتحول أحدهما إلى الآخر، من حين إلى حين. وهما التزيين الوردي المبالغ في الإنسان المحبوب، والتغلغل الشعاعي فيه. إنهما المبادرة إلى ذرى الإنسان الآخر واكتشاف أعماق روحه، وهذا هو القطب الأول، والمبالغة الحادة المزيفة في تقدير هذه الذرى والأعماق، وهذا هو القطب الثاني. إنهما العاطفة - الوهم والعاطفة، الخداع من ناحية، والعاطفة - التنبؤ-، والعاطفة الرؤية المستقبلية من ناحية أخرى.

إن ما يولد هذه الازدواجية هو خاصية واحدة من خاصيات الحب، وهي عينه المحسنة المزينة، ورؤيته المبالغة التي ترى في الإنسان أكثر مما لديه، فهي تراه إما مزيناً أو مثالياً، وإما ما يمكنه أن يكون ويصير بقوة الحب المبالغة.

ومن اللافت للنظر أن بنية الأعصاب عند الإنسان تضم خصائص تساعد على هذه الرؤية المزدوجة.

فقد اكتشف علماء الفيزيولوجيا أن الإحساسات الإيجابية السارة تسير في الأعصاب بشكل أفضل من الإحساسات السلبية الأليمة. فالجهاز العصبي الإنساني، عند نقله للإحساسات السارة (البصرية، اللمسية، الذوقية، السمعية) إلى الدماغ فإنه يزيد من قوتها، أما عند نقله للإحساسات غير السارة فهو يخفف منها ويضعفها. وكأنه يضع الإحساسات السارة تحت عدسة مكبِّرة، في حين يضع الإحساسات الأليمة تحت عدسة مصغِّرة.

إن هذا يعني أن الأسس البيولوجية للرؤية المزدوجة تكمن في بنية آلياتنا العصبية ذاتها، وتدخل في أعماق البنية العصبية ذاتها. وربما تكون هذه الآليات العصبية للرؤية المزدوجة أحد أركان قدرتنا العالية على الحياة، وأحد اللوالب الخفية لتطور الإنسان الارتقائي. ولكن، ومن ناحية أخرى، قد تكون الرؤية المزدوجة للإحساسات ميلاً عفوياً غريزياً، غير واع إلى السرور والفرح والسعادة.

إن الحب والعشق هما معززان قويان لمثل هذه الرؤية المكبِّرة، غير الملحوظة عادة. وهذه العدسة المزدوجة، بتركيزها على إنسان قريب منا، تولّد أرتالاً من المشاعر المتباينة والمخالفة للمألوف: حيث يظهر فتات المشاعر الصغيرة من الفضائل الإنسانية، التي يمكن مقارنتها بحبة رمل، وكأنه سبائك ذهبية، في حين تبدو النقائص والعيوب الكبيرة كالصخور وكأنها حبات معدودة من الرمل.

ويقوم علماء الدماغ بالبحث عن المراكز التي تشع وتصدر هذه المشاعر والأحاسيس المتناقضة، ويضعون مختلف الفرضيات. وتقول الباحثتان (لوريس ومارجيري ميلن) مؤلفتا كتاب «مشاعر الحيوانات والإنسان»: «تكمن في جهازنا الدماغي مشاعر وأحاسيس غريبة لم يعثر لها حتى الآن على أجهزة حسية خاصة. وربما سيثبت العلماء فيما بعد

أن جميع هذه العواطف والمشاعر غير المفهومة مرتبطة بـ «مركز اللذة» الذي تم اكتشافه مؤخراً في الدماغ»[1].

وتقول الباحثتان (ميلن)، إن إثارة مركز اللذة هذا كانت تعوض الحيوانات ذات الخبرة عن الطعام واللذة الجنسية ولذة التواصل. وقد أثبتت التجارب المخبرية أن الجرذان الجائعة كانت تبتعد عن الطعام والشراب، كما تبتعد عن الجرذان الأخرى، وتضغط إلى درجة الإعياء على الذراع التي تنطلق منها النبضات السارة في مراكز اللذة عندها.

ولكن يجدر بنا إجراء تدقيق طفيف لقول الباحثتين. فأولاً: إن ما تتحدثان عنه ليس مركزاً بل منطقة كاملة من الدماغ مختصة باللذة، وتضم مراكز الجوع والظمأ والغريزة الجنسية (بهذا الصدد، إن ما أطلق عليه فرويد اسم «الليبيدو» (الغريزة الجنسية) مشتق من اللاتينية libido ويعني الرغبة أو الشهوة). ومن المهم هنا أن منطقة اللذة تشغل 35٪ من وزن الدماغ لدى الجرذان، أما منطقة الألم فلا تشغل سوى 5٪ من وزنه. إن هذه الحقيقة تدل على الماهية البيولوجية للحياة، وعلى الميل الأولي للمادة الحية إلى ملذات الحياة ومعايشة مسراتها.

وثانياً: إن هذه المسألة أعقد من ذلك بكثير لدى الإنسان، فمشاعره وعواطفه الخفية لا يولدها جهازه الدماغي وحده. وكما ورد أعلاه، فالألياف العصبية اللادماغية تعزز إحساساتنا أو تضعفها، وتخلق أصداء خادعة ومتناقضة. ويبدو أن الأحاسيس الخفية يفرزها الدماغ والمخ والقلب والأعصاب وربما العضوية كلها، لدى الإنسان، الكائن الحي الأكثر تعقيداً.

3- دستور الانفعالات

إن الأساس الرئيس للرؤية المزدوجة هو مبدأ الهيمنة (dominance)- المبدأ الأهم في عمل الدماغ. فماهو هذا المبدأ؟ إن مركز الإثارة المسيطر في الدماغ يخضع المراكز الأخرى ويجتذب لنفسه

الإشارات الواردة إليها، وكأنه يصب ماء الآخرين في طاحونته. وعلى هذا النحو يتشرب الدماغ بقوة بعض الإشارات ويتجاهل الإشارات الأخرى المعارضة، حتى أنه يصبغ الإشارات المناقضة للأولى (أي غير السارة) بلون آخر.

وقد قال عالم الفيزيولوجيا الكبير (آ أوختومسكي)،واضع نظرية المركز المسيطر (dominant): «إن المركز المسيطر هو الإحساس والانتباه باتجاه واحد، وهو الإمساك والأخذ بما يعزز ويؤكد هذا المركز المسيطر، ويبدو أن جميع عواطفنا وانفعالاتنا تعمل وفق هذا المبدأ».

وكأن لدى كل انفعال عدستان: عدسة مكبرة وأخرى مصغرة. فالانفعالات الإيجابية تنظر إلى فضائل الأشياء وجوانبها الإيجابية عبر العدسة المكبرة، وتنظر إلى السلبيات عبر العدسة المصغرة. أما الانفعالات السلبية، فتنظر بطريقة معاكسة: حيث تنظر إلى السلبيات عبر العدسة المكبرة وإلى الإيجابيات عبر العدسة المصغرة.

إن الانفعال الإيجابي توجهه عدسة مزدوجة مضيئة مشرقة، في حين أن الانفعال السلبي يضعف من الانطباعات المعاكسة له. ولكن كلما كان الانفعال أضعف كلما تضعف عدسته المزدوجة، والعكس صحيح، فكلما قوي الانفعال تقوى عدسته المزدوجة أكثر.

إن مبدأ العدسة المزدوجة هو، على الأغلب، القانون الرئيس لعمل جميع انفعالاتنا، وهو مزدوج بشكل صارخ. فهو يعزز فجأة طاقة الإنسان الضرورية من أجل الحصول على ما يروقه وما يسره، أو من أجل التخلص من الخطر وإبعاد الضرر. ولهذا فإن أحادية الانفعالات تعد إحدى العتلات الرئيسة لجميع تحليقات الإنسان، وجميع اكتشافاته ومنجزاته. لكن أحادية الانفعالات ذاتها، هي النابض الانفعالي الرئيس لغشاوة الإنسان وعماه، ولجميع إخفاقاته وأوهامه الذاتية - اليومية والتاريخية، الحياتية والوجودية.

إن طبيعة الإنسان ازدواجية، ومن حيث المبدأ، يجدر بنا أن نزن كل

نـزوة مـن نزواتنـا بوعينـا. فـالوعي لديه عدسـة أدق بكثـير، وهـي ليسـت عدسـة ازدواجيـة، بـل عدسـة دقيقـة كـالمرآة، إنـها «طبـق الأصـل» وإتحـاد هاتين العدستين يعزز إلى حـد كبـير جوانبـهما القويـة ويضعـف جوانبـهما الضعيفة. وكلما كان الانفعال أكثر حـدة وحـرارة كـانت الحاجـة أكبر إلـى هذا الاتحاد مع الوعي، لأنه كلمـا كـان المحـرك أقـوى كـان علـى المكبـح أن يكون أقوى.

وأكثر ما تظهر هذه العدسة الازدواجية في الفترة الربيعية المتقدة، فـي فـترة الحـب الملتهبـة، أو فـترة العاطفـة الحـارة العاصفـة. أمـا عندمـا ينحسر توقد العواطف وتميل قوتـها إلـى الضعـف، يبـدأ الوعـي والشـعور الواقعـي بإزاحـة تـأثير العواطـف الرومانسـي. لكـن العدسـة الرومانسـية المتفائلة لا تموت بل تعتدل وتتخلى عن دورها في قيادة أنشودة العواطف لتخـدم هـذه الأنشـودة بمصاحبـة هادئـة شـبه ملحوظـة أو غـير ملحوظـة إطلاقاً...

قد لا توجد العدسة الازدواجية لدى الأشخاص العقلانيين، كما قد لا تظهر في حـال الـهوى أو التعلـق الخفيـف. ويمكـن أن لا تظـهر العدسـة الازدواجية أيضاً لدى الإنسان الذي يعاني من شعور حاد بـالنقص، حيث يقوم لا شعوره بقمـع هـذه العدسـة، ولا يسـمح لـها بالظـهور، وكأنـه بذلـك يوازن شعوره بالنقص، يعادل نفسه بالإنسان المعجب به.

وقد لا تظهر العدسة الازدواجية أيضاً لدى أولئـك الذيـن يخشـون على مستقبلهم مع الشخص المحبوب، حيث يركـز الحـدس اهتمامـه علـى سلبيات هذا الشخص ونقائصه، وكأنه يحذره بذلك من الفشل والإخفاق.

إن ظهور العدسـة الازدواجيـة هـو دلالـة إمـا علـى سـير العواطـف الطبيعي، أو على هيجانها واندفاعها الغض والظمـأ الشـديد إلـى الحـب. أما غيابها فهو دلالة على الابتعاد عن سير العواطف الطبيعي. إنه بمثابة نظـرة لاشـعورية مـن أعمـاق الإنسـان المكنونـة إلـى المسـتقبل، إنـه بمثابـة تحذير باحتمال انهيار العواطف – إما بسبب عيوبنا ونقائصنا نحن، وإمـا

بسبب نقائص الإنسان المحبوب، وإما بسبب تنافر هذه النقائص وتلك وعدم توافقها.

أما قمع العدسة الازدواجية وظهورها بصورة مخفية، مكبوتة فهو شيء آخر، وقد يكون ذلك طبيعياً بعد انتهاء بداية الحب وفورته وبدء مرحلته المتوسطة ذات الشجون. وعلى أي حال، فإن ازدياد هذا القمع للعدسة الازدواجية قد يكون صدى للحب المنطفئ وعلامة لحلول نهايته...

يبدو مما سبق، أن النظرة الازدواجية تسيطر على كل شيء، ولا وجود أبداً لقانون عام واحد، صالح لجميع حالات الحياة وتنوعها، بل هناك صيغ عديدة متشابهة، أو متقاربة، أو قد لا يشبه بعضها البعض الآخر إطلاقاً...

4- بين الأموات والأحياء

لقد عرف الناس الرؤية الوردية للحب منذ أقدم العصور. لكن أعين الحب التنبؤية ورؤيته الاستبصارية لم تتحدث عنها أدبيات الحب، سواء القديمة منها أو الحديثة. ومن غير المفهوم، لماذا لم يرَ مفكر واحد ولا شاعر واحد وجه الحب هذا خلال تاريخ البشرية كله. ربما الحياة ذاتها، كانت معادية لمثل هذا الوجه، ولم تسمح له بالظهور، وكان محتوماً على الحب أن يكون دراما، أو مأساة، وليس حياة مسالمة رغيدة.

لكن رجلاً واحداً، هو ليف تولستوي، الكاتب والمفكر والروائي الروسي الشهير، مؤلف رواية «الحرب والسلام»، تمكن من سبر خاصية الحب الغريبة هذه. فبعدما أحب (بيير بيزوخوف) (ناتاشا)[2]، ظهرت لديه فراسة خفية غريبة: «كان بيير بيزوخوف، عندما يلتقي شخصاً ما، كائناً من كان، يرى فيه على الفور، ودون أي جهد، ما هو جيد وما يستحق فيه الحب والتقدير». كان يفكر في نفسه قائلاً: ربما كنت أبدو آنذاك غريباً ومضحكاً، غير أنني لم أكن آنذاك مجنوناً إلى هذه الدرجة، كما

كنت أبدو. بل العكس هو الصحيح، فقد كنت آنذاك أكثر ذكاء وفراسة من أي وقت آخر، وكنت أدرك كل ما يجدر بي فهمه ومعرفته في الحياة، لأنني كنت... سعيداً...»[3].

إن هذه العبارة تنطوي على مفارقة واضحة، وبخاصة إذا ما تذكرنا الحقيقة القديمة القائلة بأن الحب يجعل من الإنسان غبياً أحمق. (وهذه بالمناسبة، شبه حقيقة وليست حقيقة كاملة، لأن الحب، مثله مثل جميع العواطف والمشاعر القوية، يجعل الإنسان غبياً أحمق، لكنه يضفي عليه بعداً جديداً أعمق: فالحب قد يغلق العقل العادي، لكنه يقوي الحدس إلى درجة عالية جداً، وهو عقل اللاشعور وما فوق الشعور). وكأننا بتولستوي يقول: إن الحب يجعل الإنسان أشد ذكاء، وأن جنون المحب هو موقف طبيعي وعادي في الحياة، وهذا الموقف قد يبدو جنوناً، وذلك فقط لأن الحياة تسودها قوانين وقواعد غير طبيعية.

وبالطبع، فمثل هذا الموقف من الناس هو موقف خادع وطوباوي، فهو يأخذ منهم جانباً واحداً، ويبالغ فيه ويزينه ويجعله أكثر إشراقا. ولكن، هنا بالذات تكمن خاصية هامة من خاصيات الطبيعة الإنسانية، ألا وهي ميلنا إلى المثل الأعلى. وهذا الميل قوي جداً عند الأطفال، فهم يؤمنون، بصورة عفوية ساذجة، بالكمال الإنساني، وأي ضعف يلمسونه من إنسان قريب منهم يشعرهم بالذهول مثل صدمة كئيبة أليمة. كما أن هذا الميل قوي جداً لدى من يحب، وكثيراً ما يكون هذا الميل أكثر قوة كلما كان حبه أشد قوة.

إن الشخص الذي يحب يرى في الحياة جوانب جميلة أكثر بكثير من الذي لا يحب. وكأنها جمالية خاصة بالحب، حيث تسقط عن الأشياء الرغوة الرمادية التي تغطيها، وتظهر أمام الإنسان روعتها الخفية المكنونة.

إن الحب يبدل جميع إدراكات الإنسان ومشاعره، ويجعلها أكثر حساسية نحو الجمال. وهذه الإدراكات، كما يبدو، تحمل في طياتها ميل

الناس و نزعتهم إلى الحياة المثالية، الحياة القائمة على قوانين الخير و الجمال والحرية والعدالة. ومن الأهمية بمكان أن لا تختص هذه النزعة بالعقل وحده، بل أن تكون أيضاً نزعة عواطف الإنسان اللاشعورية، نزعة أعماق الإنسان الانفعالية الأعمق غوراً.

هذا يعني أن عالم العواطف الإنسانية ذاته يناسبه نموذج الحياة المنسجم أكثر من غيره من النماذج، وأن طبيعة الإنسان ذاتها تميل بصورة عفوية لاشعورية إلى مثل هذا النموذج.

إن النزعة إلى الانسجام، إلى المثل الأعلى - هي سعي الإنسان الطبيعي، الكامن في طبيعته الاجتماعية ذاتها. وقد ظهرت هذه النزعة عند البشر منذ العصور البدائية، وتجسدت بوضوح في الميثولوجيا القديمة، التي ظهرت قبل ظهور الأديان، في الميثولوجيا الآشورية والمصرية، والإغريقية، والهندية والصينية، وفي ميثولوجيا قبائل أستراليا وأفريقيا وأوقيانوسيا وأمريكا.

والميثولوجيا ليست مجرد «تفسير كاذب للقوى المحركة للحياة». إنها بادئ ذي بدء، نوع من الأوتوبيا (التفكير الطوباوي الخيالي)، وشكل لخلق المثل الأعلى. ففي صور الآلهة، والجبارين والأبطال القادرين على كل شيء، وبشكل طفولي وروائي، تجسدت المثل العليا للناس القدماء، وتجسد فيها طموحهم لامتلاك تلك القوى التي كانت تستعبدهم وتسيطر عليهم. ورغم أن هذه المثل كانت تظهر آنذاك بشكل مخيف ومشوه، ومحاط بالرعب والجهل، فقد حملت في طياتها سعي الناس ونزعتهم،وتطلعهم إلى المعرفة والقوة والجبروت.

لقد جمعت الميثولوجيا القديمة غالبية أحلام الإنسان الأساسية التي لا تزال حية حتى الآن: كالنزوع إلى السيطرة على قوة الرياح ومجاري الأنهار، والميل إلى العمل الجبار، القادر على كل شيء، والسعي إلى الحركة السريعة، وإلى الطيران، والحياة الخالية من الحاجة والصعوبات، والتطلع إلى المساواة والعدالة.

لقد كانت هذه هي الطوباويات الاجتماعية العظيمة الأولى، وفيها ظهرت للمرة الأولى، بذور تلك المثل العليا الإنسانية، التي رفعت لواءها فيما بعد خير قوى البشرية.

قبل أربعة وعشرين قرناً أبدع أفلاطون أول فلسفة للحب في الثقافة الإنسانية، وكانت هذه الفلسفة خطوة كبيرة نحو فهم الحب الإنساني، ثم أصبحت فيما بعد مصدراً لغالبية نظريات الحب.

الحب حسب رأي أفلاطون، هو عاطفة مزدوجة، تضم في ذاتها جوانب متعارضة من الطبيعة الإنسانية. ففي هذه العاطفة يكمن ميل الناس وتوقهم إلى الجميل والرائع، كما يكمن شعور بنقص ما، بخسارة وفقدان، وسعي للتعويض عما هو غير متوفر لدى الإنسان. وهذه النزعة المزدوجة المركبة (أي الحب) تحمل للإنسان الفائدة والضرر، وتمنحه الخير والشر. إن الحب كامن في طبيعة الإنسان ذاتها، وحاجة الإنسان إليه ضرورية من أجل علاج عيوب هذه الطبيعة والتعويض عنها.

هكذا ظهرت في ثقافتنا لأول مرة فكرة قوة الحب ودوره الخلاق: دورٌ شافي الطبيعة الإنسانية، وصانع الأفضل والمبرِّئ من الأسوأ فيها.

من بين الأسس التي تقوم عليها نظرية أفلاطون في الحب نظريته القائلة بطبيعة النفس المجنحة.

فالإنسان بالنسبة لأفلاطون - كما هو بالنسبة للمثاليين الآخرين - يتألف من روح خالدة وجسد فان.

والنفس الإنسانية هي جزيء صغير من «الروح الكونية»، التي تحلق، في البداية، فيما وراء السماء، حيث توجد «الكينونة» و«الحقيقة» - بداية الكون العظيمة الأولى.

بعد ذلك، تفقد النفس أجنحتها، ولن تستطيع بعدها التحليق في العالم العلوي الإلهي، وعليها أن تجد لنفسها ركيزة في جسد فان، مآله الموت.

ومع أنها تعيش فيه، فهي، وباعتبارها جزءاً من النفس الكونية،

تتطلع إلى الماضي، إلى ما وراء السماء، إلى النفس الكونية. وكي تعود إلى هذا المجال، عليها أن تستعيد أجنحتها. وهذا بالذات ما يفعله الحب: فعندما يحب الإنسان، تتذكر نفسه جمال ما وراء السماء، جمال كينونة الحياة في ما وراء السماء، كما عرفتها سابقا، وهذا يكسبها الأجنحة والقدرة على التحليق. فالحب، برأي أفلاطون، يمنح الإنسان النشوة، وهذه النشوة الروحية هي جسر يربط بين عالم الخلود وعالم الموت. إن أسرار الحب تقود الإنسان إلى أسمى أسرار الحياة، إلى ماهية الحياة، إنها تسمح للنفس بتذكر لمعات الحقيقة الإلهية العظيمة التي كانت تعيشها.

ولهذا، فالحب عند أفلاطون، هو سلم يرتقي إلى مغزى الحياة، إلى الخلود. إنه جزء هام من الجوهر الإنساني، إنه أحد أهم تجليات الطبيعة الإنسانية ومظاهرها. الحب، كما يراه أفلاطون، يحول الإنسان إلى جزء من النظام الكوني الكلي، ويربطه بالأرض والسماء، وبأركان الحياة كلها. والحب يجعل من الإنسان أكبر مما هو بالفعل، ويرتقي به إلى الأعلى، إلى موضع وسط بين الكائن الفاني والكائن الخالد...

هنا يبرز الدور الأكثر هيمنة واستراتيجية للحب، في صورته الميثولوجية والاحتفالية، كما تبرز خاصيته الأكثر غموضاً، التي تخترق قوتها المكنونة الآسرة القيود العفنة للأيام العادية، وتحلق بالإنسان فوق عالم فان، وتجعله فوق الإنسان العادي، تجعله شبه إله...

5- من أعماق النفس

إن ولادة الحب هي مجموعة من التغيرات الكبيرة وغير المرئية عن الإنسان. ففيه تحدث تحولات داخلية خفية، غير معروفة، بالنسبة لنا، ولا نرى غير نتائجها، لكننا لا نعرف ماهية هذه التحولات ولا كيف تحدث.

لقد حقق الكاتب الروسي الكبير (إيفان تورغينيف)[4]، في روايته الشهيرة «آسيا» اكتشافاً سيكولوجياً كبيراً، بيّن فيه كيف يولد الحب.

فعندما التقى بطل الرواية الفتاة (آسيا) لم يشعر تجاهها بأي شيء سوى الفضول العادي، لكنه عاد في المساء إلى بيته في حالة غريبة: كان مفعماً بتوقعات باطلة لا نهاية لها. يقول بطل الرواية: «لقد شعرت بنفسي سعيدا... ولكن ما سر هذه السعادة؟ لماذا كنت سعيداً؟ فأنا لم أرغب بشيء...، ولم أفكر بأي شيء...». إنه لا يعرف بعد ما حصل له، لكن لا شعوره كان يدرك سبب سعادته، كان يعرف ويتحدث عن ذلك بلغته الخاصة - لغة العواطف المبهمة الغامضة، لغة اللهفات غير المفهومة.

إنها الخطوات الخفية الأولى للحب: خطوات هوائية، غير مرئية وغير واعية. ليست هي سهم إله الحب (آمور) الذي ينغرز في القلب بضربة واحدة، بل هي تدفقات من الأحاسيس والمشاعر التي تلج إلى النفس بصورة غير ملحوظة، فتجعلها تهذي وتقلق بسبب غموضها.

في اليوم التالي لم تحز آسيا على إعجاب البطل. وفي مساء اليوم نفسه، شعر بصورة مفاجئة ودون أسباب موجبة، باشتياق حاد موجع، وبثقل قاتل في قلبه. هنا تبدأ ثورة اللاشعور - استجابة النفس الأولى للحب المتغلغل إليها. هنا يبدو وكأن اللاشعور قد بدأ يخرج من دائرة الامتثال والطاعة، فيزداد دوره بصورة مفاجئة، وعلى شكل قفزات، في حياة الإنسان الداخلية. فيبرز على الساحة، على حلبة سيكولوجية المحب، ويبدأ عزفه المنفرد، ويؤدي دور المايسترو، في الموسيقا المتعددة الأصوات، لأحاسيسنا ومشاعرنا. ويتحول اللاشعور إلى طاغية مهيمنة على النفس: فيوجهها زارعاً فيها تدفقات غير مفهومة من العواطف والمشاعر المتضاربة، والمتنقلة من السعادة إلى الحسرة، ومن المسرة إلى الحنين والشوق...

وبعد فترة وجيزة من الزمن، تنشأ لديه أحاسيس جديدة، أقوى وأشد، وبالتالي أوضح. لقد أدرك أخيراً بطل الرواية ما حل به: «إن نفسي تشتعل بالظمأ إلى السعادة... السعادة، السعادة، وحتى الثمالة، هذا ما كنت أتوق إليه، هذا ما كنت أتلهف إليه...»

وهذا يشكل انتقالاً للحب أو التعلق من اللاشعور إلى الشعور، وخطوته الأولى هي الانتقال من أعماق النفس المكنونة إلى الحدود المرئية الواضحة. فالغرام، بعد سيطرته على اللاشعور، يغزو من هناك، مساحات جديدة في النفس. وتصبح قوته كبيرة لدرجة أنها تغدو مدركَة ومفهومة من قبل العقل.

لقد اعتقد الناس، طيلة آلاف السنين، أن الحب يوقع الإنسان في لحظة واحدة على الفور، مثل شرارة البرق. ثم أدركوا أن ما يحدث من النظرة الأولى ليس الحب بل الولع والغرام، وقد يتطور هذا الولع أو الغرام لاحقاً ليصبح حباً حقيقياً وقد لا يتحول إلى حب.

إن ولادة الحب ليست ضربة واحدة، سريعة مفاجئة قاضية، بل هو إعادة بناء متدرجة لحياة الإنسان الداخلية كلها، وانتقالها، حلقة إثر حلقة، إلى حالة جديدة. وهذا الإحساس الجديد بالنسبة للإنسان، ولدخوله في قوام مشاعره وعواطفه العادية، فهو يبدل هذه العواطف والمشاعر، واحدة إثر أخرى، ويظهر من خلالها، مثل نقاط الدهان التي تطفو على سطح الماء، في البداية، دون أن يؤثر عليها، لكنه سرعان ما يبدل لونها ويطبعها بطابعه، بالتدريج.

6- دور ما تحت الشعور الكبير :

إن ما تحت الشعور هو أشبه ما يكون بفضاء داخلي كبير، في أعماق نفوسنا، تختفي ضمنه قوى عديدة محركة لعواطفنا وسلوكياتنا. وتتميز الأحاسيس التحت شعورية عن الأحاسيس الشعورية بقوتها الكبيرة، بادئ ذي بدء. إنها أحاسيس هادئة، تشع بصورة ضعيفة وتتلألأ بصورة غير ملحوظة، داخلنا في ذواتنا، ولذلك لا نشعر بها كيف تجري في أعماقنا، وكيف تنشأ أو كيف تنطفئ.

ومثل هذه الأحاسيس التحت شعورية هي الغالبية. فنحن لا ندرك ولا نشعر إلا بجزء بسيط، بواحد من المليون مما يجري داخلنا ومن

حولنا[4]. ومن بين تلك الأحاسيس التحت شعورية، عدد لا يحصى من الإشارات التي ترد كل ثانية من جسدنا: ونحن لا نشعر بهذه الإشارات إلا عندما تتجاوز الحد الطبيعي، وتسبب لنا الألم والحرج.

إن آلية عضويتنا كلها، والقوى المحركة لنفوسنا، كلها تعمل وفق نظام ما تحت الشعور. فما تحت الشعور هو تنظيم دقيق محكم للنفس الإنسانية، وهو يشكل إحدى الركائز الأساسية لحياة الكائنات الحية كلها. ولو كان بإمكان الكائن الحي الشعور بجزء واحد من آلاف الأجزاء من الإشارات الواردة إلى الدماغ لكان مصيره الموت: ولما كان باستطاعته القيام بأي عمل سوى الإصغاء إلى أحاسيسه ومعايشتها. وهذا بالذات ما يحدث عند المريض عندما يشتد عليه المرض، أو كما يحدث عند المرضى العقلانيين، أو كما يحدث لدى من تسمم ما تحت شعوره بالحسرة والكارثة والمصيبة.

وتحديداً، بفضل ما تحت الشعور لا نقع نحن أسرى أحاسيسنا ومشاعرنا، وبفضل دور ما تحت الشعور التحريري، بلغ الشعور الإنساني الذرى والقمم السامية.

يعتقد كثيرون أن ما تحت الشعور يقتصر على الغرائز والإحساسات الجسدية والنواظم الآلية للجسم والعضوية عامة. لكن ما تحت الشعور ليس ملحقاً بيولوجياً بالشعور، بل هو المنطقة العميقة من النفس التي تحوي على الغالب، طبقات متنوعة، غاية التنوع: بيولوجية وسيكولوجية وعقلية وغيرها. إن جميع إحساساتنا - البصرية والسمعية والذوقية واللمسية والشمية - قد تكون شعورية وقد تكون تحت شعورية. كما أن جميع مشاعرنا وعواطفنا: كالحب والكراهية، والصداقة والعداء، والاحترام والاحتقار، والتعاطف والنفور- تحمل في طياتها طبقات شعورية وأخرى تحت شعورية. حتى أن أفكارنا، وقبل أن تصبح في ساحة الشعور، تمر في طريقها، كما يبدو عبر تحت الشعور. وهذا ما يتعلق بصورة خاصة بالأفكار الحدسية، والأفكار الاستبصارية الابتكارية التي تشرق فجأة في الدماغ.

على أي حال، فقد أخذ العلماء، في الفترات الأخيرة يطلقون اسم ما فوق الشعور على هذا الجزء من النفس، وهذا ما سنتناوله لاحقا. أما ما يتعلق بمفهوم «الروح» الذي تخلى عنه، عبثاً، علم النفس، فيقصد به في علم النفس اليوم، إما الجانب الانفعالي من النفس بدون البصيرة المنطقية أي بدون الطبقة العقلانية، أو النفس بكاملها، مع استبعاد العقل إلى الخلف، حيث يختفي وراء العواطف. وباختصار وبساطة، يقصد الآن بمفهوم «الروح» النفس الطفولية الأولى، التي تسود فيها العواطف والتفكير الصوري، ويخضع لهما التفكير المنطقي. وبهذا المعنى سنستخدم مصطلح «الروح» في هذا الكتاب.

7 - «أنت هو أنا»

ليس الحب مجرد ميل أو شوق إلى إنسان آخر، بل ويشمل الحب أيضاً فهم هذا الإنسان، فهمه من الأعماق، بالنفس والروح، فهمه من أعماق العقل والقلب. وليس من باب الصدفة أن يقول المثل الفرنسي: أن تكون محبوباً يعني أن تكون مفهوماً. وهذا بالذات ما يذهل ويدهش المحبوبين، وبخاصة الفتيات المحبوبات: كيف يمكنه فهمي بهذا العمق؟ كيف يعرف ويخمن بدقة، رغباتي الأشد غموضاً وضبابية؟ وكيف يدرك من أقل من كلمة واحدة كل ما أريد قوله؟ إن مثل هذا الحدس الأسمى الذي يولده الحب، ومثل هذا التعاطف مع مشاعر وعواطف إنسان آخر - هو أحد تحليقات الحب السامية، وهو الذي يكسب حالات نفسية لا مثيل لها، إنه يكسب متعة القرب الإنساني الكامل، ويمنح وهم الالتحام الكامل بين روحين، وبين نفسين.

إن الانسجام بين «الأنا» و«اللاأنا»، الذي يحدث في الحب الحقيقي، وميل المحبين إلى الاندماج الكامل هما من أقدم أسرار الحب. وقد تحدث عنهما الشعراء والفلاسفة منذ آلاف السنين. فقد كتب يقول أفلاطون: إن المحب مولع بالطموح و«السعي إلى الاندماج والانصهار

بمحبوبه في كائن واحد متحد». غير أن الروائي الروسي الكبير ليف تولستوي هو خير من أدرك وصوّر هذه الحالة النفسية الغريبة.

عاش (كونستانتين ليفين) بطل رواية تولستوي «آنا كارينينا» بعد عرسه إحساساً مذهلاً - صادقاً وليس مصطنعا- (لاسيما وان الكاتب ليف تولستوي قد منح بطل روايته كثيراً من عواطفه ومشاعره الشخصية، ويبدو أنه ليس من قبيل المصادفة أن كنية بطله (ليفين) مشتقة من اسم الكاتب «ليف»). ذات يوم، تأخر (ليفين) في العودة إلى بيته مساء، واستقبلته (كيتي)، القلقة المضطربة، بعتاب ولوم شديدين. فشعر ليفين بالإهانة، وأراد أن يوجه لها عبارات ساخطة، «لكنه أحس في اللحظة نفسها، بأنه... قد سدد لنفسه ضربة دون قصد». «لقد أدرك أنها ليست قريبة جداً منه فحسب، بل أنه هو نفسه، لا يعرف أين تنتهي هي، وأين يبدأ هو» لقد كانت (كيتي) «هو نفسه».

هذا الإحساس المادي باندماج المحب في شخص آخر، هو إحساس خيالي بكل معنى الكلمة. فكلنا يعرف أن الإنسان في الحالة العادية، لا يمكنه بكل بساطة أن يحس - مادياً - بعواطف إنسان آخر، وأن يعاني مشاعره ذاتها. فقط في تحليقات الحب الشديد، ينشأ سراب سيكولوجي غريب، عندما يندمج شخصان معاً وكأن تيارات الحب تربط بين روحين منفصلين، وكأن جسوراً غير مرئية تربط بين أعصاب المحبَين، فتجري أحاسيس أحدهما في الآخر، وتغدو أحاسيس مشتركة، مثل الجوع والعطش لدى التوائم السيامية[5]...

ويبدو وكأن عناية الإنسان العادية بنفسه تبدل فجأة مكان إقامتها وتحل في جسد إنسان آخر. وفجأة تغدو مصالحه وهمومه واهتماماته مصالحك وهمومك واهتماماتك. إنها أشبه ما يكون بـ«هجرة الأرواح»، وكأن جزءاً من روحك ينتقل إلى جسد إنسان آخر، فتشعر أنت بمشاعره وعواطفه، كما لو كانت مشاعرك وعواطفك.

هنا يحدث خرق واضح وصارخ لقوانين بيولوجية معروفة. فنحن

جميعاً نعرف أن إحساساتنا مغلقة ضمن أجسادها، ولا يمكن للإنسان أن يشعر مادياً بأحاسيس الغير. وحتى إذا ما أحس بها - إما بالخيال أو بالحاسة السادسة - وليس جسدياً أو عصبياً، بل «نفسياً»، فقدرة الدماغ على ذلك غير معروفة لنا حتى الآن.

ربما تكون الاحساسات السيكولوجية أقل ارتباطاً بالجسد من الاحساسات المادية، وربما يمكن الشعور بها عن بعد، بقوة الحب، مثل الشعور بالإيحاءات المغناطيسية، ومثل التخاطر عن بعد telepathy؟

لكن من أين يأتي التخاطر عن بعد للعواطف؟ وأي تيارات تسري خلال ذلك في أرواح وأعصاب المحبين؟ إن هذا أمر غير واضح، وعلى علماء النفس وعلماء الفيزيولوجيا أن يكشفوا سر هذا اللغز، ويكشفوا عن طبيعته البيونفسية.

وبهذا الصدد، يمكن لأبحاث علماء نفس الطفولة أن تقدم مساهمتها ومساعدتها في هذه المسألة. ذلك لأن الأطفال يتميزون بقوة التعاطف مع مشاعر الأشخاص القريبين منهم.

كذلك يعاني الأطفال الصغار بشدة من آلام وأفراح القريبين منهم ويتعاطفون معها، كما لو كانوا يشعرون بها أنفسهم. وكأنه لديهم فئة خاصة من العواطف وهي «العواطف - الأصداء» و«العواطف العاكسة»، التي تبرز وكأنها أصداء للعواطف والمشاعر التي يحسها القريبون منهم وأهلهم.

ومن المحتمل، بعد أن يكتشف علماء النفس الطبيعة البيونفسية لهذه العواطف، أن يمتلكوا مفاتيح ألغاز الحب السيكولوجية الهامة.

وسواء أصبح ذلك ممكنا أم لا، فمما لاشك فيه أن الحب يرهف حياتنا ويثريها كلها إلى حد كبير، روحياً ونفسياً وجسدياً، ويولد لدى الأشخاص المحبين قابلية عميقة لاختراق الأغوار النفسية العميقة لمحبوبيهم ومحبوباتهم.

الهوامش :

(1) لوريس ميلن، مارغيري ميلن «مشاعر الحيوانات والإنسان». موسكو، 1966.

(2) من الشخصيات الرئيسة في رواية تولستوي «الحرب والسلام»

(2) ليف تولستوي «الحرب والسلام»

(3) إيفان تورغينيف روائي روسي كبير

(4) لقد أثبت العلماء أن شعور الإنسان يستقبل مئة وحدة معلوماتية في الثانية الواحدة، أما اللاشعور فقادر على استقبال المليارات في الثانية.

(5) التوائم السيامية.

الفصل الثالث

الطاقة النفسية والحب

1- لغز جديد لم يكتشف حتى النهاية

هنا أيضاً، تظهر ازدواجية الحب. ثمة التحام مرضي للأرواح والنفوس، يمزق الناس، ولا يحمل لهم إلا الشر. وإليك عزيزي القارئ بعض الأمثلة على الالتحام المرضي للنفوس.

«عندما كنت أحدث أقاربي ومعارفي وأشكو لهم أنني أشعر بمزاج زوجي على بعد مسافة كبيرة، كانوا يضحكون، ويسخرون مني...

سارت أمورنا (أنا وزوجي) على نحو سيئ، وقررت قطع علاقتي به بصورة نهائية، لكنني لم أكن أعرف شيئاً هاماً، هو أنه قد استولى على قلبي وسيطر عليه. تصور كيف تجري أموري!!.

إنني لا أسيطر أبداً على نفسي، ولا أستطيع أن أكون سيدة مزاجي. وطباع زوجي صعبة، لا يمكن مقارنتها إلا بالكارثة الطبيعية السيئة. فإذا كان سيء المزاج يبقى غاضباً حانقاً لمدة شهر كامل. وهو لا يحب المرأة الأخرى التي يعيش معها الآن، وهذا يؤدي إلى ازدياد حدة سوء طباعه. تصور أن مزاجه السيئ هذا ينتقل إلي. ورغم مضي وقت طويل على انفصالنا، فإن مزاجنا لا يزال واحداً. فإذا كان حانقاً فأنا كذلك حانقة، وإذا كان هادئاً فأنا هادئة..

إنه يقيم الآن في مدينة أخرى. وقد أصبت في قولك بأنه يمكن لقلبين أن يتحدا ويلتحما بقوة كبيرة، وكأن التحامهما التحام مادي..

وإنني مستعدة لإجراء عملية جراحية للتخلص من هذا الوضع المشؤوم، من أجل أن أعيش مزاجي الخاص بي!»

هذا ما كتبته المرضة (ب. س.) في رسالتها إلى مؤلف هذا الكتاب، عام 1977.

ما هو سبب هذا الالتحام المرضي للأرواح والنفوس، وما هي آلياته السيكولوجية؟ هذا لا يزال لغزاً حتى الآن، رغم أنه ظهر ما يشبه الحل لهذا اللغز في الفترة الأخيرة. ونقول هنا شبح حل وليس بالحل، لأن هذا اللغز يفسر بلغز آخر أكثر غموضاً.

- «قلت بأن اتحاد جملتين عصبيتين أمر مستحيل، فأين إذن فرضية الساحة المغناطيسية الحيوية؟ يمكّن المتخاطران extra sensors. ثم ألا يوجد اتحاد جملتين عصبيتين بالطاقة؟»

(جزء من رسالة وردت المؤلف من معهد الطاقة الفيزيائية)

- «ما هو الأساس الطبيعي لحدس المغرمين والعاشقين؟ ربما لديهم، مثل الدلفين، إشارات معينة تربط فيما بينهم على موجة معينة؟ وهذه المسألة موضع دراسة علمية؟»

(مقتطف من رسالة وردت المؤلف من نادي المرأة بموسكو)

- «ما رأيك بتفاعلات الحب عن طريق الطاقة؟ فالطاقة تشكل أحد أسس الوجود. والعمليات النفسية هي، من حيث الواقع، عمليات توليد للطاقة. وإذا كنت تعترف بنزعة الحب في توليد الطاقة energysm of love، فعليك الاعتراف بوجود أنواع مختلفة من الطاقة، بما فيها الطاقة الروحية».

(رسالة للمؤلف من كلية الطب بموسكو)

إن فرضية الطاقة الحيوية، أو على الأصح فرضية الطاقة النفسية الحيوية هي فرضية مغرية للغاية، ولها، كما هو واضح، تربتها وخلفيتها وجذورها. لكن كثيراً من الأقوال حول هذه الطاقة ضبابي للغاية، وافتراضي أكثر مما هو يقيني. وهنا لابد للباحث من الحذر الشديد من كل ما هو غير صحيح، وكل ما هو غير ظاهري ملموس.

على أي حال، في هذا المجال، مجال الطاقة الحيوية، وإلى جانب الأمور الضبابية وغير المستقرة، ثمة جوانب بديهية واضحة إلى حد كبير، وقابلة للتفسير. فقد أثبت علماء الفيزيولوجيا أن خلايا الكائن الحي (العضوية الحية)، أشبه ما تكون بمحطات كهربائية حيوية صغيرة، تولد طاقة خاصة، ومن المحتمل جداً أن تكون هذه الطاقة بالذات هي أساس الحياة.

وهذه الطاقة يمكن قياسها بأجهزة قياس خاصة، كما هو الأمر بالنسبة للتيارات الحيوية للدماغ والقلب التي يمكن قياسها بواسطة جهاز تسجيل عمل الدماغ الكهربائي encephalograph، أو بواسطة جهاز تسجيل ضربات القلب، ومن خلالهما نعرف حالة المريض الصحية.

ومعروف على نطاق واسع «تأثير كيريليان» - الإشعاع الطاقي للنباتات الذي اكتشفه الباحثان الأرمينيان (كيريليان). ومثل هذا الإشعاع، الشبيه بالهالة المضيئة لا نجده فوق أوراق الشجر فحسب، بل وفوق الحيوانات، وفوق البشر، وهناك أجهزة خاصة لقياس هذه الهالة بتيارات عالية التردد[1].

في الستينات ظهرت فرضية (طرحها المهندس ياروسلاف بيرغوفوي من مدينة كييف) مفادها أن قاعدة الطاقة موجودة أيضاً في عمليات التفكير والعمليات السيكولوجية العادية[2]. إن كل ما يحدث في الكائن الحي له قياس (بعد) الطاقة الخاص به، ومن المحتمل أن إحساساتنا ومشاعرنا وأفكارنا لها أساسها المادي - فهي تتكون من إشعاعات من الطاقة.

وإن ما يدعى الآن، بصورة غير دقيقة بالساحة الحيوية biofield، موجود ن كما يؤكد الخبراء، لدى كل إنسان ولدى كل كائن حي. وهذه الساحة تمتد من جميع جوانب جسدنا لبضعة سنتمترات وهي تتكون من ثلاث طبقات مختلفة، وكل طبقة منها تتألف من طاقة مختلفة: الطاقة الجسدية، وطاقة العواطف وطاقة الأفكار[3]. وهناك أشخاص ساحاتهم أو

مجالاتهم الحيوية أقوى بكثير من مجالات الآخرين الحيوية العادية، وهم قادرون على الإحساس بساحات الآخرين. ويطلق على هؤلاء الأشخاص اسم المتخاطرين extra sensors، أي ذوي الحساسية الفائقة، غير العادية.

ونعو طاقتهم بأنها فائقة أو غير عادية، لأنه لم يتم الكشف حتى الآن عن الآليات العصبية التي تولد الطاقة الحيوية وتستقبلها وتنقلها. كما ان مصطلح فائق الحساسية غير دقيق، لأن الطاقة الحيوية لا تدرك بشكل فائق، بل يمكن الإحساس بها، يحسها الناس، كما يمكن تسجيلها بأجهزة القياس. والأصح أن نطلق عليهم الاسم الذي عرفوا به في الماضي وهو الأشخاص ذوو الحساسية لاستقبال المنبهات الخارجية، أي الحساسين sensetives.

❖ ❖ ❖

لقد درس علماء الفيزياء في موسكو ولينينغراد (سانت بطرسبورغ حاليا) في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي الطبيعة الفيزيائية لطاقة المتخاطرين. فقد قام علماء معهد لينينغراد للمكننة والعدسات الدقيقة، وعلى رأسهم مدير المعهد البروفيسور غ. ن. دولنيف، ما يدعى بـtelekinesis أي تحريك الأجسام عن بعد بواسطة «التفكير» أو «النظرة»، أي بواسطة الطاقة الحيوية النفسية.

وقد أثبتت التجارب أن السيدة (ن. س. كولاغينا)، المعروفة بقدرتها الكبيرة على التخاطر، تحرف بطاقتها كفة الميزان عن بعد، وحتى عبر حاجز زجاجي، كما أنها تشتت شعاع اللازر، وتطلق النبضات المغناطيسية. وبعد فترة قصيرة، درس علماء الفيزياء في موسكو، وعلى رأسهم الأكاديمي (يو. كوبزاريف)، السيدة المتخاطرة من جديد، حيث أكدوا، بالإضافة إلى كل ما سبق، أن الطاقة التي تصدر عن هذه السيدة تشتمل على إشارات صوتية - سمعية.

وفي الثمانينات، افتتح في معهد موسكو للتقنية اللاسلكية والالكترونيات، مخبراً خاصاً بالساحات المغناطيسية للإنسان والحيوانات. وقد أشرف على أبحاث هذا المخبر الأكاديمي الفيزيائي (غوليايف) والدكتور (غوديك). وقد درس الباحثون في هذا المخبر الطاقة الحيوية عند الناس العاديين وعند المتخاطرين بمن فيهم طبيبة التخاطر الجورجية الشهيرة (جونا دافيتاشفيلي).

وقد أثبتت هذه الأبحاث أن جميع المبحوثين، بمن فيهم العاديين والمتخاطرين، يشعون طاقات وإشعاعات مختلفة: كالأشعة تحت الحمراء والأشعة الحرارية اللاسلكية، والأشعة البصرية، والكهربائية والمغناطيسية والسمعية والصوتية وغيرها...

ويرى علماء الفيزياء الحيوية في المعهد المذكور، أنه لا وجود لما يدعى بالمجال الحيوي، ولكن هناك مجالات فيزيائية للكائنات الحية البيولوجية. ومع رفضهم القاطع لهذا المصطلح، لكنهم اعترفوا بهذه الظاهرة اعترافاً مؤكداً. وهم يرون أن ما يعرف بطاقة المجال الحيوي يتألف في الواقع، من عدة أنواع من الطاقة الفيزيائية المادية.

ويرى الأكاديمي (غولياف)، أن الإنسان شبيه بالكون، وقد كتب يقول بهذا الصدد: «هناك حول البشر، كما هو حول كوكبنا، محيط جوي ومجال مغناطيسي، حيث تجيش تيارات من الأشعة لا تدركها أجهزة الحس عندنا. أما «العيون» و«الآذان» الحساسة للأجهزة فهي قادرة الآن على تسجيل هذه التيارات من الأشعة ذات الجوهر المادي».

ويضيف العالم (ي. غوديك) أن أجهزة القياس العالية الحساسية التي تم صنعها في المعهد المذكور، قد سمحت بالاقتناع بأنه «ثمة لوحة مركبة من الإشعاعات والمجالات الإشعاعية حول الإنسان والحيوانات». وتضم هذه المجالات حقولاً كهربائية ومغناطيسية، وأشعة لاسلكية حرارية، وأشعة تحت الحمراء وأشعة كيميائية، وكذلك موجات بصرية سمعية.

وقد صرح بهذا الخصوص البروفيسور (ف.آ. كوتيلنيكوف) نائب رئيس أكاديمية العلوم الروسية: «لقد تمت، بمساعدة الأجهزة الالكترونية الحديثة دراسة الحقول الفيزيائية التي تتشكل حول الإنسان... وقد تبين أن هذه الحقول (الهالات) تحتوي على معلومات قيمة عن توظيف أنظمة الجسم الفيزيولوجية...

وبعد دخول العلم بشكل جدي إلى بحث هذه المجالات، أخذت تظهر، بدلاً من المعجزات، معرفة علمية جديدة ذات نفع تطبيقي وفائدة واقعية».

إن علماء الفيزياء الحيوية، بدراستهم لـ «المجالات الحيوية»، وبدخولهم إلى هذا المجال للمرة الأولى، يتناولون بالدراسة الآن الحقول والمجالات البسيطة، مبتدئين بالحقول والمجالات الفيزيولوجية وحدها، وقد شرعوا مؤخراً بإلقاء نظرة على المجالات السيكولوجية، الأكثر تعقيداً. وحتى الآن لا يدرس «مجالات الحياة» إلا الفيزيائيون وحدهم. أما علم النفس الرسمي، وعلم وظائف الأعضاء والطب - فلا تزال هذه العلوم ترفض بحث هذا المجال، حيث لا تزال تسيطر في المعاهد العلمية للعلوم الثلاثة الأخيرة المختصة بدراسة الإنسان، مقاربة غير علمية من المجالات الحيوية.

❖ ❖ ❖

لقد درس العلم حتى الآن الإنسان من بعدين اثنين: البعد الجسدي «المادي» والبعد اللامادي، النفسي (كالتفكير، والعواطف والذاكرة). أما كيف يتحول البعد الأول إلى البعد الثاني، وماهي الطبيعة المادية لعواطفنا ومشاعرنا، فهذه مسائل لم يتطرق إليها العلم، ولم يدرسها حتى الآن.

يمكننا الافتراض، هنا، أن الطاقة النفسية (وبعبارة أدق - الطاقة النفسية الحيوية) هي تلك الحلقة الناقصة والفاصلة بين علم

الفيزيولوجيا وعلم النفس. وربما في هذه الحلقة بالذات تكمن النوابض غير المعروفة لعواطفنا ولآليات التفكير الهامة. وإذا كان الأمر كذلك، حسب هذه الفرضية، فهنا بالذات يمكن أن تكمن مفاتيح لاكتشافات جديدة في عالمنا الداخلي، وفي علم نفس الإنسان، وعلم وظائف أعضائه.

غير أن هذه لا تزال مجرد فرضيات، أما ما يتعلق بالحب والعاطفة، فهي تبدو قريبة جداً من الحقيقة. وهنا سيقتصر حديثنا على بعد واحد من الطاقة النفسية - على تلك القدرات النفسية الخفية، التي توقظ الحب في الإنسان. أما بقية أبعادها - أي الأبعاد الهامة منها - فسنبقيها جانباً، ولا بد من أن يقوم ببحثها ودراستها علماء الفيزيولوجيا، والفيزياء الحيوية، والأطباء...

إن كل واحد قد شعر بلا شك، بنظرة قاسية ضاغطة، من وراء ظهره، ومن نقرته. ولا شك بأن كل واحد منا، شعر كيف تطوقه موجات فرح الآخرين، أو كيف تبعده وتنفره تيارات قارصة جارحة، قارصة من توتر الآخرين وانزعاجهم. إذن، لابد من القول، بأن هناك، على الأغلب، طاقة تنتقل بالنظرة، وتجعلنا نشعر بها، وبقوتها وتأثيرها علينا.

ومن المحتمل جداً، أن حواسنا أيضاً لها موجاتها الخاصة من الطاقة، ولا نشعر بها إلا على شكل آليات عصبية غير معروفة بالنسبة لنا، أو على شكل مستقبلات للطاقة، كامنة خلف الساحة الشعورية.

ويبدو أنه تجرى في عضويتنا عمليات، فيزيائية وكيميائية حيوية، مختلفة باختلاف الإحساسات، وهي تولّد إشعاعات مختلفة. وهناك على الغالب موجات خاصة لكل من الفرح والحزن، والاحتقار، والابتهاج، والأسى، والغضب، والخوف والدهشة، والهلع والقلق والاضطراب...

ومن المحتمل أيضاً أن هذه الطاقة الناشئة عن هذه الإحساسات، تختلف باختلاف الطباع والأمزجة: فالمزاج القوي الإرادي ينشر موجات الهدوء والثقة، والمزاج المندفع يطلق تيارات التوتر والعصبية، والمزاج

الغاضب يطلق تيارات الحقد الحادة، أما النموذج الهادىء فيطلق موجات الوداعة المهدئة.

وقد يتمكن علماء النفس مستقبلاً من تفسير هذه الإشعاعات، وهذا سيساعد في التخفيف من عجزنا وجهلنا لكثير من مشاعرنا وأحاسيسنا.

2- التخاطر والحب

إن كل واحد منا يمكنه، في حال الحب القوي، أن يغدو حساساً ومتخاطراً، ولو لفترة قصيرة. فالحب هو مقوي جبار للطاقة البشرية. وهو يعزز من قدرتنا الكامنة على التقاط موجات نفس أخرى وإنسان آخر، ولو لفترة قصيرة، ولو تجاه إنسان واحد.

وما نقوله هذا ليس فرضية، بل وقائع وحقائق ثابتة وملاحظات دقيقة، وهي موجودة بكثرة، سواء في الحياة الواقعية، أو في كتب العشق والغرام. وهاكم إحدى هذه الملاحظات ذات الدلالة الكبيرة من رواية ليون تولستوي «الحرب والسلام» آنفة الذكر، وموضوعها نشوء «الاستبصار» والتخاطر لدى (كونستانتين ليفين) و(كيتي).

«عندما نهضا من على مائدة الطعام، كان ليفين يود أن يتبع كيتي إلى صالة الضيوف، غير أنه خشي أن يسبب لها إزعاجاً. وبقي في حلقة الرجال، مشاركاً في الحديث العام الدائر بينهم، لكنه ودون الالتفات إلى كيتي كان يحس بحركتها، وبنظراتها، وبمكان وجودها في صالة الضيوف».

كان يحس بهذا كله من غرفة أخرى، كما لو أنه كان يراها بعينيه الداخليتين الكامنتين في نفسه. كان يتحدث عن أشياء اعتبرها دائما على درجة كبيرة من الأهمية، لكنها فقدت فجأة كل أهميتها. «لقد عرف الآن شيئاً هاماً واحداً، وهذا الشيء كان في البداية هناك، في صالة الضيوف، ثم انتقل ووقف أمام الباب، ودون أن يلتفت إلى الوراء، أحس

بنظرتها الموجهة إليه وبابتسامتها، ولم يعد بالإمكان ألا يلتفت. لقد كانت كيتي تقف أمام الباب، مع شيرياتسكي، وتنظر إليه».

❖ ❖ ❖

ينقل لنا الكاتب الكبير ليون تولستوي بدقة مذهلة الاضطراب والغموض الذي رافق إحساس ليفين بكيتي، الموجودة في الصالة المجاورة: لقد شعر ليفين بأن الموجودة في الصالة المجاورة ليست كيتي، كيتي الفتاة الحية، بل شعر بان هناك شيء ما غامض، مثل غيمة أو خثرة من أهم شيء بالنسبة له. ويمكن للمتخاطرين أن يقولوا هنا، بأنه شعر بـ «مجالها الحيوي»، شعر بهالة الطاقة التي تتكون منها. لقد شاهد ليفين على شاشته الداخلية، كيف بدأت هذه الغيمة، الهالة تتحرك، وعند اقترابها من الباب وعندما أصبحت مرئية، تخثرت فجأة، وقبل أن يرى، لم يشعر ليفين بغيمة أو هالة أو شيء غامض، بل «شعر بابتسامتها ونظرتها الموجهة إليه».

وعندما يتحادثا، يفهم أحدهما الآخر، ليس بواسطة الكلمات بل عبر تخاطر مباشر، أنهما يقرآن أفكار أحدهما الآخر، عبر الإحساس المباشر بمشاعر وأحاسيس الآخر.

«قطبت كيتي جبينها، محاولة أن تفهم، لكنه ما إن بدأ يشرح حتى فهمت كل شيء... ابتسم ليفين بفرح: لقد كان مذهلاً، بالنسبة له، هذا الانتقال من النقاش الطويل، الكثير الكلام مع (بيتسوفي) ومع أخيه، إلى هذا التواصل الموجز والبليغ والواضح، بدون كلام، والتفاهم حول أكثر الأفكار تعقيداً».

إن توتر السعادة والخوف من فقدان هذه السعادة قد بلغا الذروة عندهما، وعند هذه الذروة بدأت عندهما ذروة «التخاطر»:

– إذاً – قال ليفين، وكتب الحروف التالية: ع ق ه غ م ه ق أ أ آ

«وهي الحروف الأولى من الجملة: «عندما قلت غير ممكن هل قصدت أبداً أم آنذاك؟». لم يكن هناك أي احتمال بان تفهم هذه الأحرف الغامضة المتقطعة. ونظر إليها نظرة، وكأن حياته كلها معلقة على فهمها لهذه الأحرف.

نظرت إليه بجد، ثم أسندت جبينها المقطب إلى راحة كفها وبدأت تقرأ ما كتبه. ثم قالت بوجنتين محمرتين:

- لقد فهمت.

- وماذا يعني هذا الحرف - قال مشيراً إلى حرف (أ) قبل الأخير.

- هذا الحرف يعني أبداً - قالت كيتي - لكن هذا غير صحيح.

مسح ليفين بسرعة ما كتبه، وأعطاها لوح الطبشور، ثم نهض. كتبت كيتي الأحرف التالية: آ ل ي ب إ ج آ - فسيطر الفرح على قلبه. لقد فهم معنى ما كتبته: «آنذاك لم يكن باستطاعتي إعطاء جواب آخر»

نظر إليها متسائلا بخجل، ثم قال:

- والآن؟

- الآن، اقرأ، سأكتب ما أريده، سأعبّر عن رغبتي الشديدة، وكتبت الأحرف التالية أ أ ت و ت ع س، ومعناها «أرجو أن تنسى وتعذرني عما سبق».

أمسك بلوح الطبشور بأصابع مرتجفة متوترة، وبعد أن كسره، كتب الأحرف الأولى من العبارة التالية: «لا داع للنسيان والاعتذار، فأنا لم أتوقف عن حبك لحظة واحدة».

نظرت إليه مبتسمة وقالت هامسة:

- لقد فهمت.

فجلس ثانية وكتب الحروف الأولى من جملة طويلة، ففهمت كل شيء، ودون أن تسأل، كتبت الجواب على الفور.

لم يفهم بداية ما كتبته كيتي، ونظر طويلاً إلى عينيها. لقد انكسف من السعادة... غير أنه، ومن خلال عينيها الرائعتين، المشعتين بالسعادة،

فهم ما كان بحاجة إلى فهمه ومعرفته. فكتب ثلاثة أحرف، وقبل أن ينهي كتابتها، ولمتابعتها لحركة يده، أجابت بـ «نعم»

إن هذا المشهد يعد بحق تنبؤاً عظيماً بالاكتشافات المقبلة. وقد أصاب هذا المشهد بالذهول والحيرة عدة أجيال من القراء، خلال قرن ونيف. أما نحن الآن، فقد بدأنا نفهم كيف أصبح المستحيل ممكناً، بدأنا نفهم اختراق الناس الساحر لبعضهم بعضاً بشكل.

3- كيف حدث الأمر في الواقع :

قد يظن القارىء بأن ما ذكر أعلاه كان مجرد خيال من وضع الكاتب، أو صيغة روائية اختارها .لهذا سنورد الحديث التالي الذي دار بين الروائي الروسي ليون تولستوي نفسه وبين الفتاة (صوفيا بيرس) - زوجته فيما بعد - وهو حديث دار فعلاً في الحياة والواقع[4]:

ذات يوم، وقبل أن يعترف أحدهما للآخر بحبه، كان هناك ميل متبادل بينهما، أحدهما نحو الآخر. وقد كتب تولستوي لصوفيا جملة طويلة بالأحرف الأولى من كلماتها فقط (تماماً كما حصل بين ليفين وكيتي في الرواية - المترجم)، وتمكنت صوفيا من قراءتها- كما تقول في مذكراتها. وكانت الأحرف الأولى المكتوبة ترمز إلى العبارة التالية:

«إن شبابك وحاجتك إلى السعادة يذكراني، بصورة حية، بهرمي وكهولتي، وعجزي عن منحك هذه السعادة».

وتقول (صوفيا تولستايا) - زوجة الروائي تولستوي- في مذكراتها: «لقد أخذ قلبي ينبض بقوة وشدة، واخذ شيء يقرع في صدغي، وشعرت وكان وجهي يحترق. لقد كنت خارج الزمن، وخارج الشعور بكل ماهو أرضي: كان يبدو لي، أنه كان باستطاعتي عمل كل شيء، كنت أفهم كل شيء، وكنت أضم إلى صدري كل مالا يمكن ضمه في هذه الدقيقة».

ما تفسير ومضات الاستبصار والرؤى المستبصرة هذه، وكيف

يمكن تفسير هذا الإحساس الغريب بالقوة والجبروت، والقدرة على فهم كل شيء، والخروج من الزمن، ومن جميع القيود الأرضية؟ يبدو ان هذه الحالة الغريبة الخفية قد أيقظت فيها جمرات الحب الأولى، والشعور الخفي المتنبىء بالتغيرات والتحولات المقبلة، والفهم الغامض أن ما يحدث لها هو شيء فريد، فائق الأهمية...

وتقول صوفيا تولستايا في مذكراتها:

«- هناك شيء آخر - قال ليف نيقولايفتش (تولستوي - المترجم) - وشرع بكتابة الأحرف الأولى من عبارة مطولة تعني: «تسيطر على أسرتك نظرة مزيفة، كاذبة، بخصوصي وبخصوص أختك (ليزا). دافعي عني، أنت وأختك (تانشكا)» - قرأت العبارة الكامنة وراء الأحرف المكتوبة، بسرعة ودون تعثر.

... إن حالتنا المتحفزة، المتوترة كانت أشد توتراً وقوة من الحالة العادية للنفوس الإنسانية، لدرجة انه لم يعد هناك ما يثير دهشتنا وذهولنا.»

إن الحب القوي يولّد في النفس الإنسانية أجهزة التقاط واستقبال جديدة، تستقبل الإشعاعات الكامنة في نفس الآخر. وتظهر لدى المحبين «رؤية داخلية» و«إحساس بعيد المدى»، كما تبدأ بالظهور بصورة متناوبة - غالبة لدى بعض الأفراد ونادرة لدى بعضهم الآخر - لحظات من التنوّر والإضاءة، والوجود، والرؤى اللاشعورية بالنفس القريبة، بنفس الشخص المحب الآخر.

❖ ❖ ❖

أما الشاعر والمفكر الألماني الكبير (غوته) فقد شغلت قوى النفس الخفية حيزاً هاماً من تفكيره. وكان غوته على قناعة بأن «هناك حالات كثيرة، تمتد فيها مجسات نفوسنا خارج حدودها الجسمية... إن لدى كل

واحد منا قوى كهربائية ومغناطيسية، وهي، مثلها مثل المغناطيس الحقيقي، تجذب شيئاً وتنفر من شيء آخر...

وهذه القوة المغناطيسية عظيمة جداً، وهي تؤثر عن بعد أيضاً. في أيام الشباب، كثيراً ما كانت تسيطر علي، أثناء نزهتي منفرداً، رغبة شديدة بلقاء محبوبتي، وأخذت أفكر فيها طويلاً، وبعد ذلك حضرتْ فعلاً، واتضح أنها هي أيضاً كانت تسعى للقائي. وقالت: «لقد شعرت بكثير من القلق والاضطراب، بحيث لم أستطع عمل أي شيء، وأسرعت للقائك».

ويحدثنا غوته أيضاً، عما حدث له ذات يوم، حيث عاد إلى منزله بعد غياب قصير، ولكن وبسبب التزامات وواجبات رسمية، لم يتمكن طيلة ثلاثة أيام من رؤية حبيبته. وأخيرا، عزم أمره على التوجه إليها، وعند اقترابه من باب منزلها سمع أصواتاً غريبة، فاستدار ورجع على أعقابه.

ويتابع حديثه قائلاً: «كنت أدور في شوارع المدينة عابساً متجهماً، مفعماً بالشوق لرؤيتها، وبقيت أكثر من ساعة أفكر بمحبوبتي بشوق وحنين، محاولاً المرور عدة مرات قرب بيتها». وعندما اقترب للمرة الأخيرة من بيتها، لاحظ من خلال نوافذ شقتها أن النور قد أطفىء، فأخذ يبحث عنها. بدأ يسير أولاً في الشوارع العريضة المنارة، وفجأة شعر برغبة قوية بالسير في شارع ضيق، معتم جانبي، وبدأ يمشي بخطوات حذرة، متلمساً طريقه في الظلام. وبعد أن سار مائة خطوة، رأى فجأة امرأة تتجه نحوه. لقد كانت محبوبته...

«- لماذا لم تأت لعندي - سألته مستغربة - لقد علمت اليوم للتو أنك كنت مشغولاً بأعمالك طيلة ثلاثة أيام، واستسلمت للبكاء اليوم بطوله. لقد ظننت بأنك قد نسيتني. *وقبل ساعة واحدة تماماً شعرت بحزن كبير وقلق شديد* (في الوقت نفسه عندما ابتعد عن بابها بعد أن سمع أصواتاً غريبة- تعليق المؤلف). لقد حضرت لعندي صديقاتي،

ومكثن قليلاً، لكنني ظننت أنهن يجلسن إلى الأبد، وخرجن أخيراً، فأمسكت قبعتي، وأطفأت النور، وخرجت ساعية لاستنشاق الهواء والسير في الظلام... *كنت طيلة الوقت أفكر بك، آملة أن ألقاك*».

ويقول غوته: «لم أخطىء، وإحساسي لم يخدعني، عندما اعتقدت بالتأثير غير المرئي للقوى الخفية».

عن هذه القوى الخفية، بما فيها تلك التي أيقظها فيه الحب، يتحدث الكاتب الإنكليزي الكبير (مارك توين) في مقالاته التي نشرها حول التخاطر. كما تحدث عنها كتاب وأدباء آخرون مثل (شارلوتا برونتي، تورغينيف، بونين، كوبرين، جاك لندن، ستيفان سفيغ) وغيرهم...

أعتقد أن الإنسان، عامة، يكون متخاطراً، حساساً مرهف الشعور sensitive مرتين في حياته: الأولى عند ولادته، في الأشهر الأولى والسنوات الأولى من عمره. فالطفل الوليد يشعر بعاطفة أمه بالتخاطر عن بعد. إنه يولد وينمو بمزاج أمه ومزاج الآخرين القريبين منه. وقبل الولادة ينمو الطفل في مجال طاقة الأم التي كانت توجهه: فهو يضحك عندما تضحك آمه، ويبكي عندما تبكي. وهذا ما أثبته علماء الفيزيولوجيا. وبعد ولادته، يبقى الوليد، فترة طويلة، ملتحماً بمجال طاقة الأم، حيث يبقى شديد الحساسية والتأثر به. وبعد ذلك، تضعف عند الإنسان هذه القدرات الولادية وتتلاشى، إما بسبب التربية غير الصحيحة، أو لأسباب أخرى.

ومرة ثانية تنمو قدرات التخاطر لديه وتشتد، ولكن لفترة قصيرة، في حال الحب الشديد. إن هذه القدرات تنطفىء بسرعة في غالب الأحوال، لكنها تبقى وتعيش طويلاً أحياناً.

في حال الحياة الأسرية السعيدة، وفي حال العلاقات الزوجية الجيدة، يمكن للزوج والزوجة أن يخمن كل منهما أفكار الآخر، بل ويمكنهما أن يحلما بأحلام واحدة، حيث يتجلى تقاربهما النفسي. ويتعزز هذا التقارب الروحي والنفسي بانسجام مجاليهما، وبالتدفق المتماثل

للأحاسيس والأفكار. إن علم نفس الأحاسيس سيهتم بهذا كله مستقبلاً، وينفد إلى الأسباب التي تولد قدرات «الحساسية المرهفة» وتنميها، أو تضعفها وتخمدها.

4-الطاقة النفسية من وجهات نظر ثلاث

لقد كانت هناك ثلاث مقاربات، وثلاث وجهات نظر من سيكولوجية الطاقة:

الأولى: مقاربة رافضة، قديمة، سبق أن تطرقنا إليها وهي وجهة نظر غير مقبولة، وقد شاخت وتقادمت، وأصبحت غير واردة.

والثانية: وهي مقاربة متحمسة، ومتبنية لسيكولوجيا الطاقة بصورة كاملة «طفولية»: والمجال الحيوي بالنسبة لها، هو مفتاح لجميع الأبواب الموصدة، وحل لجميع المشاكل غير المحلولة، إنه البلسم الشافي لجميع الأمراض، وكاشف جميع الأغاز والأسرار. وهي مقاربة متطرفة.

أما المقاربة الثالثة: فهي رافضة ومتبنية في الوقت نفسه. وهي مقاربة راشدة، ناضجة. أجل، تظهر الوقائع أن هناك طاقة نفسية، حيوية. ولكن، ما هي طبيعتها المادية، وما هي الأمور التي تقدر عليها والأمور غير القادرة عليها، كل هذه مسائل لابد من بحثها ودراستها. ولا بد بالطبع، من دراسات علمية منهجية، متشابكة ومتشعبة، تتحالف فيها علوم كثيرة، ذات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالطاقة النفسية: كعلم الأحياء، وعلم الفيزيولوجيا، وعلم النفس، والفيزياء الحيوية، والكيمياء الحيوية، والطب، وعلم السيبرنيتيك، والفلسفة. وهذه الأبحاث المشتركة وحدها يمكنها فصل الذهب عن التراب، والحقيقة عن الخرافة، و«المعجزات» الحقيقية عن الخزعبلات والخدع.

وهذه هي، على الأغلب، المقاربة العلمية السليمة من الطاقة النفسية، وهي مقاربة ذات رؤية مستقبلية. أما الآن، فتسود المقاربتان الأولى والثانية - بين الرفض المطلق والقبول التام. ولم يدرس العلم

حتى الآن، دراسة حقيقية جدية، هذه القارة الكبيرة من الأسرار والخفايا، وهو يكتفي الآن ببحوث استكشافية على شواطئها. وكلما استمر العلم في عدم الاهتمام بحقيقة الطاقة النفسية، تكاثرت أكثر الحكايات والأساطير عنها، ووقع الناس أكثر في مطب التفسيرات غير العلمية لهذه الطاقة...

لقد سيطر حتى السنوات الأخيرة، في موقف العلوم الطبيعية من الاكتشافات الجديدة، مبدأ الحرص الشديد، أو ما يعرف بـ «موسى أوكام Ocamm,s razor»، الذي أوجده الفيلسوف الإنكليزي وليام أوكام (1285-1349) أكبر فلاسفة القرن الرابع عشر. ويقول هذا المبدأ: «إن الماهيات أو الحقائق لا يصح أن تتزايد أكثر مما هو ضروري». وهو مبدأ ضروري جداً لبناء أي نظرية - لأنه لا يسمح بحلقات جديدة، وكأنه ينطلق من قاعدة «الحد الأعلى من المعنى عن طريق الحد الأدنى من الحلقات».

ولكن، بالنسبة لكل ماهو جديد، كثيراً ما كان هذا المبدأ يتخذ عملياً، شكلاً آخر هو: «لا يجوز الإكثار من الماهيات والحقائق الجديدة دون ضرورة». وكان هذا يعني، من الناحية العملية، أنه من أجل تحقيق اكتشافات جديدة، لا بد من البحث أولاً عن تفسيرات قديمة ووضع الظاهرة الجديدة جنباً إلى جنب مع الظاهرات المعروفة، وإذا لم تدخل في إطارها، يحق لها، في هذه الحالة وحدها، أن تعد ظاهرة جديدة.

إن «موسى أوكام»، فيما يتعلق بالظاهرات الجديدة، تحمي العلم من السطحية والاستهتار والخداع الذاتي، وهي لا تسمح باعتبار الصيغة الجديدة من ظاهرة معروفة ظاهرة جديدة، وهنا بالذات يكمن دور «موسى أوكام» الكبير. غير أن هذا المبدأ، كان في صيغته العملية التطبيقية، أحادي الجانب من الناحية السيكولوجية، لأنه يميل إلى الشك بالجديد، أكثر من الثقة به أو باحتمال كونه جديداً.

وكان هذا المبدأ يميل إلى القول بأن الجديد هو، غالباً، قديم

بمسوح جديدة، وأول ما يطلب منه أن يمحو الشك في مسوحه الجديدة وجوهره القديم، ويثبت انه لم يرتدِ مسوح الغير.

إن هذا «الشك الفاحص» هو ضروري جداً، بالطبع، بالنسبة للعلم، لكن ضرورته، كما نرى، تأتي في المرحلة الثانية من اكتشاف الجديد. أما في المرحلة الأولى فالعلم بحاجة أكبر للثقة بالجديد، بل للثقة الكبيرة والظمأ الشديد لرؤية الجديد المرغوب. وهذا هو أساس الروح الإبداعية الحقة – والإنسانية مدينة له بالذات في اكتشافاتها كلها. ورأينا، أن هذه المقاربة على درجة كبيرة من الأهمية الآن، في عصر الثورات العلمية، حيث تظهر الاكتشافات العديدة في كثير من العلوم.

❖ ❖ ❖

لم يحصل في التاريخ كله من قبل أن كانت كمية الاكتشافات وكثافتها كما هي اليوم، وهذا يبدل جذرياً المقاربة الفلسفية والمدخل الفلسفي إلى الجديد. إن «القبول بالجديد» كان يزيح دوماً «الخوف من الجديد» أو «فوبيا الجديد» – هكذا كان يحصل دوماً في مجال العلوم. ورأينا أنه لا بد هنا من مقاربة موحدة ثنائية القطبين من الجديد: ويتمثل القطب الأول في الترحيب بالجديد، وقبوله والثقة به، وأما القطب الثاني فيتمثل في التحقق الدقيق من هذا الجديد، من حيث الجودة والابتكار والحداثة، باستخدام «موسى أوكام». فالموقف من الجديد برأينا يجب أن يسترشد بالمبدأ التالي: « يجب الإكثار من الأشياء الجديدة، ولكن لا يصح الإكثار منها بدون حاجة أو بلا مبرر»...

❖ ❖ ❖

في أحشاء الثورة العلمية التقنية، تنمو الآن ثورتان: ثورة علمية –

بيولوجية، وثورة علمية سيكولوجية. وهاتان الثورتان ستحدثان انقلاباً وتحولاً في جميع معارفنا وثقافاتنا، وفي أسس المدنية المعاصرة. إن الثورة العلمية - السيكولوجية ستكشف لنا عن أسرار النفس المجهولة، وما إشراقات اليوم، في مجال الطاقة النفسية، سوى البوادر الأولى لهذه الثورة، إنها طيور السنونو الأولى الآتية من المستقبل.

ويجدر بنا التعامل مع الطاقة النفسية والحيوية (البيولوجية) من حيث هي بوابة المسؤولية التاريخية: فهي قادرة على النهوض بعظمة الإنسان وجبروته، وهذا النهوض أو الارتقاء قد يكون منقذاً ومعيناً، وقد يكون مبيداً ومهلكاً. إن الدول هي التي تتحكم بالطاقة النووية، أما الطاقة النفسية التخاطرية، الفائقة الحساسية، فيمكن أن تسيطر عليها فئات اجتماعية وأفراد، وكل شيء سيتوقف على الوجهة التي ستوجه نحوها هذه الطاقة: نحو الخير أو نحو الشر...

إننا ننظر بشيء من العداء إلى الطاقة الحيوية من مواقع المادية «الطفولية» الشيئية، التي تشيّئ الطاقة، وترى أن المادة هي مجرد شيء لا غير، في حين أن المادة هي شيء وطاقة في الآن نفسه.

وبهذا الصدد، وبحسب تقديرات علماء الفيزياء المعاصرين، فإن الكتلة الكونية ككل، أي المادة material، تتكون من طاقة ومادة متماسكة، والطاقة تشغل تسعة أعشارها في حين أن المادة المتماسكة تشغل أقل من عشرها. ويمكننا القول إن أسرار العالم كامنة في الطاقة أكثر بعشر مرات من كمونها في المادة. وعلى هذا الأساس، فإن مقاربة الطاقة وبحثها سيحمل معه انفجاراً لا سابق له من الاكتشافات، بحيث يصعب علينا التنبؤ بشكله ونوعه...

وقد تساعد الطاقة النفسية في فهم أسرار بعض ألغاز الحب وأسراره القديمة، وبخاصة الجانب التخاطري منه - تلك الحالة الغريبة الناشئة عن التحام منظومتين عصبيتين، حيث تحس بأعصابك وتشعر بما يجري في أعصاب المحبوب. إن مجالَيّ المحبين يندمجان معاً - هذا

ما أثبته المتخاطرون، القادرون على رؤية مجال الإنسان. غير أن هذه الحالات نادرة، والحق يقال، ولهذا لا مبرر إطلاقاً لإخراج ما يرونه من باب الفرضيات. وكما يرى المحبون والعاشقون، فإن مجالَيْ المحب والمحبوب أكبر بكثير من مجال الإنسان العادي. وعندما يكون المحبان قريبين من بعضهما، فإن مجاليهما يتحدان في مجال واحد. (تجدر الإشارة إلى أن الأشخاص المتنافرين لا يمكن لمجالاتهم أن تتحد).

ربما يكون اندماج المجالات (أو الحقول) هو نفسه ما كان يدعى منذ عشرات القرون بـ«اندماج الأرواح». وربما تنتقل إحساسات شخص إلى شخص آخر عند عبر تلاقي مجاليهما، ويصبح الشخص بالتالي قادراً على الإحساس بعواطف الآخر وأحاسيسه (كما حدث بين ليفين وكيتي في رواية تولستوي)...

على أي حال، لا نعرف نحن حتى الآن ماهو اندماج المجالات. فالمجهول هنا يفسر بمجهول آخر، يحوي بحد ذاته قدراً لا يقل عنه من الأسرار والأشياء المجهولة. رغم أن الاندماج الروحي (اللامادي) مفهوم أكثر من غيره، وهو أقرب إلى التفسير.

❖ ❖ ❖

الهوامش :

(1) في بداية الثمانينات من القرن العشرين طرح عالم السيبرنيتيك البارز (ف.م.غلوشكوف) فرضية حول الأسس الفيزيائية لإشعاع العضويات الحية. وكتب يقول: إن كل خلية حية تطلق عدداً كبيراً من الإلكترونيات (حوالي 10 ملايين مليار) وهي، من فترة لأخرى، تطلق ومضات من الإشعاع (على سبيل المثال: خلايا راحة كف الإنسان، أو شبكية عين الأفعى، أو الورقة المقطوعة حديثاً من شجرة – تشبه المصابيح الكشافة التي ترسل طاقة كهربائية مغناطيسية... ويمكن تشبيه الخلية الحية بأشعة لازر بيولوجية (مجلة السيبرنيتيك وتقنية الحاسوب – موسكو العدد 3 – عام 1981).

ويعتقد غلوشكوف ان هذا الإشعاع ينشأ في منطقة الأشعة تحت الحمراء القريبة من الضوء المرئي بحدود 1- 1،2 ميكرون. (وهو ذلك الحد عندما يرى بعضهم ضوءاً ضعيفاً، ولا يرى البعض الآخر شيئاً). وحتى الجهاز العصبي للإنسان، الذي يحوي مليارات الخلايا العصبية، يصدر أشعة. ويقول غلوشكوف: إن النبضات العصبية يرافقها إشعاع كهربائي- مغناطيسي، ولكن ليس بذبذبات الأشعة تحت الحمراء بل بذبذبات الموجات الصوتية اللاسلكية.

وهناك أشخاص قادرون على تركيز هذه التيارات الإشعاعية على خلايا دماغ شخص آخر، ونقلها لدماغ آخر أو الحصول منه على هذا الإشعاع. وهذا هو التخاطر – كما يقول غلوشكوف.

(2) لقد تحدث الروائي الفرنسي الكبير(بلزاك) عن هذا الموضوع قبل قرن ونصف. فقد كتب يقول في إحدى دراساته الفلسفية بعنوان (لوي لامبيريه – 1832): «... إن تلك الحركات النفسية التي ندعوها بالعواطف يمكن أن تكون تياراً مادياً لسائل مغناطيسي كوني ما (فلوئيد floud)، يولده الناس بقدر أقل أو أكثر» ويقول أيضاً: «فالغضب، مثله مثل جميع مظاهر عواطفنا وأحاسيسنا هو تيار من القوة البشرية، له تأثير التيار الكهربائي».

(3) إن مصطلح (المجال الحيوي biofield)، حسب رأي (ريوريكوف – مؤلف هذا الكتاب) هو مناسب للنبات والحيوان، أما الإنسان فلديه إلى جانب المجال الحيوي (البيولوجي – أي الجسدي) مجاله النفسي، المكون من مساحة العواطف والأفكار. وهناك أيضاً (الساحة الجيولوجية) وهي مجال طاقة الثروات المعدنية الباطنية والعمليات الجارية في باطن الأرض بما فيها البراكين و المياه، ومختلف أجزاء الكرة الأرضية.

أما معنى مصطلح (طاقة المجال البيولوجي – الحيوي) فهناك رأيان، أو تفسيران: الأول يرى أنها سبيكة من أنواع الطاقة المعروفة – الكهرطيسية، الحرارية، الصوتية وما شابهها. والثاني: يرى أنها طاقة خاصة غير معروفة، لم تكتشف ماهيتها بعد. إن الدراسات والأبحاث وحدها ستظهر أيهما الأصح.

(4) أنظر س. آ. تولستايا. « مذكرات»، الجزء الأول، موسكو 1978، ص 481-482.

الفصل الرابع

الحب الخالد

1 - تاثير الحضور :

ربما يؤدي إلقاء الضوء على طاقة الحب النفسية إلى رفع الستار، ولو بصورة جزئية، عن إحساسات الحب الغريبة الأخرى، ومن بينها تأثير الحضور. لقد اكتشف تأثير الحضور الكاتب والروائي الروسي الكبير (بونين) في روايته «حب ميتيا»، رائعة الدب الروائي الغرامي، و«روميو وجولييت» القرن العشرين.

لقد غير الحب جذرياً موقف ميتيا من الناس، من الأشياء، من العالم، وعزز في نفسه، بصورة متزايدة، شعوراً غريباً. لقد بدا له وكأن العالم كله يعوم في سراب متقلب، وأن الأشياء تفقد ملامحها وحدودها الدقيقة، وكأن روحاً تولد في كل شيء، و تعيش فوقه.

وهذه الروح التي تعيش فيهما (ميتيا وحبيبته) وتلهم كل شيء فيهما، هي حبه لـ(كاتيا). إن هذا الحب حاضر في كل شيء: في كل ورقة من أوراق الشجر، في كل صوت من أصوات الطيور، في كل حفنة تراب. لقد ربطت آلاف الخيوط بينه وبين العالم، فكل شيء يذكره بكاتيا، وفي كل شيء يتراءى ألق حبه لها.

ما هو تأثير الحضور هذا؟ ولماذا يتواجد في كل حب قوي؟

إن الحب يلج إلى أعمق أعماق النفس، وأحاسيسه موجودة دوماً

عند الإنسان، وهي تستغرق جميع مشاعره وحواسه ولا شعوره - وهذا ما يخلق تأثير الحضور. لهذا، فالحب ليس مجرد عاطفة خاصة من بين العواطف الأخرى، بل هو أيضاً سبيكة من نوع خاص لجميع عواطف الإنسان الأخرى. إنه بمثابة إلهام لا ينضب لجميع العواطف، وكأنه نشوة خفية لروح الإنسان كلها.

قد يكون للحب، من حيث هو عاطفة، طاقة خاصة. ولا نقصد هنا الطاقة الجنسية البيولوجية، الموجودة لدى إنسان. بل ربما هذه الطاقة هي طاقة نفسية - بيولوجية - أي سبيكة من الطاقة البيولوجية البحتة، الجنسية، وطاقة أخرى مجهولة (X)، وهي طاقة انفعالية سيكولوجية بحتة للميل والانجذاب المتبادل عند المحبين.

ولنتذكر هنا، الحب المنفرد، المجتزأ (الحب من جانب واحد)، حيث تنشط عضوية الإنسان كلها: جهازه العصبي، وكافة عواطفه وغرائزه وإرادته - بطريقة مغايرة تماماً. ومن المحتمل أن هذا النشاط الودي التوافقي لجميع أجهزة العضوية الإنسانية، يولد طاقة الحب الخاصة. وربما العكس هو الصحيح. فقد تكون سبيكة الطاقات المختلفة: الجنسية، العصبية، النفسية - هي التي تولّد طاقة الحب الخاصة.

هناك مصطلح في علم الأحياء (البيولوجيا) هو «الطاقة المشتركة cynenergy» أو القوى المشتركة، وتحدث هذه الظاهرة عندما تعمل عدة عضلات معاً بصورة منسقة، والقوة الموحدة لهذه الطاقة أعلى من إجمالي (مجموع) هذه القوى منفردة، بل تعادل مجموع سبيكتها. فالقوى التي تنشط معاً، بصورة متحدة، لا تجمع قوة بقوة أخرى بل تضرب واحدة بأخرى، وتنشأ بالتالي الطاقة المربعة أو المكعبة.

إن قانون الطاقة المشتركة هو أحد القوانين الرئيسة في الكون، بل هو القانون المركزي للحياة عامة: بدءاً بحياة الخلية وانتهاء بحياة الدماغ. بل، ربما لم يكن بالإمكان قيام أي حياة بدون اتحاد قوى حيوية عديدة: بيوفيزيائية، بيوكيمائية، بيولوجية ونفسية.

وقد يكون قانون الكون الرئيس هذا هو قانون العاطفة المحلقة - عاطفة الحب - الجذري، لكنه الغامض بالنسبة لنا! وقد تكون هذه الطاقة العليا (الطاقة المشتركة) هي التي تقدم للمحبين قدراتهم من الطاقة النفسية، حيث يرون في كل منعطف من منعطفات الحياة انعكاساً لحبهم.

2- البعد العالمي

نظراً لأن كل شيء في الكون مرتبط بخيوط مجهولة وغير مفهومة، بالإنسان المحبوب، فإن أهمية هذا الإنسان تتعاظم على نحو غريب جداً.

يقول (أندريه بولكونسكي)، الذي يحب (ناتاشا) (في رواية تولستوي «الحرب والسلام»): «إن العالم كله بالنسبة لي، ينقسم إلى نصفين: النصف الأول هي وفيه كل السعادة والأمل والنور، والنصف الآخر كل ما تبقى، حيث لا وجود لها، وفيه كل الكآبة والانقباض والظلام».

إن الإنسان المحبوب، يصبح بالنسبة لمحبه، بعداً عالمياً، قيمة كونية. وتتولد لدى الإنسان المحب موازين داخلية، غريبة، يضع في إحدى كفتيها شخصاً واحداً هو الشخص المحبوب، وفي الكفة الأخرى الكرة الأرضية بكاملها. في الكفة الأولى كائن إنساني واحد، وفي الكفة الأخرى البشرية كلها، والمحبوب هنا مكافئ ومعادل لمليارات البشر. إنه يشغل في النفس حيزاً يعادل الحيز الذي تشغله مليارات الناس كلها.

من أين تأتي هذه الاحساسات الخفية، ولماذا يعادل المحبوب، بالنسبة للمحب، الناس الآخرين جميعاً؟ إن الإجابة عن هذا السؤال غير ممكنة في الغالب، إلا بصورة تقريبية، وبالمقارنة. عندما يشعر الإنسان بالجوع، ويصبح بحاجة ماسة إلى الطعام، فإن أحاسيسه الأخرى تخبو وتكمد، وشعوره بالجوع يحجب العالم كله عنه، ويحد من جميع المشاعر والأحاسيس الأخرى.

الحب أيضاً، هو نوع من الجوع، هو حاجة للإنسان، والشعور بالحاجة السيكولوجية الماسة إليه ربما هو الجوع الروحي الأشد حدة، وكلما كان أقوى، كلما احتل المحبوب مكانة أكبر في نفسه.

إنه بالطبع، خداع المشاعر البصري. وهنا بالذات، تكمن أكثر تناقضات الحب جذرية، وخداعا، وحقيقة. فالشخص المحبوب يعادل بالنسبة لمحبه، البشرية كلها: فهو وحده قادر على إشباع جوع محبه العميق. إنه بالنسبة له، يشكل قيمة مطلقة، لا يمكن مقارنتها بأي كائن آخر، وأهم من كل شيء مهم. غير أنه بالنسبة للآخرين، مثله مثل غيره من البشر، وليس أفضل منهم بشيء.

هذه العاطفة الغريبة ثمة شبه بينها وبين علاقة الطفل بأمه. فالأم بالنسبة للطفل، هي بعد عالمي شمولي، وكائن حي فريد في الكون، فهي التي تلبي جميع حاجاته ومتطلباته، إنها بالنسبة له، مانحة الحياة، إنها ممثل البشرية المفوض، إنها قوة الكون الراعية. فهي وحدها التي تمنحه جميع مسراته، وتبعد عنه جميع منغصاته، ولهذا تعادل الأم، بالنسبة لطفلها، البشرية كلها.

إن العدسات السيكولوجية التي تكبّر بعد الإنسان المحبوب بملايين المرات، تبدأ في النمو عند الإنسان منذ نعومة أظفاره، منذ الطفولة المبكرة. وأما القوى المحركة، الخيالية والخادعة، لحب الكبار، فتنمو عند الأفراد من حيث هي انعكاس مرآتي لدور الأم بالنسبة للطفل. وهذه القوى المحركة (النوابض) الخيالية واللاشعورية، تدخل إلى حب الكبار، كتحويل لتأليه الأم من قبل الطفل، إلى الإنسان المحبوب. وفي كل حب عندنا، نحن الكبار، يتجلى أثر الحب الأول عند الإنسان، والأقوى والأشد، والأكثر جذرية، وهو حبه لأمه التي تجعل منه إنسانا...

وبما أن الأمر كذلك، فإن حب الطفل لوالديه ليس مجرد حب طفولي فحسب، بل هو فوق ذلك، بمثابة تدريب وإعداد لحب الكبار. وثمة قانون في سيكولوجية العواطف يقول بأن كل عاطفة مبكرة سابقة تولّد

عاطفة أخرى لاحقة، وتُعد الدعائم والأعمدة لها. ولهذا، فإن الحب الطفولي للوالدين هو استنبات وزرع لحب الكبار المقبل، وبناء لأساساته العميقة. ولهذا يمكننا القول: كما يكون الحب الطفولي للوالدين عند الإنسان كذلك سيكون مثله حب الكبار لديه.

في حب الكبار، كما في حب الصغار، يكتسب الشخص المحبوب بعداً عالمياً كونياً للسبب نفسه: فهو وحده في الكون، بالنسبة للمحب، القادر على خلق شيء نادر فريد، لا يقدر غيره على خلقه، وهو السعادة. إنه قادر على إعطاء الحب، ولو لفترة قصيرة، حلماً طوباوياً شخصياً، وجنة صغيرة على الأرض. ولهذا بالذات، فهو يشغل في حياته حيزاً كبيراً، مفرطاً، مثله مثل الأم بالنسبة لطفلها، ومثل الإله بالنسبة للمؤمنين به، ومثل النجم بالنسبة لكوكبه.

ولهذا، لم يكن من المستغرب ولا من العبث أن يدعو الفيلسوف الألماني (هيغل) الحب بأنه «دين القلب»، ولهذا كانوا يعتقدون الثقافة الهندية القديمة أن المحبوب يغدو إلها بالنسبة للمحب. وتحت ستار هذا التشبيه تكمن حقيقة سيكولوجية عميقة، وهي إحدى أسرار الحب الرئيسة.

3- الحب البائس :

يعد الحب القوي بمثابة تقديس للشخص المحبوب. وكل ما يفعله، وكل ما يفكر به، ويقوله، يكبر ويتعاظم، بصورة حادة، بتأثير عدسة الحب المكبّرة. وتحديداً، لأن الحب يمنح سعادة كبيرة، فإن الحب غير المتبادل، الحب من جانب واحد، يسبب بؤساً وشقاء كبيرين.

تقول الآنسة (ن.د.) بخصوص الحب من جانب واحد: «كيف يمكن التغلب على الحب؟ كيف يمكن تجاوزه ونسيانه؟ وما العمل عندما يخرج المحبوب من حياة الفتاة وينتقل إلى فتاة أخرى؟ لاشيء عندي يبعث على السرور: فلا مسرة في البيت، ولا راحة، ولا أحد من الأصدقاء يفهمني.

الكآبة تسيطر علي منذ الصباح وحتى الليل، وقلبي يؤلمني بصورة مضنية، لكن حبي له لا يضعف ولا يخفت. لا أهتم بأي شيء، ولا ألاحظ أحداً من حولي، وأشعر بكآبة ثقيلة في روحي، وكل شيء يمتصني ويمسك بي، دون أن يتركني...».

وكما قال أحد الكتاب الساخرين المعاصرين: كلما كان الحب من طرف واحد، من جانب واحد كلما كان أشد وأقوى. إن الحب البائس، الحب من جانب واحد، هو حب مؤلم، وهو يؤثر سوءاً علينا مثل المرض العضال. كدر وضجر وكآبة، ومزاج كرب، وضباب يصيب النفس والجسد ويغطي الروح ويسيطر عليها. أما في لحظات المصيبة، فيحدث تسمم فعلي حقيقي للعضوية، والألم النفسي الذي يشعر به الإنسان في هذا الوضع هو ألم مادي حقيقي يصيب الأعصاب. لقد سمع كثيرون على الأغلب بعبارة «كآبة الأدرينالين»: ففي لحظات المصائب تتدفق إلى دم الإنسان كميات كبيرة متزايدة من الأدرينالين، وهذه الزيادة المتدفقة في الدم تزيد من العبء المادي، الجسدي المرهق، الذي يؤدي إلى «تدمير النفس» و«تمزق القلب».

إن كل خلية من خلايا الجسم تتثاقل، وينتفخ الجسم بتأثير هذا التثاقل، وكما يحدث في حال المرض يضعف إلى حد كبير تجدد الطاقة الحيوية السليمة الطاقة المضادة للتثاقل، طاقة التحليق التي تجعلنا خفيفي الوزن، شبه محلقين في الجو... أما طاقة الحزن والكآبة فهي نوع من الطاقة المريضة، وعندما تسيطر هذه الطاقة في جسم الإنسان يزداد نقص الطاقة المشرقة الخفيفة بتزايد الطاقة الكئيبة الثقيلة المظلمة.

في القرن الحادي عشر، عالج الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا الشباب الذين كانوا يصابون بالهزال الشديد بسبب وقوعهم في الحب البائس (الحب من جانب واحد)، ويعجزون عن النوم ويفقدون الشهية للطعام. وكان يعالجهم من علل الحب البائس وأسقامه وأعراضه بالحب نفسه من الشبيه، كان ابن سينا يعالج بما يشبهه. وقد أصبحت قصة

مأثورة قصة علاج ابن سينا للأمير الهزيل الذابل، الذي أصبح على فراش الموت، ولم يتمكن أي طبيب من علاجه لأن جميع الأطباء لم يجدوا سبباً لمرضه. وقد أدرك العلامة ابن سينا أن مرض الأمير ناشىء عن حبه الخَفِر الخفي، غير المعلن، وأصر على أن يقوم والد الأمير بخطبة الفتاة المحبوبة لابنه، وبذلك أعاد الحياة إلى الأمير المريض.

كان ابن سينا قادراً على التعرف على محبوبة الشاب السقيم، الصامت العنيد، الذي يخفي حبه. وقد كتب يقول في كتابه الشهير «القانون في الطب» (1020م):

«الحب مرض من نوع الوسواس، وهو يشبه الملنخوليا (السوداوية)... ومن إحدى وسائل علاجه تحديد موضوع الحب. ويتم ذلك على النحو التالي: تذكر على مسامع المريض عدة أسماء، وتكرر هذه الأسماء عدة مرات، يكون الطبيب خلال ذلك ممسكاً بيده نبض المريض من رسغه. وعندما يتغير نبض المريض بسرعة ويصبح متقطعاً لدى ذكر اسم ما، وتكرار هذه الحالة عند تكرار الاسم نفسه، فسيعرف الطبيب أن هذا الاسم هو اسم المحبوبة.

وبعد ذلك، وعلى النحو نفسه، تُذكر على مسامع المريض أسماء الشوارع والمنازل والمهن، ونوع العمل والقبيلة والمدن، مقرناً كل تسمية باسم المحبوبة، ومراقباً نبض المريض. فإذا ما تغير النبض عند الذِكْر المتكرر لإحدى هذه التسميات، يبدأ الطبيب بجمع المعلومات من أهل المريض عن المحبوبة، وعن كسوتها وحليها، واهتماماتها، وسيعرف من هي...

وإذا لم تجد، أيها الطبيب، علاجاً آخر، سوى التقريب بينهما، بما يسمح به الشرع والقانون، فقم بتنفيذ ذلك»[1].

وقد تحدثت الصحافة الألمانية (في الثمانيات من القرن العشرين) عن حادثة طريفة ونقلتها عنها الصحافة العالمية. وهي قصة شاب موظف، أصيب بآلام ومعاناة نفسية شديدة بعد تلقيه جواباً بالرفض على

اعترافه بالحب لفتاة، تماماً كما ورد في «ألف ليلة وليلة» وفي قصص وقصائد الحب العربية والفارسية، وفي أدب الفروسية الهندي والأوروبي في القرون الوسطى. وخلال بضعة أيام ذبل الشاب، ووهن، ولم يعد قادراً على تناول الطعام والشراب، وأصبح عاجزاً عن السير على قدميه. وهذا ما دفع برب عمله إلى تسريحه من وظيفته.

رفع الشاب الموظف المريض دعوى إلى المحكمة على رب العمل، فشكلت المحكمة لجنة من الخبراء، وقررت اللجنة بعد دراسة القضية، أن آلام الحب هي نوع من الصدمات العصبية، وهي مرض يحتاج إلى العلاج مثله مثل الاضطرابات والإصابات العصبية الأخرى. وقررت المحكمة اعتبار الأيام التي تخلّف فيها الموظف عن العمل غياباً مبرراً مشروعاً، وأعيد الشاب الموظف إلى عمله.

إن الحب الفاشل، البائس قد ينازع طويلاً، دون أن تزول آثاره، وإذا لم يعالج بالفرح والمسرات التعويضية، وبصرف الانتباه عنه والسلوان، وبنزوات جديدة (ولع، تعلق، عشق) فإنه يصبح مزمناً، ويعذب الإنسان المحب ويسبب له الآلام سنوات طويلة. ويغدو المحب وكأن قطعة اجتزأت من نفسه، مثله مثل الجسد الذي يعاني عند اقتطاع جزء منه، لأن النفس التي قطع الحب جزءاً منها تعاني الأمرين طويلا من العاهة والتشويه.

ماذا يحدث خلال ذلك في نفسيتنا؟ وكيف تنهار، في نفوسنا، القصور التي بنيناها في الهواء، متحولة إلى شظايا؟ إننا نشعر فقط بالصدى النائي البعيد للتحولات العميقة المتعددة الطبقات، التي تجري في داخلنا، لكننا لا نعرف ماهيتها المريضة، وبنيتها الحية المتحطمة.

على الأغلب، سيأتي ذلك اليوم عندما ينظر علماء النفس إلى «الحب البائس» كما ينظرون إلى مرض عصابي «عصاب الحب»، وسوف يدرسون الفسيفساء المعقدة للأحاسيس الهالكة (المنازعة) والاندماجات المرضية للتيارات العصبية، أي ما يشكل «سكرة موت الحب». عندئذ يمكن أن تنكشف بعض أسرار الحب وألغازه، تلك العاطفة المنسوجة من

ألغاز وأسرار مكنونة غير معروفة. ولا عجب في ذلك، فعلم الأمراض pathology يكتشف الشاذ من القاعدة، والمرض من الصحة.

لنقرأ معاً الرسالة التالية التي تلقيتها من طالبة جامعية: «أحببت رجلاً متزوجاً، لقد أحببته حباً حقيقياً، وكان حبي الأول. عمري /21/ عاماً وعمره /32/ عاماً. كان حبي، بالنسبة له، مجرد تعلق عابر. وعموماً، هذا الرجل كان بطبيعته «دونجواناً». إن حبي له جعلني بائسة، تعيسة تماماً. وهو سيرحل نهائياً بعد ستة أشهر، وعندها لن يكون لدي أي خيار. فماذا أفعل الآن؟ إننا نقيم معاً في سكن جامعي واحد، في غرفتين متجاورتين، وإنني أراه كل يوم. ربما، الأفضل أن أقطع علاقتي به أن أستجمع إرادتي للتغلب على عواطفي؟».

واضح أن كاتبة الرسالة فتاة عاقلة متبصرة، رغم أن الجهل والعماء يعشعشان فيها إلى جانب التبصر. إنها ترى عيوب محبوبها ومثالبه، وتدرك أن حبها بلا أفق، لكنها تأمل بحدوث معجزة. وفي هذه الازدواجية، في سلطة الأوهام هذه تكمن إحدى بهرجات الحب وأباطيله. في الحب يتصارع معسكران متعاديان: العقل الذي يرى عيوب المحبوب ومثالبه، والقلب الذي لا يريد رؤية أي عيب ويتوق إلى المحبوب.

تماماً، مثلما يقول شكسبير في إحدى مسرحياته:

عيناي ليستا متعلقتان بك

وهما تريان بوضوح عيوبك

لكن قلبي لا يرى شيئاً من مثالبك

ولا يوافق عيني في رؤيتهما لك.

إن شعور الفتاة المزدوج ليس حباً على الأغلب، بقدر ما هو تعلق، وهو علاوة على ذلك، تعلق مريض متمزق بين الانجذاب والنفور. ومن المؤسف حقاً أن هذا التعلق ينتشر انتشاراً واسعاً في أوساط الشباب. ومثل هذه العاطفة - المطب، العاطفة - المصيدة تلحق الضرر بحياة كثير من الشبان والشابات.

فما هو السلوك الأفضل في مثل هذه الحالات؟ رأينا أن الأفضل، هو الخروج بسرعة من هذه المصيدة، وكلما تأخرت أكثر في الخروج منها كان ذلك أصعب وأشد إيلاما. إن انشطارية العاطفة والعقل تقود في أحيان كثيرة، إلى المصائب والآلام، والحب البائس (من جانب واحد) يمكنه أن يسبب مآسي قاسية يصعب علاجها.

4- الموت حباً :

«كان عمره 18 ربيعاً. أحبها حباً شديداً. وكان ينتظر دوماً اتصالها الهاتفي، وينظر إليها بإعجاب شديد. في البداية، سارت الأمور بينهما سيراً حسناً، غير أنها قطعت علاقتها به في الصيف الماضي. عانى ابني الأمرين، وتألم كثيراً طيلة شهر كامل. ثم انتحر تسمما بالغاز، بعد أن ترك لنا الرسالة التالية:

«بابا، ماما: سامحاني إذا ما سببت لكما الألم، لكنني لم أعد أحتمل الألم الشديد لفراقها. حاولت الصبر، لكن الألم كان فوق طاقتي. لا أستطيع العيش بدونها، لا أستطيع احتمال هذا الألم القاتل»

في الشهر الأخير قبل انتحاره، قرأ عدة مرات قصة الأديب الروسي الكبير (كوبرين): «سوار حَبٍّ الرمان»، وقرأ كتاب غوته «آلام فرتر».

إنه مراهق غبي، لماذا أقدم على الانتحار؟ ولو صبر قليلاً، فترة إضافية، لبدأت المصيبة تخف وتضعف. ونحن أيضاً، نشعر بأننا مذنبان، لأننا لم نتنبأ بتصرف ابننا هذا، ولم نتصور إلى أين يدفع به اليأس.

غير أن الذنب ليس ذنبنا وحدنا، فعندنا لا يعلّمون الأطفال والشباب كيف يمكنهم احتمال المصائب الشخصية، وكيف عليهم تحمل الآلام والكوارث والصمود أمامها. وكيف لا يعلمونهم ذلك؟ فالمسألة مسألة حياة أو موت، وقد تتوقف حياتهم على ذلك»

(والد الشاب المنتحر – لينينغراد 1980)

من خلال هذه الرسالة، يبدو أن مزاج الشاب المنتحر من النوع المنطوي على النفس (المنغلق)، كما أن طاقته النفسية كانت متجهة نحو المعاناة أكثر من اتجاهها نحو الفعل والنشاط (لنتذكر أنه كان ينتظر باستمرار اتصالها الهاتفي). إن مثل هؤلاء الأشخاص، عندما يكونون محطمين ومنهارين بالمصيبة التي حلت بهم، يتأثرون تأثراً حاداً (كبيراً) بالقدوة اليائسة الغريبة. وليس من باب العبث، ما ذكره والد الشاب المنتحر في رسالته، أن ابنه قد قرأ، قبيل انتحاره، عدة مرات كتابي كوبرين «سوار حَبِّ الرمان» وغوته «آلام الشاب فرتر».

وكان الشاعر الألماني غوته قد كتب يقول، بعد مرور نصف قرن على نشر كتابه «آلام فرتر»: «أنني لم أقرأ هذا الكتاب بعد نشره وصدوره سوى مرة واحدة، وقد ترددت كثيراً في تكرار قراءته ولم أقرأه ثانية. إنه كتاب محشو بمتفجرة! إنني أشعر برعب وفظاعة من هذا الكتاب، وأخاف جداً أن لا أقع ثانية في هذه الحالة التي جاء هذا الكتاب نتيجة لها»[2].

❖ ❖ ❖

لنتذكر الروائي الروسي الكبير كوبرين: إن بطله (جيلتكوف) يحب بخفر، بصمت، إنه بمثابة انبعاث لحب الفرسان في القرون الوسطى، إنه الحب بالإعجاب الذليل، الحب ذو العاطفة الراكعة، الحب الذي يشبه ركوع المؤمن أمام مريم العذراء.

إن حب جيلتكوف هو عاطفة كبيرة لإنسان صغير. إنه عبارة عن عشق من الأسفل إلى الأعلى، وتخلي عن الذات. ليس لديه أي أمل بعاطفة متبادلة، فهو ليس من مرتبة من يحب. إنهما مختلفان في كل شيء: موظف صغير وفتاة أرستقراطية.

لقد سيطر هذا الحب المعدوم الآفاق على حياته كلها، وغطى

مساحة روحه كلها، طارداً منها كل شيء آخر. وفي هذا الحب تركّز معنى حياته كلها، وفقدت حياته معناها بدون هذا الحب. إنه الحب - المرض، إنه العاطفة التي يمكن تسميتها بـ«monomania العشق - الهوس من طرف واحد»، الهيام الوحيد الذي يبتلع كل شيء.

في رسالته إليها قبيل موته، يتذكر كيف انهال عليه سيل حبها فيقول: «في اللحظة الأولى قلت لنفسي: إنني أحبها لأنه لا وجود في الكون لمن يشببها،ولا وجود لكائن: حيوان، أو نجم أو إنسان أروع منك أو أجمل.... وكان جمال الكون كله قد تجسد فيك...».

إنها، بالنسبة له بعد عالمي كوني، ولا يمكن مقارنة أي أو أي كائن بها: كما أنها تسمو فوق جميع النساء، إنها كالآلهة، تسمو فوق جميع الكائنات. ومثل هذا التصور عن المحبوبة باعتبارها كائناً فريداً، كائناً أسمى في العالم، هو بالذات يغذي الحب - الوهم، الحب - النشوة الروحية، الحب - الانجذاب، إنه الحب الرومانسي، الهوسي إلى أقصى حد.

إن حياته كلها كامنة في الأمل برؤيتها، وعندما يحرم من هذا الأمل، فهو يحرم من أساس حياته الوحيد. ويصبح الموت، بالنسبة له، خلاصاً من حياة هي أسوأ من الموت، إنه خلاص من آلام وجود مبرِّح معذِّب.

إن الحب البائس له، كما يبدو قانونه السيكولوجي: فقوة مصيبته معادلة لعمق عاطفته، وقوة انهياره مكافئة لعلو تحليقه. لكن موت الحب مرض قابل للبرء والشفاء. أما الموت حباً فهو الدواء الأسوأ من المرض. وهل يجب قطع رأس المريض من أجل نزع الدمل من رقبته!

ثمة مجموعة كبيرة من الأخطاء الفادحة يمكن إصلاحها. لكن خطيئة واحدة يستحيل إصلاحها، وهي أن يحكم المرء على نفسه بالموت.

ثمة أمر سهل فهمه وصعب تنفيذه، لا يدركه ضحايا الحب في غالب الأحيان. وهو أن انفجار الألم يمكن إخماده وترويضه بانفجار

مماثل للإرادة أو بالصبر الماراثوني العنيد. إن آلام ومعاناة الحب البائس الأولى قاسية ولا يمكن احتمالها: وإذا ما تمكن المحب من تجاوزها والصبر عليها، فإنها ستزول بالتأكيد، بحتمية فلكية دقيقة.

إن موت الحب هو موت جزء من الروح، من النفس. لكن هذا الجزء يمكن أن ينبعث ويحيا من جديد، وهذا أمر تعد معرفته، من جانب الشبيبة، على درجة كبيرة من الأهمية، حيث أن انبعاث هذا الجزء الميت من النفس لدى الشباب يجري بسرعة أكبر بكثير مما لدى الكبار، لأن الجروح لديهم تبرأ بسرعة أكبر، وبدون أي آثار. وهنا، بالنسبة للشبيبة، ثمة أمل آخر وتخفيف آخر من عبء المصيبة.

لكن الأمر الأهم الذي لا يعرفه كثير من ضحايا الحب الشباب يكمن في شيء آخر. فالسعادة المقبلة، بالنسبة لهم أكثر احتمالاً من أولئك الذين لم ينصدموا بانهيار حبهم. وذلك لأن هؤلاء الشباب قد اكتسبوا خبرة من الشقاء والتعاسة والمصيبة، وهي خبرة نفسية عظيمة، تمنح النفس معرفة عميقة ثمينة بعثرات الحب، وتعطيه قدرة لاشعورية على تجاوزها. وهذا من أفضل المعلمين للنفس. ولهذا فإن ما دمر عبر كارثة من كوارث الحب يسري عليه قانون التعويض، حيث تزداد أمامهم فرص السعادة مستقبلاً.

5- ماذا يمنحنا الحب البائس؟

لا يزال الجدال دائراً حول هذا الأمر شديد الازدواجية وشديد الغموض: كيف يؤثر الشقاء والتعاسة على النفس، وأي تشابكات للخيوط غير المرئية تفعل فعلها في هذا الأمر، في هذا كله قدر من الغموض أكبر بكثير من الوضوح. صحيح أن من عاني من انهيار حبه قد يتعرض لانهيار حب جديد، فالشفاء من الحب ليس أبداً ضمانة أو مناعة من وقوعه في حالة انهيار جديد. وكثيراً ما تتتابع حالات الشفاء والمعاناة حالة بعد أخرى.. وهذا ما يحصل لدى الإنسان الذي لا يتعلم السعادة من البؤس والشقاء.

لكن حالات الشقاء والمعاناة تشكل لدى الكثيرين منا محركات خفية للحماية النفسية للذات - مثل العضوية التي تشكل جسماً مضاداً للميكروبات الغريبة الضارة - وكذلك النفس تشكل أجسامها المضادة الدفاعية. فالنفس التي عانت الأمرين من نمط معين من الناس، غير القادرة على احتمالهم، أو من نوع معين من السلوك، تبدأ بصورة لاشعورية بالاحتراس من هذا النمط من الناس أو من هذا النوع من السلوك. حيث تعصف في اللاشعور بواصل الحب وقيمه وأدلته، وتهتز وتتمزق قواعد السلوك وأسسه غير المرئية، وتجري إعادة نظر لا شعورية (غير مرئية وغير مدركة) في كل ما أدى إلى الفشل والانهيار.

أما ما يعيق الخروج من هذا التحطم والانهيار غير المرئي فهو وميض الشعور بالنقص، الذي ينمو ويتطور دائما بعد انهيار الحب: وهذا الشعور يزرع بذور انعدام الأفق واللامخرج في النفس ويشلها.

وقد كتبت تقول الآنسة الشابة (غ - عمرها 19 سنة) بهذا الخصوص: «لقد عانيت الكثير من حب بائس فاشل. وإذا ماحدث أن تعلقت بشاب، فإن هذا التعلق لن يدوم طويلاً. يبدو لي، ببساطة، أنني أصبحت غير قادرة على الحب. بينما تقول أنت، أن من شقوا وفشلوا في الحب تكون فرص الحب لديهم أكثر من غيرهم».

إن مثل هذه الأمزجة والحالات النفسية بالذات هي التي تولّد فينا الشعور بالنقص. فعلى أي شيء يتوقف ما ينتظرنا في المستقبل من سعادة أو شقاء؟ إنه يتوقف على المنتصر في الصراع اللاواعي، اللاشعوري الدائر في داخلنا؛ طاقة القوة أم طاقة الضعف. إنه يتوقف على ما إذا كان شعورنا، وعينا، قادراً على مساعدة تلك الهزات الخافية، العمياء، ومساعدة هذا التغيير الجذري للخلفية النفسية.

عندما يقدم الشعور المساعدة الذكية للا شعور، تبدأ النفس الرؤية بوضوح أكبر: من تقدر أن تكون، وماهو السلوك الأفضل المؤدي إلى تحقيق الهدف. وكأن النفس تبدأ الشعور بصورة أكثر صحة وسدادا، بمن

يمكنها أن تقع في الحب، وما هو السلوك الذي يقدم فرصاً أكبر لمشاعر الحب المتبادلة مع المحب.

إن الحالات الأولى من العشق والهيام تكون، عادة، عشوائية، وغالباً بدون رد فعل من الجانب الآخر. وقد اجتاز كثيرون منا، في فترة الشباب، مدرسة الحب الفاشل، ومما لاشك فيه أنها مدرسة نبيلة.

إن المربيَّيْن الروسيين الشهيرين (نيكيتين ونيكيتينا) يعلمان الأطفال السقوط والوقوع على الأرض قبل تعليمهم المشي على القدمين. ويبدو أن الشيء نفسه يصدق في الحب أيضاً: فكلما تعلمنا بصورة أبكر، الوقوع في الحب كلما كانت الضمانة أكبر في أن سيرنا في الحب سيكون أفضل. ربما يرى البعض في هذا القول مفارقة شريرة، لكن الحب الفاشل هو تجربة محمودة بالنسبة للشباب. ورأينا أن من دواعي السرور أن يقع الإنسان في فترة شبابه الأولى في الحب الفاشل، لأن هذه التجربة الفاشلة (الحب الفاشل)، مثلها مثل مرض الحصبة أو الجدري، كلما أصيب به الطفل باكراً كلما اكتسب مناعة أقوى ضد المرض وكلما ضعف احتمال الإصابة بهذا المرض. وكلما كانت الإصابة بمثل هذه الأمراض متأخرة كلما كانت مضاعفاتها أخطر وأقسى وأشد إيلاماً.

إن المصيبة يمكن أن تشق طريق المرء نحو السعادة. فالحب الفاشل هو بمنزلة منصة للقفز إلى الحب السعيد الناجح. وهنا، كل شيء يتوقف على ما إذا كنا قادرين على الاستفادة واستخلاص الدروس والعبر من المصيبة. وعلينا أن نتعلم فهم أنفسنا والآخرين، وأن نتعلم السلوك الظافر المنتصر، الذي يستدعي العاطفة المتبادلة من الطرف الآخر...

6 - آداب المصائب

من المؤسف أن مؤسسات التنشئة الاجتماعية في عصرنا هذا لا تهتم بتعليم النشء آداب تجاوز المصيبة، والصبر على الشدائد، وآداب الخروج من المواقف والأوضاع المأساوية. ولعل انعدام هذه الآداب أمر

يضاعف من عبء المصيبة، فيقويها ويطيل من أمدها. إن القدرة على ردع الألم، وقدرة الإنسان على تحويل ذاته، وتغطية سيول المصيبة بتيارات من العواطف الأخرى، هي بمثابة كمادات ومخففات سيكولوجية للألم، تساعد الإنسان على الخروج من الأزمة بسرعة وبحكمة أكبر.

كان الإغريق القدماء يموتون والابتسامة مرتسمة على وجوههم. والابتسامة كانت تعزز من روحهم المعنوية، كما كانت تساعد اليوناني وتحفزه لكي بقى إنسانا حتى في لحظة الموت. وبهذا كانوا يسهلون الموت على أنفسهم. وليس من العبث أن الإسبارطيين كانوا يحتقرون الألم: «أنا أسمى وأقوى منك أيها الألم، إن روحي أقوى منك». وحتى الآن، لا تزال الابتسامة بمثابة حماية من المصيبة، وطريقة للتخفيف منها. ففي اليابان، يبتسم اليابانيون برجولة في لحظات الألم والمصيبة، ويخفون آلامهم خلف الابتسامة، ولهذا تنمو في نفوسهم أوتار الصمود، التي تصقلهم، وتساعدهم على تحمل الآلام بصورة أسهل.

وفي روسيا، كان «الصمود الروحي» دائما أساس الثقافة الشعبية، لكن التربية المدللة الحديثة في عصرنا تقتل هذه الثقافة والآداب الشعبية.

يبدو أن المهم، في آداب المصيبة، هو العمل والفعالية وعدم الوقوف كالشظية في حمأة الألم المبتلعة، بل تعزيز المرء لنقاط ضعفه وتقويتها، ومعالجة ذاته من خلال معرفتها، بالفرحات والانطباعات الجديدة، أو و«داوها مما كانت هي الداء»، عالجها وداوها بحب جديد وتعلق جديد.

إن بنية المشاعر الإنسانية ذاتها، وأحادية الجانب لآلياتها الدماغية تتطلبان منا النشاط والفعالية. حيث تسيطر في دماغ الإنسان الفاشل الفكرة الأساسية المسيطرة للحزن، والعدسة السوداء المزدوجة. وهذه العدسة، وفي كل إشارة من إشارات الحياة، وفي كل انطباع تستقبله، تبالغ في الجوانب المظلمة وتقلص بصورة حادة من الجوانب المضيئة

المشرقة. إن عمى الألوان daltonism الأسود يسمم الإنسان ويؤدي إلى انحطاط جميع قواه، كما يسبب له الاكتئاب.

لكن الدماغ يحتوي أيضاً على آلية الحماية والدفاع من الأفكار المسيطرة الساخطة، الحانقة، وقد اكتشفها في الثمانينات من القرن العشرين علماء فيزيولوجيا الأعصاب في معهد الطب التجريبي بلينينغراد (بطرسبورغ حالياً). وهي بمنزلة آلية إطفاء، بمنزلة مفتاح الانفعالات، الذي يقاوم هيمنة أي انفعال وتسلط أي فكرة مسيطرة: فهو يشكل حولها منطقة إعاقة، حزاماً واقياً، وبالتالي يعيقها من اجتذاب أحاسيس غريبة، ومن إخضاع مناطق الدماغ المجاورة لسيطرتها.

لهذا السبب، بعد المرح الشديد يحل عند الإنسان حزن غير مفهوم (وهذه من مفارقات الانفعالات). فموت قريب قد يثير لدى بعضنا موجة ضحك عصبي، ضحك غريب ومعيب وغير متوقع. ومثل هذه المفارقات بالذات تولّد المفتاح المحوّل للانفعالات، حماية للدماغ من الانفعالات المميتة أحادية الجانب. لكن الحزن يمكنه قمع هذا المفتاح المحّول وتعطيله. ومن أجل مساعدة هذا المحول، لابد للمرء من بذل جهود قوية عنيدة، قد تكون أحياناً فوق طاقته، بالاستناد إلى الإرادة الصلبة وحدها...

وقد أثبت علماء فيزيولوجيا الأعصاب بمعهد موسكو الطبي الأول أن السلوك السلبي، والموقف السلبي من المصائب يطيل أمد المشاعر والأحاسيس المؤلمة، أما السلوك النشيط الفعال فيطلقها ويبعدها.

وتحتل أهمية كبيرة هنا، مقاربتنا الشخصية، وموقفنا الذاتي من المصيبة التي حلت بنا، وقدرتنا على رؤيتها بحجمها الحقيقي. لقد اشتهر في التاريخ الروماني القديم الموقف الشجاع للقائد العسكري الروماني (باول ايميل). فقد انتصر هذا القائد على أعدائه، لكن ولداه الاثنان قتلا في هذه المعركة التي انتصر فيها. وكان الرومان يعتقدون بقانون الجزاء، ومفاده أن كل خير يجلب ما يوازيه من الشر، وأن لكل نصر ثمن، وثمنه مصيبة أو كارثة. وقد خاطب القائد الروماني شعبه في اجتماع عام:

-«لقد تخلصت روحي، المفعمة بالقلق والخوف الشديدين على مستقبل روما، من خوفها وهلعها في الوقت الذي أصاب الدمار والهلاك بيتي، بعد استشهاد ولديّ الاثنين... واليوم لم أعد أخشى من أي مصائب أو أخطار، وإنني على ثقة وإيمان بأن سعادة شعبي قد ترسخت لوقت طويل».

تلك هي مفارقة الروح القوية، التي استوعبت مصيبتها وتقبلت الكارثة التي لحقت بها بخلاص الناس الآخرين من مصائبهم. وعلى هذا النحو يبدل الإنسان زاوية نظره إلى المصيبة بالكامل، فلا يراها مجرد شر لحق به، بل يراها أيضاً خيراً عم الآخرين، إنها تضحية يقدمها من أجل خير عامة الناس. فهو يخرج عن أطر «الأنا» الخاصة به، وينظر إلى مصيبته من ذروة مصائر عامة الناس، وبذلك تسهل عليه مصيبته بسعادة الآخرين التي تحققت نتيجة تضحيته.

ولكن ما هو الدرس الذي يستخلصه من هذه النظرة وهذه التضحية، الإنسان العادي الذي لا يؤمن بقانون الجزاء؟ إنه، بادئ ذي بدء، درس سيكولوجي، مفاده: ***ان من اهم دعائم آداب المصيبة الخروج منها، وان افضل طريق للخروج منها هو العمل والنشاط المشترك.*** فالإنسان يخفف من مصيبته بمساعدة الآخرين. وهذه المساعدة التي يقدمها للآخرين تمنحه تيارات ودفقات من المشاعر الطيبة والانفعالات الإيجابية، التي تبرئ نفسه وروحه، وتضمد جراحه، وتحسن من شعوره الذاتي، وتضعف شعوره بالنقص والخسارة.

إن الأجدى والأنفع في حال وقوع الكارثة أو المصيبة هو مساعدة الآخرين في مصائبهم: وعلاج مصائب الغير هو أفضل علاج لأنفسنا ومصائبنا. حيث تفقد المصيبة التي حلت بنا وضعها كمحور تركيز اهتمامنا وأفكارنا، إنها تتعادل مع مصائب الغير، وهذا ما يخفف من مشاعر الألم عند الإنسان. كما أن مساعدة الآخرين في مصائبهم يولّد في لاشعور الإنسان مشاعر علاجية شافية، ويحسّن من توازن الانفعالات المظلمة والمشرقة وتناسبها لصالح المشرقة والمضيئة.

هنا، يبرز القانون السيكولوجي ليفعل مفعوله، ألا وهو الأثر الرجعي: فكلما أعطيت أكثر للغير، كلما عاد عليك بالراحة والسرور، داخلياً وروحياً. ففرحة إعطاء شيء للآخرين من أعمق فرحات الحياة، وعندما يقدم الإنسان الفرحة والسعادة للآخرين، يحصل، وبصورة آلية على أحاسيس الفرحة لنفسه. وهذا الرجع السيكولوجي هو عتلة قوية جداً تسمح لنا بتوجيه وإدارة مزاجنا من خلال سلوكنا.

كما تساعد الأعباء الجسدية القوية كالعمل الصعب والرياضة على مجابهة الأسى والألم. وكلما كانت هذه الأعباء مضنية وشاقة أكثر كلما أغلقت عالمنا الداخلي أكثر على المصيبة، وكلما ساعدت أكثر مفاتيح العواطف الوقائية وآليات التوازن الانفعالي. وللموسيقى أيضاً تأثيرها الجيد في حالة الأسى والألم، وبخاصة الموسيقى الكلاسيكية، التي تسمو بالمعاناة والآلام، وتكسبها مغزى جمالياً، وتفاؤلاً وسرعة وتحليقاً. وكذلك يساعد هنا، الرقص، وعلاج المصائب بالفكاهة والضحك.

إن معالجة الإنسان نفسه بتيارات التوتر الجسدي والمسرات الروحية هما على الأغلب الدواءان الطبيعيان، العاديان للمصائب والآلام. وعلى أي حال، فمن الخطر المبالغة في جرعتيهما، لأن العلاج المفرط يمكن أن يفقر الروح ويعيقها عن التغلغل إلى الأعماق.

وهنا، بالذات يكمن الشعار الرئيس لآداب المصيبة، وهو: «لنجعل من المصيبة خطوة نحو السعادة ولنحول الهزيمة إلى درجة نحو النصر». و«مفارقة المصيبة» هذه هي إحدى أسمى أركان حكمة الحياة، وإحدى أعمق مفارقات الثقافة الإنسانية كلها. وقد ظهرت هذه الحكمة - المفارقة قبل آلاف السنين، في الفلسفات القديمة في سومر والصين والهند، واليونان وروما. حيث أدرك حكماء العصور القديمة أن أي حدث كارثي مأساوي يمكنه أن يزيد من عمق النفس، ويوسع الوعي والإدراك، ويعزز الصمود. وكان هؤلاء الحكماء يعلّمون الناس بأن يجدوا في كل كارثة وفي كل مصيبة - أي في داخل نفوسنا وذواتنا - الأدوات اللازمة لتخفيف هذه المصيبة أو الكارثة.

كانوا يرون أن المصيبة تأخذ وتنزع، وكان بودهم لو أن المصيبة تعطي ولا تأخذ. كان هؤلاء الحكماء يدعون إلى الجلد والثبات والصمود البطولي، الذي يحوّل المصيبة إلى نقيضها. وهذا يعني تحديداً أن يكون من تقع عليه الكارثة أو المصيبة إنساناً بكل معنى الكلمة، لأن القدرة على التخفيف من ضرر الكارثة وتعزيز الفائدة منها هي من القدرات ومن الخصائص الإنسانية الرئيسة.

وآداب تجاوز المصيبة هذه يجب تنميتها، بادئ ذي بدء في الأسرة، من خلال تجاربها اليومية، والآلام اليومية، وأثناء الكدمات الجسدية والروحية التي تلحق بأفرادها. ومما يؤسف له، أن الأسرة العصرية لا تمارس اليوم هذه المهمة على النحو المطلوب. فشعار الطفولة السعيدة، السائد الآن، يحوّل الأطفال إلى ذوي الأيدي الناعمة، ويغرقهم في الدلال ويجعلهم عاجزين، ضعفاء أمام المصائب والشدائد. كما أن المدرسة تقف جانباً ولا تهتم بهذه المسألة. وكذلك الفن المعاصر، لا يقدم للناس أي مساعدة في هذا المجال: حيث تخلو أعمال الفنانين المعاصرين تقريباً من أبطال المصائب والصامدين في وجه الحب البائس والمنتصرين على هزائمهم.

إن المدرسة والأسرة والفنون والآداب تقف هنا، بعيدة كل البعد عن أهم الحاجات الإنسانية. ومثل هذا الابتعاد دليل على ضعفها الاستراتيجي في تربية المشاعر الإنسانية، وخلل آخر يلحق الضرر بمدنيتنا وحضارتنا، من وجهة نظر علم النفس.

7- ما يتكرر وما لا يتكرر في الحب

بخصوص هذا الموضوع وردت إلى المؤلف عدة رسائل في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، ومنها الرسائل الثلاث التالية:

«لا يمكنك أبداً إعطاء نصيحة لأي كان، حول كيف يجب عليه أن يحب. فكل امرئ يحب على طريقته الخاصة، ولا يمكن فرض وجهة نظر واحدة على الجميع.» **(كالوغا – قصر الثقافة. شباط 1977)**

«كلما كثر عدد العلماء الذين يدرسون الحب كلما نقص الحب نفسه. فالحب يموت من البحث والدراسة، وتلك هي خاصيته. لأننا نستطيع دراسة الظاهرة التي تتكرر. وكان شكسبير قد قال منذ قرون، إن أي حب هو ظاهرة فريدة لا تتكرر.» (اوبنينسك - المكتبة المركزية، آذار 1982)

«إن جميع القوانين التي يمكن اكتشافها هي قوانين إحصائية، أي ليست معدة لفرد واحد، بل للجماعة ككل. فما العمل بالنسبة للفرد الواحد؟ إنه يختلف كثيراً عن الفرد المتوسط، حسب القوانين الإحصائية.» (منطقة موسكو، نادي اللقاءات، 1976).

لا بد من الاعتراف أولاً، بأن الأقوال والآراء الواردة أعلاه، محقة إلى حد كبير. فلا يمكن بالطبع، تقديم أي جواب، لأي كان، حول كيف يجب أن يحب، وكيف يجب أن يشعر. فالحب له سلطته وهيمنته ويصعب التحكم به، ولا يخضع لأي تأثير مباشر. ولكن، هناك حب - عاطفة، وهناك حب - علاقة، ويمكن التأثير على الحب - العاطفة عبر الحب - العلاقة. فالعلاقة الجيدة بالإنسان القريب، العزيز، والاهتمام الكبير به، يمكن أن يؤثرا على حبه: فإما أن يعززاه ويقوياه، وإما أن يوقفا انطفاءه. ولا يمكن بالطبع، وضع قوانين عامة للحب. فعاطفة الحب مفعمة بعوامل شخصية كثيرة، وفيه اختلافات وتباينات كثيرة لدى مختلف الأفراد.

على أي حال، ليس هناك إجماع على هذا الرأي، حتى أن بعض المفكرين الكبار قد وقف ضده. فـ(شوبنهاور)، فيلسوف التشاؤم العظيم، رفض، قبل أكثر من قرن ونصف، فردانية الحب وتفرده. وكان الحب، بالنسبة له، مثل القناع الذي يغطي غريزة حفظ النوع البشري. وكان يقول بأن هذه الغريزة، عبقرية الجنس البشري وملاكه الحارس، تهيمن على البشر وتسترقّهم. وكل ما يبدو للناس وكأنه خاص وشخصي ومتميز في مشاعرهم، ما هو إلا خداع الطبيعة، فهم في الواقع عبيد الغريزة، ويعيشون في حبائل الخداع الذاتي. وكان شوبنهاور يقول، بأنه ليس هناك أي شيء شخصي أو سامي أو رفيع في مشاعر الرجل

والمرأة، وكي يكون متسقاً مع آرائه عاش شوبنهاور طيلة حياته أعزباً ولم يتزوج.

أما الآن، فقد أصبح الفرق واضحاً ومفهوماً بين الحب وغريزة حفظ الجنس البشري، وكثيراً منا يعتبر نزعة الحب الفردية، المتميزة وغير المتكررة، أمراً بديهياً. ولكن في أعماق هذه النزعة الفردية والمتميزة تكمن رغبات متشابهة، تمثل القواسم المشتركة التي تجعل من الحب عواطف مشتركة، مختلفة لدى مختلف الأفراد.

أما ما يتعلق بالقوانين التي تحرك الحب، فإن بعضها يحرك غالبية الناس، وبعضها الآخر يحرك قلة منهم، وعلاوة على ذلك، فإن بعض الناس يتأثر بقوانين معينة، بينما يتأثر بعضهم الآخر بقوانين أخرى.

أما ما يتعلق بالفرد المتوسط، فلا وجود له، وما هو سوى مخطط اصطلاحي مزيف. هناك نماذج متعددة من الأفراد، والذين يندرجون منهم تحت نموذج واحد يجمع بينهم، ورغم ما يميز كلا منهم من خصائص فردية، جانب هام، هو انتسابهم إلى مجموعة واحدة، سيكولوجية كانت أم بيولوجية، اجتماعية أم عمرية.

وهناك تشابه كبير في عاطفة الحب بين الأفراد الذين ينتسبون إلى هذا النمط (أو النموذج). فالحب لدى أصحاب المزاج الدموي Sanguine temperament، عادة، عاصف مندفع، عالي الوتيرة مثل فوارة الماء الحار، الذي تنطلق تدفقاته المتقطعة على شكل ومضات قوية؛ أما لدى أصحاب المزاج اللمفاوي Phlegmatic temperament فالحب كالبحيرة الهادئة المستقرة، الساكنة، يمتاز بدفء عاطفي معتدل وبتيارات بطيئة لكنها مديدة وقوية. والحب لدى الانطوائيين introverts، المنغلقين على أنفسهم، معقد سيكولوجيا، ومليء بالمنعطفات والتلونات، أما الحب لدى المنفتحين extroverts، الاجتماعيين فعاطفته أشد بساطة، حيث يتحول الحب لديهم إلى فعل أكثر من معاناة...

هناك أنواع مختلفة من الحب، وفي حب الأفراد المختلفين، الذين ينتسبون إلى نمط سيكولوجي واحد، ثمة، كما يبدو، عناصر مشتركة، متشابهة، وأخرى مختلفة، متباينة. أعتقد أن القول بأنه لا توجد عناصر مشتركة، متشابهة في الحب، هو قول سطحي للغاية، نابع من نظرة سطحية. صحيح أن كل حب هو غير متكرر، ولكن في كل حب هناك أشياء كثيرة متكررة. ومع ذلك فالحب، أي حب، هو سبيكة فريدة من الأحاسيس والمشاعر المتكررة. إنها متكررة لأنها تنتسب كلها إلى الحب، وكل إحساس منها تقريباً يمكن أن يشعر به المحبون الآخرون(3).

أما بالنسبة للرأي القائل بأن الحب يضعف ويزول بسبب الدراسة والبحث، فهذا قول سطحي للغاية. لأن الحب لم يخضع للبحث والدراسة تقريباً، وهذا أمر يؤسف له. وإذا ما حاولنا إحصاء الباحثين المتخصصين في علم الحب، فلن نجد في العالم كله أكثر من بضعة عشرات الباحثين المتخصصين. أما الكثرة الباقية منهم فلا تدرس الحب، بل تبحث في الجنس، وفي العلاقات الأسرية، والعلاقات الزوجية (وهذا ما تحدثنا عنه بالتفصيل في الفصل الأول «علم الحب»). وفي هذه الحال، يغدو من السخافة القول بأن بضعة عشرات من الباحثين يقتلون عاطفة الحب لدى الملايين.

والرأي عندي، أن عدم المعرفة هو الذي يقتل الحب، وعد المعرفة جهل. إن المعارف الخيرة، المسخرة من أجل خير الإنسان هي التي تساعد الحب على العيش وتطيل من عمره. والحب ينازع الآن، ويرقد على فراش الموت، ليس نتيجة دراسته وبحثه، بل نتيجة عدم دراسته، إلى جانب أسباب أخرى، ونتيجة لأننا ندرس بشكل سيئ الأسباب المؤدية إلى هلاك الحب، وكيف يجب أن نطيل عمره...

على أي حال، من الممكن دراسة الحب بطرق مختلفة: بطرق مناسبة للحب ومتوافقة معه، وبطرق أخرى معادية للحب: فالمنطق النظري (منطق المفاهيم) غير مناسب، للأسف، لأنه يحوّل الحب إلى

مستحضر مخبري. فيحدث للحب الشيء نفسه الذي حدث للأدب في الكتب المدرسية: حيث يتناولونه بطرق معادية له، وذلك بتقسيم عضويته وبنيته الحية الواحدة إلى أجزاء، واستخراج «المضمون» خالياً من «الشكل» أي خالياً من الحياة.

إن طائر الحب الأزرق يمكن أن يختنق بمنطق المفاهيم. ولا يمكننا فهم الحب فهما حقيقيا إلا بمدخل تكاملي لا يقوم على التجزئة، ولا يمكن فهمه إلا بسبيكة خاصة من طرق العلم والفن، وباتحاد حي، متعدد الطبقات لمختلف المناهج والطرق. ولا يمكن رؤية الوجه الحقيقي للحب إلا بمرآة خاصة مركبة، مرآة تتكون من عدة مرايا صغيرة، فهي وحدها، بتعدد حدودها وأبعادها وجوانبها، القادرة على إدراك بنية الحب المعقدة، الدينامية، المتعددة الجوانب والأبعاد.

8- مملكة ضرورات المصادفة :

وردني السؤالان التاليان:

«هل يمكنك أن تحب الإنسان الذي لا يحترمك؟ وكيف يتعلق الإنسان بشخص يشعر نحوه بالاحتقار؟ ما هي هذه العاطفة، وكيف نسميها؟» (نوفوسيبيرسك – 1976).

«كيف يجد الأشرار، والسارقون والقتلة من يحبهم؟ وهل يمكن أن يحبوهم لفترة طويلة وثابتة؟ وهل يمكن أن يُحَب المرء لعيوبه ونقائصه؟» (موسكو – 1979).

نحن جميعا، نعرف أن هناك حباً «عادياً» (قائماً كله على «غير العادي»، حيث يكون إنسان أعز على عواطفنا ومشاعرنا من العالم كله)، وهناك أيضاً حب «غير عادي»، حب منكسر، معاد للعقل وحدوده وخارق لمحظوراته. على أي حال، قد يكون الحب «غير العادي» بحد ذاته «قاعدة» لا تقل حدوثاً ومصادفة عن الحب العادي. فالعاطفة المتنافرة هي خليط بين الميل والنفور، هي سبيكة من المشاعر المتناقضة.

ولكن من أين يأتي تفرد الحب، وعدم تكراره، وعلى أي أساس يقوم؟ هناك أسطورة حول هذا الموضوع، وردت عند أفلاطون. في أقدم العصور، كان البشر مختلفين تماماً عما هم الآن، وكانوا يعرفون بـ «الاثنينية الجنسية androgynous» - المرجال - حيث كان الرجل والمرأة مندمجين في كائن إنساني واحد، ثنائي الجنس وثنائي الجسد. وكان هؤلاء البشر، ذوو الاثنينية الجنسية، أقوياء جداً، لدرجة أن كبير الآلهة (زيوس) أمر بتقسيم كل منهم إلى كائنين اثنين (رجل وامرأة)، خوفاً من أن يتطاولوا على الآلهة.

«عندما انقسم كل مرجال (أندروجينوس- كائن مزدوج الجنس) إلى نصفين، أخذ كل نصف يسعى نحو نصفه الآخر. فكانا يلتحمان ويتعانقان، طامحين بذلك إلى الالتحام والاندماج من جديد... ولم يرغب أي نصف منهما بعمل شيء دون الآخر». «ومنذ تلك العصور السحيقة القدم، امتاز الناس بحب نصفهم الآخر وسعيهم نحوه. والحب، بجمعه وتوحيده للنصفين المنفصلين، يحاول جعل كل نصفين كائناً واحداً، كائناً كاملاً، وبالتالي الحفاظ على الجنس البشري والطبيعة البشرية»[4].

ومن هذه الأسطورة الشهيرة، انطلق التعبير الدارج، الشائع حتى اليوم في مختلف اللغات وهو «النصف الثاني»، والتعبير القائل بالبحث عن النصف الآخر، والرأي القائل بأن لدى كل إنسان في هذا العالم شخص واحد، وحيد يكمله، شخص أعِدَّ له خصيصاً، وهو نصفه الآخر.

لقد ساد مثل هذا الفهم لخيار الحب في الأخلاق الأوروبية، وفي بعض الثقافات الأخرى حتى بداية القرن العشرين، ولا يزال واسع الانتشار حتى الآن (في البلدان التي تسمح بتعدد الزوجات، النظرة إلى الحب مغايرة بعض الشيء، حيث نجد النظرة الأفلاطونية، كما نجد الرأي القائل بأن الرجل يمكن أن يكون له أكثر من نصف واحد).

في القرن التاسع عشر، ظهر تفسير آخر للحب. فالإنسان يحب الآخر الذي يتجسد فيه، أكثر من الآخرين، مثله الأعلى (هذه الفكرة

ظهرت للمرة الأولى في العصور الوسطى). وهي فكرة صائبة على الأرجح، إذا كان المقصود بالمثل الأعلى - المثل الأعلى غير الخاضع للرقيب، المثل الأعلى للعاطفة، للاشعور، وليس للوعي والشعور. إن مثل هذه المقاربة تسمح بفهم جوانب كثيرة من عاطفة الحب، لكنها لا تفسرها كلها. فهي لا تفسر، على سبيل المثال، لماذا يحب بعض الناس الأشخاص الأشرار، والكذابين، والأغبياء، وغيرهم من البعيدين كل البعد عن المثل العليا.

أفلاطون نفسه كان قد قال، إن الحب ليس ميلاً وانجذاباً إلى الإنسان كله، بكامله، بل ميل إلى ماهو جيد وطيب فيه. وهذه الفكرة شكلت نواة نظريته العميقة والمعقدة في الحب، وجاءت هذه النظرية خالية من أي أثر للتبسيط الذي قد ينشأ عند فصلها عن سلسلة أفكار أفلاطون المتشعبة.

والأخلاقيون العلميون المنهجيون حتى في عصرنا، يؤكدون بكل ثقة أن الحب هو ميل وشوق إلى فضائل الإنسان وسماته الإيجابية. لكن الإنسان لا يقسم إلى خلايا بيضاء وخلايا سوداء، ولا يمكن تقسيمه إلى أجزاء جديرة بالحب وأخرى غير جديرة. فجميع خاصيات الإنسان وسماته مزدوجة. فلكل فرد، ولكل شخص، ضوؤه وظله. وبالطبع، يحب الإنسان في الإنسان الآخر ما يروق لا شعوره، ويجذبه، ويبدو له ميزة وتميزاً. لكن هذه النظرة كثيراً ما تتعرض للخطأ، فما يبدو ميزة قد ينقلب إلى نقيصة: عندما تتحول القوة، وتنقلب إلى قوة غاشمة، وحدة الذهن أو رهافة العقل قد تنقلب إلى رفض الرأي الآخر...

يمكننا القول بأن الإنسان، كل إنسان، يحتوي على ثلاثة عناصر: ففيه ما يعجبنا ويروقنا، وفيه مالا نكترث به، وفيه مالا نحتمله. وإذا ما تحدثنا بلغة المصطلحات، لدى كل إنسان مزايا إيجابية، ولديه نقائص، ولديه عيوب. ولهذا، لا يقتصر الحب، غالباً، على الميل والتعلق بسمات المحبوب الإيجابية، بل ويشمل أيضاً القبول بالسمات الباهتة والاستسلام

للسمات الظلامية (السلبية)، أو عدم ملاحظتها، أو التقليل منها، أو تزيينها وتحسين صورتها.

في إحدى أساطير (كيوبيد) نقرأ أن كيوبيد قد أطلق سهمه، دون تسديد، وهو معصب العينين. وقد منعته العُصابة الموضوعة على عينيه من رؤية من سيقع عليه السهم، وبالتالي فالحب الذي أوحى به كان حباً أعمى. إن فكرة هذه الأسطورة، حول أن الإنسان قد يحب إنساناً عرضياً، رغم أنها ليست صحيحة بالكامل، لكنها أقرب إلى الحقيقة من نظرة أفلاطون إلى الحب المقدر، المكتوب، الوحيد.

إن المصير المقدر المكتوب يبدو أنه ليس مقدراً ومحتوماً إلى هذا الحد، كما أن عامل الصدفة في اختيار الحب ليس واسعاً إلى درجة كبيرة. فالصدفة تنبع من عامل الضرورة والحتمية القانونية. وتكمن هذه الحتمية القانونية في أن لكل إنسان نمطه فيمن يحب. وهذه الأنماط متنوعة ومتعددة إلى حد كبير، تقدر، ربما بمئات الآلاف...

وبعض خاصيات هذا النموذج - المثل الأعلى - تكون واضحة جلية في نفس الإنسان وفي لا شعوره أكثر من غيرها، وبعضها الآخر أقل وضوحاً، وبالنتيجة يعوم المثل الأعلى ويصبح ضبابياً مجترفاً. ومثل هذه الضبابية هي التي تولّد، كما يبدو، الحب الخطأ الذي يتكرر كثيراً. إنها تولد الميل إلى الإنسان، الذي بدا لنا قريباً من مثلنا الأعلى. وبعد ذلك يتكشف لنا أن جانباً واحداً فقط من هذا الإنسان يتطابق مع المثل الأعلى، في حين لا تتطابق معه بقية الجوانب، بل تناقضه وتنفّره. لكن اللاشعور قد اختار، والعاطفة تولدت، ووقعت نفس الإنسان في أسره...

إن رغباتنا وأهواءنا الغريزية (اللاشعورية) يحركها مبدأ واحد هو: ***هذا الغصن من هذه الشجرة، وهذا الجزء من هذا الكل***. وكما تكون الشجرة يكون غصنها، وكما يكون الكل يكون الجزء. كثيراً ما يدهشنا ويحوز على إعجابنا في الإنسان شيء واحد: وجهه، قامته، ابتسامته، نظرته، أو روحه الفكاهية... وهذا كله جزء *من الإنسان*، أما باقي الأجزاء

فقد تكون أحسن أو أسوأ بكثير. ولكن، يبدو لعواطفنا الخفية أن كل شيء في هذا الإنسان تماماً مثل ذلك الجزء الذي أذهلنا وحاز على إعجابنا. إن هذه السذاجة الطفولية تشكل، كما يبدو، المحرك الرئيس لجميع عواطفنا ورغباتنا.

يبدو أنه، كلما كان الإنسان أقل وعياً وإدراكاً لمثله الأعلى كلما كان أقل تحديداً في اختياره وكان اختياره أكثر اتساعاً وعشوائية؛ وكلما كثر احتمال الخطأ. وهذا، تقريباً، قانون عام وشامل في مرحلة الشباب، حيث تهيمن الانفعالات اللاشعورية على الانفعالات والعواطف الشعورية الواعية، وحيث نمو العواطف - لدى الشباب- يسبق كثيراً نمو البداهة والعقل. إن هذا التباين يولّد، كما يبدو، مشاعر خاطئة، عديدة، وحتمية، وهو الذي يشكل الحب البائس لدى كثيرين من الشباب...

ثمة أفراد، يكون مثلهم الأعلى اللاشعوري بعيداً جداً عن النمو والتطور، وتكون نفوسهم ضعيفة التوجه نحو فردية المحبوب، بل وأيضاً نحو نمطه. ويمكن لهؤلاء أن يبدلوا نمط محبوبهم الذي يروق لهم والانتقال إلى نمط آخر، حيث يتسع أمامهم الخيار وتكون قدرتهم على التعايش مع الأنماط المختلفة أكبر. ولكن قد يكون لدى هؤلاء قدر أكبر من الشك والتردد وانعدام الثقة. وكثيراً ما يحدث هذا لدى الشباب من ذوي النفسيات القلقة، غير المستقرة، أو لدى الأفراد ضعيفي النمو النفسي.

فكيف تجري في الواقع آلية العشق والتعلق السيكولوجية؟ يتعلق الإنسان غالبا، بالإنسان الآخر الذي ترى عواطفه أنه قريب بنمطه من المثل الأعلى الذي تسعى إليه، وإن كان هذا المثل الأعلى (النمط) ضبابياً باهتاً.

أما الصدفة والعشوائية داخل هذه الآلية فتكمن في أن الناس يتعلقون غالباً، بالشخص الأول الذي يلتقونه من هذه المجموعة من الأفراد من ذوي النمط المرغوب. حتى وإن كان هذا الشخص يشبه المثل

الأعلى شبهاً بعيداً، حتى وإن كان لا يلبي سوى بعض جزئياته، فالعلق قد حصل، والنفس قد أصبحت أسيرة العواطف. وهذه هي مفارقة العشق والتعلق وضرورته «العرضية».

وهذا الشخص نفسه، قد يلتقي في الغد، عشرات من الأشخاص الآخرين، الأقرب بكثير إلى مثله الأعلى الخفي، لكنه، ببساطة، لن يلحظهم إطلاقا. فقد تم إغلاق «رادارات البحث» في لا شعوره، وانتقلت نفسه من حالة الباحث إلى حالة الواجد، وتعطلت فيه حاسة البصر الجانبية، ولم يبق لديه سوى حاسة البصر الجبهية المكبّرة. وبذلك تكون قد حدثت المصادفة العرضية الحتمية، التي أصبحت تسيطر على حياته كلها.

إن «يانصيب» الاختيار هذا يمكن تعديله بطريقة واحدة هي: تحويل الصدفة إلى ضرورة، وخلق تشابه كبير من التشابه الضئيل، وإلا فالفشل الذريع محتوم وأكيد. بالأمس فقط، كان الشخص المحبوب واحداً من أشخاص عديدين يمكنك التعلق بهم. واليوم هو الوحيد في العالم، القادر على إشباع حبك، ذلك الحب الذي أصبح بالنسبة لك «حاجة الحاجات» و«مطلب المطالب»، لقد أصبح أكثر حاجاتك هيمنة وإلحاحا. وجميع الحاجات الأخرى تتهاوى وتتساقط أمامها وتتراجع إلى الصفوف الخلفية. وبما انته لا يقدر على إشباعها إلا شخص واحد، فإن فردية الحب تضيق إلى حدها الأقصى، تضيق إلى التفرد.

❖ ❖ ❖

الهوامش :

(1) – ابن سينا «القانون في الطب».

(2) – ايكرمان، ي.ب. «حوارات حول غوته». موسكو،1981، ص 466.

(3)- إذا ما تحرينا الدقة، هناك ثلاثة أنواع من المشاعر: الأول هو الأحاسيس المشتركة، أي تلك المشاعر التي نجدها في الحب لدى جميع الأفراد، وجميع الشعوب وفي جميع العصور، أي الأحاسيس التي تميز الحب عن العواطف الأخرى (الميل ذو القطبين، الإحساس بالمحبوب كقيمة كونية وما شابه ذلك)، والثاني هو الأحاسيس «النمطية»، أي تلك الأحاسيس المتشابهة لدى الناس المحبين من ذوي المزاج الواحد، ونمط الحب الواحد، وغير المتشابهة لدى المحبين من أنماط وأمزجة أخرى (مثل حب المزاج الدموي الذي يشبه تدفقات الماء الفوارة وحب المزاج البارد الذي يشبه البحيرة، أو الأنواع التاريخية والقومية من الحب، وهذا ما سنتناوله لاحقا)؛ والثالث هو الأحاسيس الفردية، أي تلك الأحاسيس التي لا تتشابه مع أحاسيس الآخرين، أي التباينات الخاصة أو المركبات الخاصة غير المتكررة لهذه الأحاسيس.

(4) أفلاطون «الحواريات المختارة». موسكو، 1965، ص 141-142.

الفصل الخامس

روح الحب: نحو الآخر كما نحو الذات

1- الحب في حده الأدنى

سنحاول الآن بحث الموضوع الأكثر غموضاً، والأقل وضوحاً، والمتعلق بكنه الحب. ما هي ماهية الحب؟ ما هو جوهره؟ وهل كل إنسان قادر على أن يحب؟

تلقى مؤلف الكتاب مجموعة من الرسائل حول هذا الموضوع، وأهمها:

- «لدي علاقة غريبة بشاب. أنا أحبه، وأعرف أنه يحبني، ولا يمكن لأحدنا البقاء دون الآخر. غير أن حبنا هذا ذو أطوار ونوبات متباينة. فهو يتجلى على نحو عاصف في اللحظة التي يمكنه فيها أن ينهار.

والآن تعلقت بهذا الشاب تعلقاً شديداً، في حين أنه أصبح لا مبالياً تجاهي. وما إن أقترح عليه الافتراق حتى نتبادل الأدوار، فأصبح أنا لا مبالية تجاهه، ويعبّر هو عن تعلقه الشديد بي. إننا نضنى ويستهلك أحدنا الآخر. فما العمل؟ وهل على المرء أن لا يعبّر عن حبه؟

(مدينة كويبيشيف، معهد البوليتكنيك- 1980).

- «دار بيننا جدال حول الحب، حيث أكد بعض منا أن الإنسان الأناني غير قادر، بينما رأى بعضنا الآخر أن الأناني قادر على الحب، لكن حبه أناني الطابع. فمن منا على الصواب؟» (جوكوفسكي – 1979).

كي نفهم هذا كله، لابد لنا أولاً، من أن نعرف ما هو الحد الأدنى للحب، ومن أي عتبة يبدأ الحب.

ما هي أبسط مظاهر الحب؟ متى يتعلق كل من الرجل والمرأة بالآخر؟ وقد يشمل هذا التعلق كلاً من التعلق الجسدي، والاحترام، والامتنان والشكر...

وهل يمكن للحب، في حده الأدنى أن يكون سبيكة من الرغبات الجسدية المادية والروحية؟ إن حب المراهقين والمراهقات هو، غالباً، حب أفلاطوني، بينما تضعف في حب الكهول، المتقدمين والمتقدمات في السن، هذه الرغبات الجسدية أو قد تنعدم.

قد يكون الحب في حده الأدنى، يتلخص في تقديم ما يسر وما يفرح الآخر والعناية به ورعايته؟ لكن مثل هذه الرغبة متوفرة في مشاعر الصداقة وفي حب الأهل والأقارب، وبخاصة من الكبار نحو الصغار كالأب والأم، والجد والجدة تجاه الأولاد والأحفاد...

لقد تشكلت حول الحب حلقة كبيرة من الخرافات وأنصاف الحقائق، ومما يؤسف له، أنها تبدو وكأنها حقائق ثابتة. وهاكم على سبيل المثال رأيان متباينان، متناقضان يؤمن بهما كثيرون: الرأي الأول أن الحب أناني - وهذا رأي الرجال غالبا، والثاني أن الحب تضحية وغيرية، وهذا رأي النساء في الغالب.

إن أغلب من كتب وتحدث عن الحب، منذ القديم وحتى الآن، على قناعة راسخة بأن الحب مفعم بالعواطف والمشاعر الغيرية. غير أنني أرى أن الحب بعيد عن الغيرية تماماً بقدر ما هو بعيد عن الأنانية.

وقد وردت للمؤلف حول هذا الموضوع الرسالتان التاليتان:

- «هل يعقل ما تقوله؟ إذا لم يكن الحب ذروة الغيرية والتضحية، فأي عاطفة من العواطف تفوقه في الغيرية؟» (**كويبيشيف - نيسان 1980**).

- «أنت تدعي أن الحب هو عدو للأنانية والغيرية معاً، وانه يسعى إلى تحقيق توازن قلبين، ولا يحتمل أي رجحان في كفتي هذا التوازن.

فكيف يتحقق هذا في الحياة الواقعية، في العلاقات الواقعية بين الرجل والمرأة؟ إن هناك رجحان، لدى كل إنسان، لكفة الغيرية أو لكفة الأنانية. وهذا يعني أن هذا الرجحان سيظهر أيضاً في علاقاته وعواطفه ومشاعره» (بافل س. – بياتيغورسك – 1979).

يعتقد كثيرون أن الغيرية altruism، أو الإيثار الاجتماعي أو التضحية بالذات هي النقيض المثالي للأنانية. غير أن الغيرية (المشتقة من كلمةalter– الآخر– اللاتينية) والأنانية egoism (المشتقة من كلمة ego– الأنا– اللاتينية)تقوم كل منهما على عدم التكافؤ. فالأنانية هي الارتقاء بالذات فوق الآخر، والحط من الآخر، أما الغيرية فتعني الارتقاء بالآخر فوق الأنا، والحط من قدر الذات.

قد تكون رعاية الآخر والعناية به والتضحية بالذات (بإلحاق الأذى بالنفس) أعلى درجات الإنسانية، وبخاصة في ظروف الخطر، أو في حال التحاق القوي بالضعيف، أو عندما يعطي الإنسان مما هو فائض لديه لما هو ناقص عند الآخر (وبالأخص عندما يعطي مما هو بحاجة إليه حاجة ماسة)... إن حرمان الذات وإعطاء الغير هو عمل نبيل وخير وإنساني عندما يوازن الخلل في العلاقات المتذبذبة مع الآخرين. لكن التضحية بالذات عندما تخرج عن إطار التوازن، فهي تؤدي إلى توسل الإنسان، وتجعل منه مطية يتسلق عليها الآخرون.

غير أن حديثنا هنا، لا يدور حول التضحية بالذات – وهي أعلى درجات حرمان الذات –، وهي أيضاً يمكن أن تكون عملاً خيّراً ونبيلاً، ولكن حصراً في الظروف المأساوية الاستثنائية. إن هذه التضحية بالذات لا تحدث وفق قانون التكافؤ مع الآخر، بل تتم حسب قانون أقصى حد من اللا تكافؤ – قانون تدمير الذات من اجل إنقاذ الآخر.

إن النقيض الأمثل للأنانية هو تكافؤ الذات (الأنا) مع أنا الآخر، أي السعي إلى عدم الارتقاء بالذات فوق الآخر وعدم السماح للآخر بالارتقاء فوق الذات، أي مقاربة الآخر مثل مقاربة الذات. وهذه، على

الأغلب، الحلقة الأولى من النزعة الإنسانية، وأساسها السيكولوجي، وهي قريبة جداً من الحب.

2- أين الحب وأين التعلق :

ما هو الاختلاف بين الحب وبين التعلق؟إن الحب الإنساني يميل بطبيعته، إلى تحقيق توازن بين كائنين بشريين اثنين «أنا» و«أنا» آخر، رغم أن هذا التوازن تقريبي وغير مستقر. ولعل هذا الميل، باندماجه بلذة العواطف، يشكل جوهر الحب ومادته السيكولوجية. إن أساس الحب الإنساني بأنواعه كافة،والمحور الأعمق لعواطفه ومشاعره هو مقاربة الشخص المحبوب كمقاربته لذاته؛ إنه تلك الحالة النفسية، حيث كل شيء في الشخص المحبوب عزيز وغال على لا شعورك كمعزتك لنفسك ذاتها.

ولكن، ما هو الفرق بين الحب والتعلق؟ مما يؤسف له أن علم النفس لا يذكر شيئاً تقريباً عن فرق كبير بينهما، أما الفن فيعالج الفرق بينهما معالجات خارجية، أي من الناحية الخارجية وحدها. أما الأدب العالمي فلم يذكر سوى مشهداً واحداً، يكتشف، على نحو حقيقي الفرق بينهما. رغم أنه حتى في هذا المشهد لم يدرك من حيث هو فرق بين الحب والتعلق. وقد ظهر هذا المشهد في رواية الكاتب الروسي ليون تولستوي «الحرب والسلام»، عندما يعترف (أندريه بولكونسكي) بحبه لـ (ناتاشا روستوفا). وعندما يأتيه الجواب بـ«نعم» من طرفها، يحدث في نفسه فجأة انقلاب سريع وغامض، إن التعلق يتحول إلى حب.

«كان الأمير أندريه يمسك يدها وينظر إلى عينيها. ولم يجد في نفسه حبه السابق لها. ولكن تحرك فجأة شيء في نفسه: واختفى التألق الشاعري السابق، تألق الرغبة، وظهرت شفقة على ضعفها النسائي الطفولي، شعر بالخوف على ولائها وإخلاصها وصدقها، وظهر في نفسه إدراك قاس وسار في الوقت نفسه. إنه إدراك الواجب الذي ربطها به إلى الأبد. وهذه العاطفة الجديدة الصادقة، رغم أنها لم تكن

مشـرقة وشـاعرية كعاطفـة الأمـس نحوهـا، إلا أنـها كـانت عاطفـة قويـة وجديـة».

كـان التعلـق الـذي يشـعر بـه الأمـير أندريـه تجـاه ناتاشـا روسـتوفا، يتكون من«عنصر مادي سيكولوجي» واحد، كان يتكون من مجرد «الرغبة الشـاعرية والخفيـة». ومثلها مثل أي رغبـة أخـرى، كـانت تعلقـاً، شـعوراً مركزياً بالأنا، كانت عاطفة تجاه ذاته.

لقـد أصبـح هـذا التعلـق، بعـد مـروره بـالتحول المفـاجىء، عاطفـة أخرى، أكثر تعقيداً، أصبح مركزياً مزدوجاً، لا يمس «أنـا» تَـه وحدهـا بـل «أنا» تَها أيضـاً. لقـد اندمجـت فـي مشـاعره الخاصـة نحـو ذاتـه مشـاعره تجاهها: المعاناة من أجلها، والشفقة على ضعفها، والخوف من إخلاصـها وولائها وثقتها العمياء به، وشعوره القاسي والسار بالواجب الذي ربطهما برباط جديـد... واختفـى هـدوء العاطفـة السـابقة، وتحولـت إلـى عاطفـة أشد قلقاً، وأثقل عبئاً، ولثقل عبئها تغلغلت إلى أعمق أعماق روحه.

لقد ساد رأي، في استخدامنا اليومي، خلال عصور طويلة، مفاده، أن الحـب أقـوى مـن التعلق وأن التعلق أضعـف مـن الحـب، وأن اختـلاف أحدهما عن الآخر بدرجة الشدة وقوة التوهج. لكنني لا أرى هذا الـرأي. فالمسألة ليست في القوة، ولا في «كمية» العاطفـة، بل فـي «نوعيـة» هـذه العاطفـة. فقـد يكـون التعلـق أقـوى مـن الحـب، غـير أن التعلـق مرتبـط بمركزيـة الأنـا، بل وبالأنانيـة: ولـهذا بـالذات يتغلغـل التعلـق إلـى أعمـاق الإنسـان النفسـية والروحيـة بدرجـة أقل، وبالتـالي فـهو لا يحـدث تبديـلاً كبيراً فيها، وقد يكون مصيره النسيان بعد فترة قصيرة.

يبـدو أن اختـلاف الحـب عـن التعلـق يكمـن هنـا، بـادىء ذي بـدء. فاللاأنانية وازدواجية التمركز هما الأساس العميق للحب، والحد الرئيس الذي يفصله التعلق. إنه أقرب إلى ازدواجية الأنا عند المحب، وبروز «أنا» آخر ينمو مع الأنا الأول، الذاتي، كالتوأم.

لهذا السبب يؤثر الحب في الإنسان تأثيراً أكبر بكثير من التعلق،

لأنه يملؤ جميع زوايا وأنحاء لا شعوره، ويغطي جميع جوانب روحه ونفسه الكامنة، الخفية. ولهذا يعمر الحب ويعيش في الإنسان طويلا، ويغيره بعمق.

في حالة الحب، ينفذ أنا الآخر، المحبوب، إلى إحساس المحب وشعوره، ويغدو ألم الآخر كبيراً مثل ألم الذات، كذلك فرحة الآخر تغدو فرحة الذات.

وينمو لدى المحب ما يمكن تسميته بـ «الأنانية الغيرية»، وهي عاطفة خاصة متميزة كلياً. وفيها تضعف وتتلاشى عيوب الأنانية والغيرية معاً (الارتقاء بأنا الذات على «أنا» الآخر، أو الارتقاء بـ«أنا» الغير على أنا الذات)، وتذوب في هذه السبيكة. أما إيجابياتهما (شدة الاهتمام بالذات، وشدة الاهتمام بالآخر) فتتكاثر وتعزز إحداها الأخرى. وينشأ تثمين (تقدير) عال للآخر تماماً كتقدير المرء لذاته، واعتبار مصالح الآخر، مثل مصالح الذات.

يمكن القول أن الحب هو تعلق مبني على سبيكة الغيرية والأنانية. كما يصح القول بأن الحب هو هوى أو تعلق، يقوم على السعي إلى تحقيق توازن «الأنا» و«أنا» الآخر، وتقدير عميق للآخر كتقدير الذات. في الحديث الذي دار بين أندريه بولكونسكي وناتاشا روستوفا يظهر بوضوح كيف يتولد فجأة من التعلق البسيط ميل وانجذاب عميق، هو الحب في حده الأدنى.

وإذا لم يكن هناك في نسيج العاطفة ذاته ميل إلى هذا التوازن بين «الأنا» و«أنا» الآخر، فإن هذه العاطفة ليسن حباً على الغالب، بل هي شيء آخر أقل: تعلق أو انجذاب أو ميل أو إعجاب، أو أنها عاطفة حب في طريقه إلى الانطفاء.

ذلك لأنه عندما يبدأ تنامي «الأنا» و«أنا» الآخر بالتناقص، يتناقص معه جوهر الحب ذاته، وليس مجرد شدته أو قوته، حيث تتحسر «نوعيته» إلى جانب «كميته»، وذلك لأن تقدير المحب للآخر، القوي،

كتقديره لذاته، ومعاناته اللاشعورية لكل خطوة من خطواته كمعاناته تجاه خطواته ذاتها هما النسيج الانفعالي للحب، إنهما نسيجه وجوهره.

ورأيي، أن مثل هذه المقاربة للحب هي أصح وأقوم من المقاربة السابقة، القديمة، العادية. فهي تساعد على رؤية التفرد العميق المتميز للحب، ولا تخلط بين الحب والعواطف القريبة منه، كما أن هذه المقاربة تسمح بفهم أفضل للإنسان وعواطفه.

3- الأنا الغيرية egoaltruism :

يؤكد علم الأخلاق، كما تؤكد الأخلاق اليومية السائدة، أن هناك محركان داخليان لدى كل إنسان هما الأنانية والغيرية. ولكن ينشأ عن هذين المحركين محرك ثالث، سبيك منهما، وهو الأنانية الغيرية- أي السعي والتطلع إلى تحقيق التوازن بين «الأنا» الذاتية و«أنا» الآخر.

ولكن، لماذا لا نرى هذا المحرك الثالث؟ ربما لعدم وجود كلمة واحدة، في جميع اللغات البشرية، تعبر عن هذا التوازن بين الأنا والأنا الآخر. ومثل الأطفال الصغار الذين لا يلاحظون الشيء الذي لا يعرفون اسمه، كذلك نحن الكبار، لا نلاحظ أن الشوق والتوق إلى التوازن يحركنا بقوة لا تقل عن الأنانية والغيرية. إننا نرى أنفسنا مثل شخصية «البرجوازي النبيل» عند الكاتب والمفكر الفرنسي (موليير)، في عصر النبلاء، الذي لم يكن يعرف ما يقوله نثراً، إذا لم يلقن مسبقاً.

على أي حال، فقد أدرك أجدادنا القدماء أن موقف الإنسان من الآخر، كموقفه من ذاته، هو مثل من المثل العليا الرئيسة للإنسانية. وقد تم تثبيت هذا المبدأ، منذ القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، في سجلات ووثائق الحضارات القديمة، في الهند والصين والشرق الأوسط واليونان (مثل القول «لا تسبب للآخرين ما لا تريد أن يسببه الآخرون لك») - هكذا كان يعلم الناس (كونفوشيوس) و(بوذا) و(سقراط)، وغيره من حكماء الإغريق، وبهذا المعنى وردت أقوال كثيرة في الكتب والديانات

السماوية الثلاث (مثل «أحب لأخيك ما تحب لنفسك»، و«كما تريدون أن يتصرف الآخرون معكم تصرفوا معهم» وغيره كثير).

ولكن يبدو أن الأنبياء والرسل والفلاسفة والحكماء القدماء ليسوا أول من قال بهذا المبدأ. فهذا المبدأ «أحبب للآخرين ما تحب لنفسك» هو مبدأ إنساني عام للعلاقات الشخصية والتعامل بين الناس. ويمكننا الافتراض أن هذا المبدأ قد نشأ قبل ذلك بآلاف السنين، في عصر المشاعات البدائية، حيث كانت تسود في علاقات القربى، النزعة الروحية، التي ننظر إليها بإعجاب، والتي لا تزال سائدة في قبائل أمريكا الجنوبية، وهي النزعة التي لا تزال تحافظ لدى هذه القبائل على النظام الأمومي[1]. على أي حال، فالتطلع إلى التوازن بين «الأنا» الذاتية وأنا الآخر يسود حياة القبائل الكثيرة التي لا تزال تعيش حياة بدائية.

و عندما ألغيت المساواة الاجتماعية من حياة المجتمعات والتجمعات البشرية آل هذا المبدأ إلى النسيان، ثم فيما بعد، أخذ الناس يتحدثون عن هذا المبدأ، ويتذكرونه، فقط من حيث هو مبدأ خارجي بالنسبة للإنسان، كمثل أعلى للعلاقات الإنسانية، كقاعدة ذهبية للأخلاق،. ولم يتحدث عنه أحد، من حيث هو محرك داخلي للنفسية الإنسانية، ودافع لعواطف الإنسان وسلوكه. ولهذا، لم يظهر مصطلح يسمي هذا المبدأ، ويعبر عنه في كلمة واحدة، في جميع لغات العالم.

ومهما كان الأمر، لا داع للاستغراب، فمصطلحاً «الأنانية» و«الغيرية» هما مصطلحان حديثان نسبياً، فقد ظهرا في فرنسا، حتى أن مصطلح «الغيرية –Altruism» نشأ في القرن التاسع عشر، على يد الفيلسوف الفرنسي (أوغست كونت) مؤسس علم الاجتماع الحديث. وفي هذه الفترة بالذات، بدأ البحث عن مصطلحات وتسميات جديدة لعاطفة التوازن. ففي روسيا، على سبيل المثال، اقترح الكاتب والمفكر الروسي (تشرنيشفسكي) مصطلح «الأنانية الرشيدة»، وفي عصرنا هذا تحدث

الفيلسوف الكبير (سيلي Sully J. 1842-192)، مؤسس نظرية الضغط النفسي، عن «الأنانية الغيرية altruistic egoism».

ويمكننا القول أن «الأنا الغيرية egoaltruism» هي تلك القاعدة المعيارية الإنسانية التي تميز السيكولوجية الإنسانية. أما الأنانية والغيرية، منفردتان، فلم يرتقيا إلى مستوى تلك القاعدة.

فالأنانية، والغيرية، وحيدتا الجانب، وكل منهما ذات بعد واحد، حيث أن كل منهما يتألف من مكون سيكولوجي واحد، تفضيل الذات أو تفضيل الآخر. أما **الأنا الغيرية** فهي نسيج أعقد بكثير، إنها نسيج مركب من سبيكة متعددة الأبعاد لمكونين سيكولوجيين. وهذا النسيج ينشأ وينمو، كما يبدو، انطلاقاً من النفسية الإنسانية أكثر منها من الجانب البيولوجي (علم الأحياء). في حين أن الأنانية والغيرية ترتكزان أكثر على الجانب البيولوجي، من الجانب السيكولوجي. إنهما تنموان من مستوى بيولوجي «حيواني»، من مستوى أدنى من مستويات الحياة. وربما تكون الأنا الغيرية قانوناً ومعياراً للمرحلة السيكولوجية من الحياة في حين أن الأنانية والغيرية هما قانون ومعيار للمرحلة البيولوجية منها.

4- الغيرية ذات البعد الواحد

منذ قرون عديدة يسود رأي مفاده أن الحب يكمن في الغيرية، وإنكار الذات. وقد قال الفيلسوف الألماني الكبير (هيغل) بهذا الصدد: «إن الماهية الحقيقية للحب تكمن في تخلي الإنسان عن وعيه لذاته، ونسيان ذاته في «الأنا» الآخر. وفي هذا النسيان والتخلي، يكتسب الإنسان ذاته للمرة الأولى»[2].

إن التخلي عن الذات، ومن ثم إيجاد الذات – هنا، من جديد، يتجلى المفهوم «الإزدواجي» للإنسان، والفكرة القائلة بأن لدى الإنسان محركين: الأنانية والغيرية. لكن «الغيرية» ذات بعد واحد، مثلها مثل الأنانية، والفرق بينهما هو فرق واحد، وهو أن الحيز المركزي من الاهتمام

لا يقع على الذات بل على إنسان آخر.إن الحب الغيري سرعان ما يتحول إلى حب معاد للنفس، على وجه التقريب، مثله في ذلك مثل الحب من جانب واحد. لأن قوام العواطف فيه متحول، وناقص ومقطوع، فلا يشعر المحب بالفرحة والمسرة الكافية من الهموم التي يواجهها، ولا يشبع الحاجات الأساسية لذاته، لـ«الأنا» الخاصة به، من الدعم والتأييد والملاطفة. وهذا يولد في نفسه تيارات غير مرئية من الشعور بالنقص، تؤثر سلباً على نفسه وروحه، وتسمم عاطفته.

ورداً على الرسائل التي انتقدتني لموقفي من الغيرية، لن أكرر ما قلته سابقا. نعم، صحيح، في ظروف الأزمات، تعد التضحية بالذات أسمى أشكال الإنسانية، وكل من قدم حياته خدمة للناس، وكل من ضحى بحياته في سبيل مجتمعه ووطنه وشعبه هم أفضل بني البشر على وجه الأرض. علاوة على ذلك، فإن نكران الذات، وحرمان الذات، في أي أزمة، سواء أكانت عائلية أم عسكرية، هو مثل أعلى للسلوك، حيث لا يمكن الخروج من الأزمة، واجتيازها بأقل عدد من الخسائر والضحايا إلا بحرمان الذات من شيء ما، وبالتالي، في النهاية المحافظة على الذات. إلا أن الغيرية هي السعي إلى منح الآخر، دون الحصول على شيء، هي التطلع إلى منح الغير وإعطاء الآخر فقط. وهذا المنح من الذات للآخرين يمكن أن يشكل لدى الإنسان في الظروف العادية، انطباعاً بإجحاف الذات، بالإجحاف الحقيقي، اللاشعوري، غير المدرك.

بهذه المناسبة ' زهرة اللوتس، التي تحدث عنها الحكيم الهندي (راما كريشنا) لا تعطي فقط، بل تأخذ وتعطي. صحيح، أنها تقدم نفسها للنحل، لكن النحل بالمقابل يغلفها بغبار الطلع ويعطيها الحياة وطول البقاء، وهي أغلى هدية على وجه الأرض. فنحن هنا، لسنا أمام الغيرية - أي المنح من جانب واحد- بل نحن أمام الأنا الغيرية: منح وحصول في الآن نفسه، تبادل متكافئ للخيرات...

ببساطة، يمكننا القول أن الأناني هو مستقبِل، متلقي للخير من

الغير، والغيري هو مانح فقط للخير، أما الأناني الغيري فهو متلقي ومانح في الوقت نفسه...

من الطريف هنا، الإشارة إلى أن اللغات الهندية – الأوروبية كانت تضم كلمة واحدة تعني «الأخذ» و«العطاء» معاً. ولم يتجزأ آنذاك مفهوم «الإعطاء من واحد لآخر» إلى قطبين متناقضين. فهذان القطبان – الأخذ والعطاء – كانا ملتحمين، مندمجين في اتحاد سيكولوجي. وكان يرى القدماء أن الإنسان عندما يعطي فهو يأخذ، وعندما يأخذ فهو يعطي.

لقد كانوا متجهين نحو التبادل المتكافىء للخيرات، وكانوا يعتقدون، بصورة ضبابية، أنك عندما تحصل على شيء جيد لنفسك من الآخر، فإنما تحصل بذلك على جزء من ذاته التي تتغلغل في ذاتك. وإذا لم تعط بالمقابل شيئاً مماثلاً من ذاتك فإنك ستجد نفسك في تبعية خطيرة للآخر، إنك تفقد جزءاً من حريتك ومصيرك وصحتك. ومثل هذه «الأنا الغيرية» كانت متغلغلة وسائدة في عادات القدماء وأخلاقهم، تاركة بصماتها على حياتهم الروحية ومعتقداتهم.

إن لدى الإنسان مجموعتين من الأوتار: أوتار «الأنا» – أوتار حفظ الذات، والاهتمام بالنفس، وأوتار الـ«هم» –أوتار حفظ الجنس البشري والاهتمام بالآخرين. وإذا ما تمحور الإنسان وركز اهتمامه على مجموعة واحدة من هذه الأوتار، فستنمو هذه المجموعة في النفس وتكبر وتتضخم على حساب المجموعة الأخرى التي ستؤول إلى الضعف والانحسار. إن اندماج هاتين المجموعتين من الأوتار وحده، يولد فينا الشعور بالـ «نحن» – أي توازن «الأنا» والـ«هم». وصوتا، الطبيعية، المعافاة. هما معاً يولدان النفسية الصحيحة، السليمة.

إن حاجات «الأنا» المركزية عند الإنسان هي حاجات مزدوجة، ثنائية، من حيث جوهرها وطبيعتها. فحاجاته البيولوجية، الحاجة إلى الطعام، والحاجة إلى الأمن والدفاع عن النفس، والحاجة إلى حفظ الجنس البشري- هي حاجات مركزية، وهي ضرورية لاستمرار حياته.

كما أن هذه الحاجات تشكل الركيزة الطبيعية للحياة. وهناك أيضاً حاجات «الأنا» النبيلة، السيكولوجية السامية، كالحاجة إلى تقدير الذات، والحاجة إلى العناية والرعاية والاهتمام.

إن هذه الحاجات، عند إشباعها، تعطي الإنسان تيارات من الانفعالات السارة، وتغدق عليه الصحة والطاقة الحيوية. وهي تشكل أساساً لحاجات الإنسان العليا كالحاجات النفسية والروحية. وكلما أشبعنا حاجاتنا المركزية (البيولوجية) كلما جلبنا لحاجاتنا العليا قدراً أكبر من الطاقة الحيوية.

هنا بالذات، يكمن الحاجز الفاصل بين الوجه المشرق الخيّر، والوجه المظلم الشرير لحاجات الأنا المركزية. فهذه الحاجات جيدة وخيرة بقدر مساعدتها لحاجات الإنسان السامية، لحاجات «الأنا الغيرية». وكلما قلت مساعدتها وخدمتها لهذه الحاجات السامية حاولت أكثر الاستئثار واحتلال مكانتها في نفس الإنسان وحملت الشر أكثر لنفسه وروحه. والعكس صحيح، كلما غذّت حاجات الأنا الغيرية أكثر، كانت خيّرة وطيبة أكثر للإنسان.

أما الإنسان الغيري altruist فإن محركات نفسه المحبة للحياة - محركات السرور واللذة من الذات - وهي محركات الشباب الرئيسة، هذه المحركات تكون مضطّهدة، مقموعة، خانعة. لهذا يبدو الغيري وكأنه يعيش وفق قوانين مرحلة عمرية أخرى، حيث تنتعش وتقوى عنده مظاهر الهرم والشيخوخة، بينما تضعف وتنطفىء حاجات «الأنا» الأساسية. وكان مثل هذا الإنسان الغيري يطفىء نطاقاً كاملاً من اهتمامه بنفسه وذاته، ويعيش فقط بنطاق واحد بدل النطاقين الاثنين للإنسان العادي، إنه يعيش ضمن نطاق الاهتمام بالآخرين دون نفسه.

وهكذا يبدو أن الغيرية تبتر نصف الشخصية الإنسانية تقريباً. وبعد أن تسود وتصبح معياراً للسلوك والمجتمع، تجعل كل ما لا يقوم على التضحية بالذات، وإنكار الذات مشبوهاً، شاذاً، وغير طبيعي.

إن إنكار الذات يحمل في طياته علامة اللامساواة، والاستغلال. وربما تكون نشأته تاريخية، حيث ينشأ كشعور عبودي، كعاطفة عبودية، شعور الناس المقموعين، المضطَّهدين. وعلاوة على ذلك، لهذا الشعور جذور تاريخية تعود إلى غريزة الأمومة في إنكار ذاتها، وغريزة حفظ النوع، وهي الغريزة الموجودة لدى جميع الثدييات.

عندما يبرز إنكار الذات محركاً رئيساً للإنسان والمجتمع فهو يشوههما ويسرقهما، متغذياً باللامساواة واللاعدالة القائمين في المجتمع. لقد نشأ إنكار الذات والغيرية في فترة حالة انعدام الشخصية عند الإنسان، حيث الإنسان في هذه الحالة ليس فرداً، ولا شخصية، بل مجرد وسيلة، أداة بيد الناس الآخرين. وإذا ما اعتبرت الغيرية منذ قديم الزمان قيمة خيرة وقيمة إيجابية فهذا لمجرد الخلط بينها وبين الأنا الغيرية.

فما هو وجه الشبه بينهما؟ في الأنا الغيرية، ثمة أيضاً شيء من التحديد للذات، وهو يشكل أساساً من أسسها. فالإنسان بطبيعته ذو بعدين، ومن أجل تحقيق الانسجام مع الآخرين، وهذا شيء أساسي بالنسبة له، يحتاج إلى التخلي الدائم عن شيء من ذاته و إعطائه للآخر. إن الشخص ذو الأنا الغيرية يحاول دائما كبح جماح نزواته، التي تحمل الشر له وللآخرين. إنه يتخلى عن كثير من الكماليات والعادات، التي تعيق إشباع حاجاته الأكثر إنسانية، ولا تسمح له بإنضاج قدرات نفسه الأكثر عمقاً.

ولكن في ما يتخلى عنه يبرز الفرق الحاسم بين الأنا الغيرية والغيرية. فالغيرية لا تنفي حاجاتنا البسيطة فحسب، بل وتنفي أيضاً حاجات مفتاحية أساسية، وبادئ ذي بدء، ميلنا الطبيعي إلى التنوع، وإلى تنمية جميع الجوانب الرئيسة لأجسامنا ونفوسنا. إنها مثل قوة الإنسان الضعيف، الذي يعجز عن إدارة الازدواجية العادية للطبيعة البشرية، حيث لا يستطيع وضع أوتار «الأنا» من ذاته في خدمة أوتار الـ«نحن».

أما الأنا الغيرية فلا تتخلى عن حاجات الإنسان المفتاحية، ولا تضيق بهذا على نفسه، بل توسعها وتعمقها. وهذه الحالة هي الحالة الطبيعية، الصحية، السليمة للنفس الإنسانية، إنها الحالة التي تقود الإنسان إلى الانسجام، والتوافق مع نفسه ومع الناس الآخرين.

إن مثل هذا الارتكاز الدائم إلى أفضل ما في النفس، وإلى تنوعها الطبيعي الحي، هو الذي يخلق التربة الخصبة للحب.

5- القدرة على الحب :

هل نحن جميعاً قادرون على الحب؟ يقول الفيلسوف الفرنسي (هلفيتيوس)، الذي عاش في القرن الثامن عشر: «العاطفة، مثلها مثل الشعاع الضوئي الذي يتألف من باقة كاملة من الأشعة. فأي عاطفة تتألف من مجموعة أو حزمة من العواطف الفرعية»[3]. إذن: ماهي العواطف التي يتكون منها قوس قزح الحب؟ يمكننا أن نرى في هذه العواطف، بصورة تقريبية، شرطية، تياران من العواطف. التيار الأول: ويتضمن المشاعر القيمية (مشاعر القيم): اللذة، الحزن، الإعجاب، الغيرة، التجميل الوردي للإنسان المحبوب، الجوع المضني للجسد والروح، الإلهام الحار الملتهب لجميع مشاعر الحب الأخرى، اللاشعور المتمرد، الطامح إلى السيطرة على الروح. وهذه العواطف هي بصورة رئيسة عواطف «الأنا المركزية»، إنها للذات - إنها رد فعل النفس على إشباع أو عدم إشباع رغبات المحب، ودرجة الإشباع أو عدم الإشباع.

أما التيار الآخر فيتألف من مشاعر «مركزية ازدواجية» - للذات وللآخر معاً - وتشمل: إحساساً غريباً، مادياً تقريباً باندماج المحب بالمحبوب؛ رؤية واضحة للنفس، التي تكاد تحس بما يجري في نفس الآخر؛ رغبة قلقة متلهفة لفعل كل شيء للمحبوب، والتضحية بالنفس من أجل حمايته... وبهذا التيار من العواطف تندمج عواطف التيار الأول، وتتلون بلونها، وتبدو وكأنها قد خرجت خارج إطار «الأنا»...

وجميع هذه الدفقات والتيارات من الانجذاب العاشق للاندماج مع الذات تجري بانسجام وبصورة غير ملحوظة، من الواحد إلى الآخر، كألوان قوس قزح. وهذه الصلة المتشابكة بين مشاعر الحب هي في غاية التعقيد، كما أن المتاهات الحية لتشابكاتها في غاية الغموض. وإذا ما أمعنا النظر فيها يمكننا رؤية تلك العواطف والمشاعر التي يتميز بها الحب عن العواطف والمشاعر القريبة.

مما لاشك فيه، أن الأناني محكوم عليه بالحرمان من الحب، وعدم القدرة على الحب طالما بقي أنانياً. فعواطفه كلها متجهة باتجاه «الأنا المركزية»، وحتى إذا ما شعر بعواطف «مركزية مزدوجة»، كتلك التي تحدثنا عنها آنفا،فهي أضعف بكثير من عواطف «الأنا المركزية»، كما أنها خاضعة لها.

كيف يحدث هذا؟ وما هي التيارات السيكولوجية التي تعيق الحب عند الأناني؟ إن الأناني، باللاشعور، يرى أنه أفضل من الآخرين، وأعلى منهم مرتبة. ومعاناة الأناني كلها تنحصر في الارتقاء بذاته، والانتقاص من الآخرين. وكل انفعال من انفعالاته يتكون من شعاع تزيين الذات والارتقاء بها وشعاع الحط من الآخر. ويمكننا القول، بشيء من المبالغة، إن الأنانية هي شيء مصغر جداً من جنون العظمة.

إن عدسة الأحاسيس عند الأناني مناقضة تماماً لعدسة الحب. فمحبة الآخر تعني المبالغة في تقدير الآخر بصدق، من أعماق النفس والروح؛ أما انفعالات الأناني ومشاعره فهي تبالغ في تقدير الذات، وقد تبالغ في تقدير الآخر، ولكن لفترة قصيرة، وبصورة غير ثابتة ولا مستقرة.

فهل هذا يعني أن الأناني قادر على الحب؟ وهل يمكنه أن يحب؟ لا، إن الأناني قادر على التعلق. والتعلق هو أيضاً إحساس بالآخر، من حيث هو قيمة عليا مبالغ فيها، لكنه لا يشمل سوى تياراً واحداً، وسطحياً من عواطفنا ومشاعرنا.

إن لدى كل إنسان تياران من العواطف القيمية: الأول هو الإحساس بالذات (الأنا - الصورة الذاتية)، وتقييم الإنسان لذاته، لـ«أنا» ه في الميزان الذاتي الداخلي؛ أما التيار الثاني فهو الإحساس بالناس الآخرين، وتقييمهم تقييماً لا شعورياً. إن الإحساس بالذات يشكل ما يشبه المصفاة (الفلتر) ترشح عبرها الأحاسيس بالآخرين، وهذا الإحساس بالذات هو الذي يشكل الأحاسيس الأخرى على طريقته: حيث المبالغة في تقدير الذات تحط من قدر الآخرين، والحط من تقدير الذات يرفع من قدر الآخرين؛ أما التقدير المتكافىء (الاحترام المتكافىء) فيرقى بالذات وبالآخر معاً...

ويغرس التعلق في نفس الأناني حزمة جديدة من الأحاسيس، حزمة لا شعورية ترقى بالآخر، لكن هذه الحزمة من الأحاسيس تدخل في صراع شديد مع حزمته الرئيسة، الأصلية، التي تقضي بالحط اللاشعوري من قدر الآخر. وهكذا يحدث صراع وصدام في أحاسيس الأناني بين عدستين. وفي هذا الصراع تنتصر غالباً عدسة الأنا، عدسة الذات الأصلية، وليست العدسة «الضيف».

ربما هنا بالذات، يكمن تفسير الحب الفاتن المأساوي في قصة الكاتب الروسي الكبير (بونين)[3] «الممرات المظلمة». فالحب في هذه المجموعة القصصية يقود الناس، لا محالة، إلى الهلاك، حيث أن عواطفهم كلها موجهة نحو الذات: إنهم منغلقون على أنفسهم، ولا يمكنهم الولوج إلى نفس الآخر أو السماح للآخر بأن يتغلغل إلى ذواتهم ونفوسهم. وهم - أي الأنانيون - يمكنهم لفترة قصيرة فقط، ملامسة حياة الآخرين النفسية، دون الدخول إليها ولو للحظة واحدة، حيث يسيطر عليهم على الفور،الانغلاق والانعزال الأصم: الأنا المغلقة، والوجود الذاتي بدون الـ«نحن»، ودون الاندماج في الآخر والحب - عندهم - يتقصف من الداخل أمام شواطىء «الأنا» المدرعة، ولا يمكنه الخروج منها، والدخول إلى شواطىء الآخر. تلك هي ممررات الحب «المظلمة» - التي لا تسمح

باندماج روحين، نفسين، وتولد الباب المسدود، اللا مخرج المأساوي: لحظات قصيرة من السعادة، يعقبها دفع الثمن غالياً، ومن ثم الموت.

وقد كتب يقول (بونين) في قصته القصيرة «الإخوة»: «لقد دخل الحب إلى روح الشاب، كما يدخل العقرب إلى وكره، دون بقايا». وكان يرى أن الحب هو ممر إلى الموت، وهنا بالذات يكمن جوهره الأبدي. ولهذا فهو كله حيرة قاتلة وارتباك بائس من هذه القوة الفاتنة، الساحرة، ومرارة وكرب ومضض أمام مفاتنه القاتلة.

6- معياراً موهبة الحب :

يدرك كثيرون، أن الحب بحاجة إلى قدرة، إلى موهبة من العواطف والأحاسيس، وهذه الموهبة لا تتوفر لدى الجميع، لدى كل فرد. ولكن، ما هي هذه الموهبة؟ وهل هي حكر على أفراد مختارين؟ أم أنها يمكن أن تكون بحوزة الجميع؟

إن القدرة على الحب هي قدرة عادية، للنفس الإنسانية العادية، ليست هي قدرة استثنائية، بل قدرة عادية وسطية، يمكن أن تكون بحوزة أي إنسان. فكل إنسان سليم، معافى، يولد معه ميل، اتجاه نحو هذه العاطفة الطبيعية العادية، ولكن مع تقدم الناس بالسن يتناقص فيما بينهم من يمكنه أن يحوز على هذه العاطفة، ويشعر بها. وكثير من الناس ينقصهم عمق النفس، الضروري من أجل توسيع هذه العاطفة العميقة، بعضهم نتيجة التربية، وبعضهم الآخر نتيجة شروط حياته، وفريق ثالث نتيجة أنانيته المفرطة.

على أي حال، إذا ما كان التعلق لدى هؤلاء قوياً يمكنه أن ينقلب إلى حب. غير أن هذا يتطلب إعادة تكوين الإنسان داخلياً، وتوليد أوتار الأنا الغيرية EGOALTRUISME التي هي وحدها قادرة على أن تشع الحب. وهذا يتطلب تحولاً في الذات، يتطلب تعديلاً جذرياً لكثير من الأفعال المنعكسة، والرغبات ونوابض العواطف العادية والإرادة... ومما

يؤسف له أن إحداث مثل هذه «الثورة الروحية» لا يقدر عليها إلا قلة قليلة من الناس.

إن عدم القدرة على الحب هو عيب نفسي، وليس عيباً بيولوجياً. وموهبة الحب هي موهبة الروح والنفس، لكنها تختلف من حيث المبدأ عن موهبة الفنان أو المخترع أو الكاتب أو العالم.

والأمر الرئيس والهام في موهبة الحب ليست القدرات الاستثنائية للحواس الخمس أو الذاكرة النادرة والمعقدة، والقدرات الأخرى التي تتكون منها الموهبة الفنية أو العلمية. إن الهام والرئيس في موهبة الحب هو الإخلاص النفسي، والصدق الروحي، وصدق العاطفة. و«محبة الإنسان» تعني القدرة على الحرص على الآخر كما يحرص المرء على نفسه، والمحافظة عليه كما يحافظ على ذاته. إنها موهبة متوفرة لدى كثيرين، ويمكن أن تكون بحوزة كل إنسان طبيعي.

إن هذه القدرة على الحرص على الآخرين كما الحرص على الذات، والمحافظة عليهم كما المحافظة على الذات هي قدرة الإنسان الروحية والنفسية الرئيسة، وهي المعيار المركزي، وهي أيضاً تشكل أساس الحب وليس الحب وحده. فالصداقة أيضاً ، على سبيل المثال، تقوم على الحرص على الآخر كما الحرص على الذات[4].

كذلك حب الوالدين لأبنائهم، وحب الطفل لوالديه، ومشاعر الحب نحو الأقارب، كلها تقوم على أساس الأنا الغيرية. فالروح الإنسانية ذاتها والنزعة الإنسانية، بل الأصح الجانب السيكولوجي منها، هو أيضاً إدراك وشعور بأن الفرحة والمسرة هي فرحة ومسرة للآخر كما هي فرحة ومسرة لك، وان الألم هو ألم للآخر كما هو ألم لك.

إن الأنا الغيرية هي جوهر المشاعر الإنسانية الرئيسة، إنها الركيزة الرئيسة للنزعة الإنسانية عامة. ولكن، هل يمكننا اعتبار مالا يرقى إلى المعيار معياراً؟ لا توجد هنا أي مفارقة، هنا لا أحد يضرب الإنسان من

الجانب، وعد القدرة على الحب هو الطرف الآخر من العصا التي يضرب بها الإنسان نفسه.

لقد كنا، سنوات طويلة، ننظر إلى أنفسنا بعيون حذرة، ونعيش في مناخ الاحتراس والحذر «ألا يزعجك». وقد أصبح مألوفاً، في مثل هذا المناخ، انهيار المعايير الحاد، وانخفاض القيم الجماهيري. فالمنخفضات والمنحدرات أخذت تبدو لنا سهولاً. إنه انهيار القيم، ونتيجة لهذا الانحدار الكارثي، عانى ويعاني الناس جميعاً في مختلف مجالات حياتهم: في الأسرة، في مكان العمل، في الحياة اليومية، في التربية، في العلاقات المدنية، وحتى في الفن والأدب أيضاً...

إن موهبة الحب تقاس بمعيار آخر، هو جلاء العواطف وسطوعها، بيد أن هذا المعيار ينمو ويزدهر بتأثير المعيار الأول. بدهي أن سطوع العواطف وتوهجها يتوقف، بادىء ذي بدء، على مزاج الإنسان، لكن العواطف ذاتها تتغير وتتحول إلى عواطف أخرى عندما تكون مشبعة بالأنا الغيرية. فقد تكون عواطف المحب والمحبوب ساطعة ومتوهجة، بصورة متماثلة أو متشابهة، لكن نسيجهما السيكولوجي متنوع ومتباين إلى حد كبير.

إن الأنا الغيرية تخلق في النفس الإنسانية منابع انفعالات جديدة، ومنها تنبع عواطف خاصة، هي تلك العواطف المركزية المزدوجة التي تحدثنا عنها. إن أكثر ما يتوقف على مزاج الإنسان temperament وخُلقه تلك الأحاسيس والمشاعر «القيمية»: كأفراح الحب وأحزانه وقوة عدستها المزدوجة، ووتيرتها وتوهجها. لكن الأنا الغيرية تزينها بصبغتها وتلونها بلونها، وتشبعها بنزعتها الروحية، لهذا تغدو هذه الأحاسيس والمشاعر أكثر عمقاً من الناحية النفسية، وأكثر إشباعاً من الناحية السيكولوجية.

ومما يؤسف له، أن هذه الأحاسيس والمشاعر لا يقدر عليها الأناني، ذو النزعة الأنانية المركزية، ولا يستطيع أن يحوز عليها.

7- نحو الآخر ، كما نحو الذات

المقصود من هذه العبارة «نحو الآخر كما نحو الذات»، كما يدركه كثيرون، ليس الموقف الانعكاسي المتماثل، كصورة الشخص في مرآة، بل المقصود أن يقف الإنسان من الآخر، كما يقف من نفسه - ويعني أن يحس الآخر، أن أفراحه هي أفراحك، وأن أحزانه يجب أن تكون أليمة، بالنسبة لك، كأحزانك. وهنا تظهر القدرة على الحرص على الآخرين، من حيث هي معيار مألوف ومعتمد للحياة الشخصية.

وقد بين علماء النفس، أن «الأنا»، كلما كانت أكثر إنسانية، وأكثر نموا لدى الفرد، كلما كان لديه احترام لا شعوري أكبر نحو ذاته ونحو الآخرين، وكلما تغلغل هذا الاحترام أكثر إلى عواطفه ومشاعره. مثل هؤلاء الأشخاص تكون أحاسيسهم أكثر نضارة، ومشاعرهم أكثر غزارة، واهتماماتهم أكثر ثراء، وتكثر لديهم حالات التحليق والإلهام. ونتيجة لهذا كله تكون علاقاتهم الشخصية أكثر غنى وأكثر عمقاً من حيث المضمون(5). ومثل هؤلاء الأشخاص يكونون غالباً أكثر انفتاحاً، ومن السهولة بمكان بالنسبة لهم أن يكونوا من ذوي «الأنا الغيرية»، أن يحبوا الخير للآخرين، كما يحبونه لأنفسهم.

إن عدم وعي الناس الأشخاص العصابيين لاحترام الذات يزيد من عصبيتهم، وبالنتيجة يزداد انغلاقهم الروحي وتقوقعهم على الذات. ويولد هذا التقوقع والانغلاق ثورات متكررة من الضجر والسخط والاستياء تتبدى على شكل دفعات من الوخزات عصبية وثورات المشاعر والأحاسيس المضنية.

وكلما كان احترام الذات لدى الإنسان أدنى واقل، كلما عانى أكثر من ذلك، وكلما جلب الآلام أكثر للآخرين. إنه، لا شعوريا، يقف من الناس الآخرين، تماماً كما يقف من نفسه، ويكاد ينعدم عنده حب الخير لهم، كما تقل ثقته بهم أو رغبته في مساعدتهم. إن جميع هذه الانطباعات المتكونة لديه - من ذاته، ومن الآخرين، ومن الحياة التي يعيشها - توجهها

وتديرها عدسة قاتمة سوداء مزدوجة. وهذه العدسة تضيف إلى كل انطباع من انطباعاته جزءاً من الظل، وتحذف منه جزءاً من النور، ولهذا فكل شيء في الحياة – هو نفسه والآخرون – يبدو لمثل هذا الشخص أسوأ مما هو في الواقع.

إن انعدام الثقة بالذات يقيد هؤلاء الأشخاص ويجعلهم سلبيين في علاقاتهم الشخصية. وهؤلاء (وبخاصة النساء منهم) كثيراً ما يتصرفون لا من خلال ذواتهم و«أنا» تهم، بل من خلال سلوك الآخرين، أي كمرآة عاكسة لسلوك الآخرين. فإذا كان قريب ما منهم، مهتماً بهم، طيباً، ودوداً معهم، يظهرون تجاهه الموقف نفسه. أما إذا كان متحفظاً، متكتماً، قلقاً مهموماً – نتيجة تعب أو إرهاق أو مشكلة ألمت به – فيعتبرون أنه اتخذ هذا الموقف خصيصاً منهم، ويتحصنون منه بحجاب حاجز.

ويرى علماء النفس أن موقف الإنسان اللاشعوري من الذات، وتقويم الإنسان الخفي، الداخلي، لذاته هو المحرك الانفعالي الرئيس لعواطفنا ومشاعرنا وسلوكاتنا. حيث توجهها وتديرها شبكة معقدة من النوابض والحوافز: حاجاتنا، اهتماماتنا، آراؤنا، وضعنا الحياتي. وتأثير جميع هذه النوابض والحوافز يتشابك ويتداخل مع تقديرنا لذاتنا، فيبدله، لكن هذا التأثير يتلون بلون تقديرنا الذاتي.

إن التقدير الذاتي العميق هو بمنزلة النواة الانفعالية للنفس الإنسانية، إنه جوهر النفس وصميمها. وجميع انفعالاتنا، وجميع انطباعاتنا عن الحياة تمر عبره، كالأشعة عبر العدسة، إنها العدسة الانفعالية الرئيسة، التي يرى الإنسان من خلالها، نفسه والآخرين.

من الطبيعي، بالنسبة للإنسان، أن يكون راضياً عن جوانبه القوية وغير راض عن نقاط ضعفه، ولهذا فالتقدير الذاتي النفسي هو دائماً سبيكة من الرضا وعدم الرضا عن الذات. إن الشعور بالنقص يسيء إلى حد كبير إلى التقدير الذاتي النفسي، ويضر بمشاعر الإنسان نحو الآخرين. ويمكننا القول، إن الإنسان الذي يقف من نفسه

موقفاً جيداً هو وحده القادر على الوقوف من الآخرين موقفاً جيداً، ولا يمكن للإنسان ان يقف من الآخرين موقفاً جيداً إلا إذا كان يقف من نفسه موقفاً جيداً.

لهذا، فإن الناس الذين تحركهم عدسة قاتمة مزدوجة، من المفيد لهم أن يقفوا من الآخرين، الأقربين موقفاً أفضل من موقفهم من أنفسهم، سواء في سلوكاتهم أو في عواطفهم. لكنهم لا يستطيعون تبديل موقفهم تبديلاً حقيقياً من المقربين، إلا إذا بدلوا عدساتهم، إلا إذا جعلوا من طبقاتها النيرة المضيئة الطبقة الرئيسة التي يروا الآخرين من خلالها. وهذا عمل عسير جداً، ومرهق للنفس والروح، لكنه هو الطريق الوحيدة للخلاص.

8- منطق الحب التقليدي والمحدث

كثيراً ما يستغرب المحبون، في الأوقات الملهبة العاصفة بالحب: بالأمس فقط، كنت أحبها حتى النهاية، لكنني اليوم أحبها أكثر، وغداً سأحبها أكثر... كيف يمكن أن نسكب في القِدر الواحد نفسه أكثر مما يتسع؟ المنطق السليم البسيط يقول: إن هذا غير ممكن..

إن الحب لا يخضع للمنطق التقليدي، بل يخضع لمنطق آخر. إنه منطق المفارقة، هذا المنطق الذي يتكون من مفاجآت غير متوقعة، ومن مسارات معاكسة تماماً.

كيف يمكن للمرء أن يحب محبوبه أكثر من الحد الأقصى؟ المفارقة هنا، بل السر هنا، أنه كلما أحب الإنسان أكثر، كلما تكونت لديه طاقة حب أكبر، أي كلما ارتفع الحد الأقصى لطاقة الحب عنده: فطاقة الحب عنده اليوم أكبر مما كانت عليه بالأمس، وغداً سيكون حدها الأقصى أعلى من اليوم.

غير أن هذا المنطق المتميز يوجه الحب السعيد وحده فقط، الحب الذي يوسع حده الأقصى ويرفعه باستمرار. وما أن يخمد الحب حتى

يبدأ بالتلاشي والزوال، فيتحول، تدريجياً، من حب سعيد إلى حب عادي، تقليدي، يومي، ويبدأ بالذبول، ثم يتحول تدرجياً إلى رماد...

وبعبارة أدق، يمكننا القول، بأن للحب ثلاث مراتب، ثلاث مراحل: مرحلة النمو والتطور، حيث يرتفع حده الأعلى، ثم مرحلة الثبات والاستقرار على حده الأقصى، والمرحلة الثالثة والأخيرة هي مرحلة الذبول التي تؤدي إلى انحسار الحب وزواله نهائيا.

أما طول كل مرحلة فقد يكون مختلفاً ومتنوعاً. وكلما استمر الحب في نموه - أي في مرحلة طفولته وشبابه - أكثر، كلما استمرت أطول مرحلته الثانية، أي مرحلة النضج، وكلما تأخر أكثر انحساره وهرمه ودخوله في مرحلة الذبول ومن ثم الزوال. وكلما انتهى شباب الحب بسرعة أكبر، كلما قصر عمره، وكلما أسرع هرمه وخموده... وهذا هو النابض الرئيس لحياة الحب المديدة أو القصيرة.

ويبدو أن الحب توجهه قوانين مختلفة في مختلف مراحله وأعماره: فالحب النامي السعيد توجهه قوانين المنطق المحدثة المتميزة غير التقليدية، أما الحب الخامد المنطفئ فتوجهه قوانين المنطق التقليدية العادية، أما الحب الثابت المستقر فتوجهه مجموعة خليطة من هذه القوانين وتلك، مع تزايد في القوانين الأرضية وتناقص في القوانين المحلقة.

في هذه الأعمار، تؤثر أنواع الحب المختلفة ببعضها بصورة مختلفة: كالحب الزوجي، والحب بين الأقارب، والحب بين الأصدقاء. وحديثنا هنا، بالتحديد عن الحب وليس التعلق. فالتعلق، كما يبدو يتنافس دائماً مع العواطف الأخرى، فيحد منها أو تحد منه.

ومن المعروف، أنه عندما يولد طفل في أسرة حديثة العهد، لدى زوجين حديثي العهد بالزواج، فإن ميل أحدهما نحو الآخر يضعف غالباً، ويتحكم به غالباً المنطق الرياضي: فكل منهما يمنح عاطفته الآن لشخصين وليس لشخص واحد، ولهذا فكل منهما يحصل على «نصف» العاطفة السابقة.

ولكن، قد لا يكون هذا حباً؟ يؤكد الأزواج السعداء بصوت واحد إن حب الأطفال لم يضعف حبنا بل زاد من قوته. لقد رأى أحدنا الآخر من جانب جديد- رآه مني حيث هو أب أو أم، واكتشف أحدنا في الآخر فضائل جديدة، زادت من عمق تعلقنا وحبنا.

ثمة قانون سيكولوجي يقول، إن الحب الواحد يثري الحب الآخر ولا يفقره، وأن أنواع الحب المختلفة ليست متنافسة بل متحالفة، وإن طاقاتها قريبة الواحدة من الأخرى، وكل نوع من الحب يعزز ويدعم النوع الآخر من الحب بشحنته.

وعلى أي حال، فالحب في بدايته، مثل التعلق، يضعف المشاعر الأخرى ويسيطر على قطاعات أخرى من النفس. ومثله مثل النهر الفائض ربيعاً، حيث يخرج من شواطئه بفيضانه وغزارته، ويأخذ كثيراً من الطاقة من المشاعر والعواطف الأخرى. وعندما ينتهي الفيضان، يبدأ الحب بإعطاء العواطف الأخرى تلك الطاقة التي أخذها منها، بل وزيادة عليها. ويبدو وكأن الحب يضفي على هذه العواطف لمساته وآثاره، ولهذا يصبح ترددها أعمق وأغزر.

ومما يؤسف له أن هذا لا يحدث دائماً، ولا غالباً، وذلك ليس لأن احتياطي العواطف له حدوده ونهايته. بل على الأصح، لأن مثل هذا الحد موجود لدى العواطف المركزية، وهذا ما يميزها عن الحب. ونكرر، هنا، أن الحب، مثله مثل النهر، يمكنه توسيع ضفافه، رغم أن هذا لا يحدث إلا في حالات نادرة. لكن سبب ذلك ليس قوانين الحب، بل قوانين الحياة المعادية لها، والتي لا تسمح لها بالتفتح، ولا بتزيين الحياة بالحب.

9- موسيقى الكمان وموسيقى البلالايكا[6] :

كتب يقول (أندريه موروا) الروائي الفرنسي المعاصر: «إن مصدر الحب هو فينا نحن، على الأغلب، أكثر مما هو في الإنسان الذي نحبه (المحبوب)»، وقد أصبحت هذه الفكرة، بعد المفكر الفرنسي (ستاندال

Stendhal، 1783–1842) فكرة أساسية[7]. وقد كان هذا المصدر الداخلي للحب، بالنسبة لستاندال، هو المخيلة الإنسانية التي تزين الإنسان بمزايا لا يمكن تحقيقها. ويرى ستاندال، أن الخيال، أي ما ندعوه نحن هنا باسم العدسة المزدوجة، هو الذي يولد الحب. أي أنه يمكن لـ«رومانسيي العواطف» أن يحبون، أي أولئك الذين لديهم القدرة الرومانسية على التزيين والزخرفة والتخيل، في حين أن «واقعيي العواطف» لا يقدرون على الحب. فالقدرة على الحب تستخرج من جانب هام من النفس ولكن ليس من جانبها الرئيس.

وفي أواسط القرن العشرين، خطا الفيلسوف الأمريكي الكبير (إيريك فروم) خطوة كبيرة إلى الأمام. ففي كتابه «فن الحب» طرح نظرية جديدة وعميقة عن الحب. يقول إريك فروم في كتابه المذكور: «الحب، بصورة رئيسة، هو منح وعطاء ووهب، وليس أخذ أو حصول أو استلام»، ويقول أيضاً: «إن العطاء والمنح هو أسمى مظاهر القوة... أنا أشعر بنفسي عندما أعطي وفيراً، منفقاً، حياً، سعيداً. فالعطاء يمنح للنفس من السرور أكثر بكثير من الأخذ والحصول»[8].

يبدو أن فروم محق في قوله، إلى حد كبير. فالذي يحصل ويأخذ هو الإنسان المستهلك، أما الذي يعطي فهو المبدع؛ زد على ذلك أنه لا يعطي مجرد عطاء، بل يعطي بسخاء، بسرور، وفي هذه الحالة وحدها، يعد العطاء إبداعا. أما العطاء، دون رغبة، دون سرور فهو عطاء قسري، إنه مجرد أداء الواجب، والطاعة. إن العطاء السار هو إبداع روحي، من أعماق النفس، ولهذا فهو سار. وهنا، كما يبدو، يكمن القانون السيكولوجي لأي إبداع، وهو الذي يميز الإبداع عن غيره.

إن المبدع، كما يبدو، يختلف اختلافاً جذرياً عن المالك. فحاجة المالك الرئيسة هي الأنا المركزية، فهو بحاجة إلى السيطرة، وحده، على جميع ممتلكاته. أما حاجة المبدع الرئيسة فهي مناقضة تماماً: إن ما يهمه هو أن يعترف أكبر عدد ممكن من الناس بفكرته، بكتابه، بآلته التي

اخترعها، بحيث تتحول إلى واقع وتدخل حياتهم، وتصبح بحوزتهم جميعاً وجزءاً من ملكيتهم، وليس ملكيته وحده. إن مهمة المالك هي الأخذ والتلقي والحصول، أما مهمة المبدع فهي المنح والعطاء.أما من حيث المثل الأعلى والطموح، فالملك يود لو أصبحت ملكيات الآخرين ملكية شخصية له، أما المبدع فبوده لو أصبحت ملكيته ملكية عامة للجميع.

وعلى أي حال، فثمة نظرة أحادية الجانب في أقوال فروم، وذلك في اعتباره الأخذ أدنى من المنح والعطاء، بصورة قطعية مطلقة، حيث ينسلخ الانسجام الطبيعي بينهما. وسعي الإنسان المزدوج والموحد لـ«الإبداع» و«الاستهلاك» ينشطر إلى نصفين.

هذا في حين أن جدلية الانسجام الحياتي وتعقيداته كلها تكمن في توازن الأخذ والعطاء. والطبيعة البشرية كلها قائمة على هذه النزهة اللاشعورية إلى التوازن، حتى لو كان هذا التوازن قريباً أو متذبذباً. وهنا كما يبدو، يبرز أثر قانون التيارات المعاكسة، الذي يوجه كل عمليات التجدد، بدءاً بالتجدد البيولوجي البسيط، وانتهاء بالتجدد النفسي والروحي المعقد.

أين يكمن محور ارتكاز فلسفة العواطف عند فروم؟

الحب، بالنسبة لفروم، ليس مجرد عاطفة، بل هو بادىء ذي بدء، القدرة على الحب، أي على منح الآخر قوة من روحك ومن نفسك. «الحب هو الاهتمام النشيط بحياة من نحبه»، إنه حالة روحية خاصة، «حالة حب لإنسان وحب للحياة» - «إذا كنت أحب إنساناً، فهذا يعني أنني أحب الناس، أحب العالم، أحب الحياة». إن القدرة على الحب هي سمة عميقة للنفس النشيطة والطيبة، وجزء من حبها الشامل للعالم والحياة. إنها ليست القمر الذي يعكس ضوء غيره، بل هي الشمس التي تضيء بنفسها ولغيرها.

ويقول فروم: لكن الناس لا يفهمون هذه الحقيقة، فهم يرون أن الحب «يستثار بموضوع الحب، وليس بالقدرة على الحب»[9]. وكأنهم

يستخرجون مصدر الحب من ذاتهم ويدمجونه في ذات الآخر، إنهم يبحثون عن «الموضوع» اللازم لهم، ولا ينمّون في ذاتهم القدرة على الحب. إنهم يتصرفون مثل إنسان يريد تعلم الرسم، لكنه لا يتعلم، بل ينتظر المنظر الطبيعي المناسب ليرسمه...

يبدو أن فروم على حق: فالقدرة على الحب تأتي من حالة النفس الطيبة، ومن البنية النشيطة للطباع، وهو ما عنوه بـ«الأنا الغيرية» فإذا لم يكن هذا موجوداً عند الإنسان، فلا يمكن لأي «موضوع» أن يوقظ الحب في الإنسان. وآلة «البالالايكا» الموسيقية الشعبية ليست معدة للموسيقى الكلاسيكية العميقة، وإذا ما ظهرت إلى جانبها آلة الكمان، فلا يمكنها أن تصمد في المنافسة.

إن النفس العميقة وحدها، وفي الحب السعيد وحده، هي القادرة على توليد العاطفة العارمة المحيطية، التي ندعوها بعاطفة الاندماج بإنسان آخر، عاطفة النفوذ إلى عالم غريب، يبدو فيه كل شيء أرضي متحولاً، متغيراً، مضيئاً، مصبوغاً بلون سماوي محلق.

10- العاطفة الشمولية العارمة :

في هذه التألقات من الحب السعيد، ربما يتم الكشف عن الجوهر الخفي المكنون للحب، وعن دوره الإنساني العميق الذي بدأ يتجلى أخيراً.

الحب هو عاطفة أرضية، لكنه عاطفة محلقة في الوقت نفسه، إنها العاطفة الأكثر كونية وشمولية من العواطف الأرضية. وهي تمنح الإنسان الإحساس بانعدام الوزن، وبعدم الخضوع للقوانين الأرضية، ولقيود الجاذبية الأرضية. قوة الحب العجيبة هذه، يشعر بها بصورة مدهشة (روبرت جوردان) و(ماريا)، بطلا رواية أرنست همنغواي «لمن تقرع الأجراس». فحبهما المأساوي يبدأ على حافة الهلاك والموت، حيث كانا يحاربان القوات الفاشية في إسبانيا. وفي إحدى ذروات حبهما يشعران بإحساس غريب مذهل: «لقد توقف الزمن، وهما موجودان

كلاهما في الزمن الثابت، وشعرا وكان الأرض قد اهتزت من تحتهما وأخذت تعوم».

الزمن توقف، والأرض أخذت تهتز وتعوم، كل شيء هنا على النقيض، ومثل هذه المفارقة الازدواجية للأحاسيس لا تحصل على الغالب، إلا في حالة الحب القوي الشديد. إن هذه العاطفة الازدواجية هي بمنزلة صدى لـ«انقلاب القيم» الغريب، عندما يجعل الحب الناس والعالم فجأة، متناسبين متكافئين، من حيث المساحة. إنهما يشعران، كلاهما، بهذه العاطفة في زمن ثابت متوقف، وأنهما، الإثنان، ليسا سوى جزء من كل مما هو موجود في هذا الزمن المتوقف، إن هذا، كما يبدو، هو اختراق غريب في عاطفة «الإنسان» عامة، من حيث المستوى العالمي، إنه خروج للحظات، لثوان، إنه انطلاق إلى الأحاسيس والمشاعر العالمية، الكونية، الفضائية....

هذا الحب يقدم لبطلي الرواية ميلاً، وتشوقاً، وتطلعاً شديداً إلى الاندماج، أحدهما بالآخر، إلى التطابق الكامل، أحدهما مع الآخر. وماريا - هذه الفتاة الريفية البسيطة - تحس بمشاعر غريبة، وتخاطب روبرت قائلة: «هل تحس؟ - إن قلبي هو قلبك.. أنا هو أنت، وأنت هو أنا.. أوليس صحيحاً حقاً، إننا، أنا وأنت، كائن واحد؟».

وهذه أيضاً إشراقة أخرى، من أقوى إشراقات حبهما: «أنا- هو أنت»، «أنا في ذاتك وأنت في ذاتي»- هذه العاطفة «الإثنينية» ظهرت، كما يبدو، كصدى للاندماج الروحي، الذي منح الحب لهما. إنها عاطفة - وهم، عاطفة - خيال، لا يمكنها أن تتحقق أبدا، لكنها ترجع إلى خداع البصر، الذي يحتوي على جزء من هذه الإشراقات.

ما هذه العواطف الغامضة «الفلسفية» - عاطفة اندماج الواحد في الآخر، عاطفة الاندماج بالزمان والمكان؟ ربما يكون همنغواي قد عثر على نوع جديد من عواطف الحب التي لم نلاحظها ولم نعرفها حتى الآن، عواطف الحب الأصيلة الأولى، الكامنة، التي يمكننا الآن أن نفكر في

معناها ونخمن مغزاها. على أي حال، فقد شعر آخرون بمثل هذه العواطف من قبل. ففي القرن التاسع عشر، أحب (جوكوفسكي) بطل رواية (بوشكين) «إبنة القائد» (ماشا بروتاسوفا) حباً ميئوساً منه، وقد كتب يخاطبها:

بك أشعر بذاتي...

وفيك استمتع بالطبيعة

ربما تكون هذه العاطفة هي عاطفة شمولية، عاطفة الاندماج مع الإنسان، أو مع العالم، ربما تكون هي الإحساس بالذات كذرة من عاطفة كونية شمولية، سواء في الزمان أو في المكان، عاطفة عمق محيطي مجهول، بدأنا في النظر إليها حديثاً...

قال الشاعر والكاتب المسرحي البلجيكي العظيم (ميترلينك 1862M.Maeterlink–1923)، مؤلف كتاب «الطائر الأزرق L'oiseeau bleu »، قال في أحد مؤلفاته: «ربما لا زلنا حتى الآن لا نعرف ماذا تعبر عنه كلمة الحب... أن تحب شخصاً لا يعني أن تحن إليه، وأن تشفق عليه فحسب، ولا أن تضحي بنفسك من أجل سعادته، إن الحب أعمق بألف مرة مما تعبر الكلمات الإنسانية الأقوى والأنعم والأكثر طموحاً. ويبدو لنا، في بعض الأوقات، أن الحب، هو تذكير سريع، لكنه عميق، يخترقنا في أعماقنا، ويذكرنا بالوحدة العظيمة الأولى»[10].

11- الحب وما فوق الشعور

إن ما يجذب الرجل إلى المرأة، وما يقرب بينهما وما يوحدهما، هو أنهما رجل وامرأة، لكن هذا الواقع، هو بحد ذاته، يفصل أحدهما عن الآخر، ويضع الحواجز بينهما. لا يمكن للرجل أن يفهم المرأة فهما كاملاً، كذلك المرأة، لا يمكنها أن تفهم الرجل بصورة كاملة. وهذه الحواجز تكمن، كما يبدو، في طبيعتهما العميقة ذاتها. فلدى كل منهما بنية مختلفة لأدق المؤثرات النفسية: فالمؤثرات الانفعالية تعمل وتتنشط لدى المرأة،

بصورة أقوى من المؤثرات العقلية، أما لدى الرجل، فالمؤثرات العقلية أقوى من المؤثرات الانفعالية.

لهذا، فإن عدسات الإدراك لديهما مختلفة جداً، وهما يدركان الشيء نفسه على نحو مختلف: فالمرأة تدرك الشيء برجحان كفة الإدراك الانفعالية على كفة الإدراك العقلية، والرجل يدرك الشيء، مرجحاً كفة الإدراك العقلية على الكفة الانفعالية. وكل شيء في الحياة يريانه في الآن نفسه، بصورة متماثلة، وبصورة مختلفة، وفي ضوء متشابه، وفي ضوء مختلف، إما من حيث تباين المعاني أو من حيث المحاور الرئيسة. وهذه الرؤية المختلفة تولد لديهما أرتالاً متكررة من عدم الفهم.

إن الحب وحده - وتحديداً في لحظات تحليقه، وفي ذروته، يرقى بالرجل والمرأة فوق الحواجز الفاصلة بينهما، ويوحدهما، ويدمجهما حتى النهاية. وكأن الحب يكسبهما أعين جديدة، أعين الإضاءة، والإشراق، أعين عثور أحدهما على الآخر، أعين التلاقي، ويرقى بجهازي الإدراك عندهما إلى ما فوق حدودهما القصوى، فيشفي عيوب الطبيعة، كما يقول أفلاطون.

في الحب القوي، يتبادل الرجل والمرأة فيما بينهما الجوانب القوية من إدراكهما: النزعة الانفعالية القوية والنزعة التحليلية. وكأنه تتسكب فيهما أفضليات إدراك الرجل والمرأة، وتتخفض لديهما نقاط الضعف المتعارضة، نقص النزعة التحليلية عند المرأة، ونقص النزعة الانفعالية عند الرجل. إن الحب يرفع الناس، ويرقى بهم إلى ما فوق سقوفهم الطبيعية، ويضعهم - ولو لفترة محدودة - فوق الحدود التي لا يمكن تجاوزها.

في الثقافة الصينية القديمة، يطلق اسم (يان) على طاقة الرجل، واسم (إين) على طاقة المرأة. ويمكننا الافتراض أن (إين) تحوي شحنات انفعالية أكثر نسبيا من الشحنات العقلية، وأن (يان)، على العكس، تحوي شحنات عقلية أكثر من الشحنات الانفعالية. وقد تكون طاقة الانفعالات

ذاتها مختلفة فيهما، ففي (يان) يكثر ضغط الإعصار والحركة، وتكون أوتار الصراع أقوى، أما في (إين) فتغلب أوتار النعومة والرقة، والهدوء والسكينة.

وبتبادلهما لتيارات الحب، يشحن الرجل والمرأة، أحدهما الآخر، بطاقة غريبة، فيعوضان أحادية الجانب في طاقة كل منهما بدفقات من طاقة الآخر، ويكونان، ولو إلى حين، ما يشبه الطاقة الجنسية الإثنينية، طاقة سبيكة من (يان) و(إين). وهذه السبيكة تحرر إدراكهما من «الجزئية الجنسية»، وتولد إحساساً جديداً فوق الجنس الواحد، إحساس «الإنسان الكامل الموحد»...

يتمتع هذا الإحساس، كما يبدو، بحدس خاص، حدس تحت شعوري غير عادي، إنه حدس قوي، وكأنه حدس فوق الشعوري[11]. إن ما فوق الشعور هو، على الأغلب، ثمرة الاتحاد العميق بين الشعور وما تحت الشعور، إنه سبيكة اندماجهما، إنه وليد عمل مزدوج. إنه ثمرة الاتحاد الجنسي الإثنيني لنصفي الكرتين الدماغيتين: الصوري والمنطقي، إنه ثمرة طاقتهما المشتركة، ووليد نفوذهما المزدوج إلى جوهر الأشياء، وبالتالي، فهو بقوته أكبر بأربع مرات من الإحساس العادي.

إن الحب القوي كأنه يجعل «الأنا» معادلا لـ«أنت»: «أنا هو أنت، أنت هو أنا، نحو الآخر كما نحو الذات»-وهذا كله ليس مجرد استعارة أو مجاز، بل ومفارقة تحدث جزئياً في الواقع. إن الحب السعيد يحطم أعتى الحواجز بين الناس، إنه يجسد عملياً في الواقع – ولو بشكل عابر – أكثر الأحلام بعداً عن الواقع إن الحب يخلق في الواقع الـ«نحن» الجنسية الاثنينية، السيكولوجية، ذات الطاقة النفسية، وليس الجسدية بالطبع. وفي هذا الاندماج لـ«أناتين» في «نحن» الموحدة تكمن القوة الشمولية الكونية الخفية للحب.

يتشكل لدى الناس السعداء، الذين يشعرون بسعادة الحب الكبرى «أنا مزدوجة» – كما هو الأمر لدى (ليفين وكاتيا) عند تولستوي، ولدى

(روبرت جوردان وماريا) عند همنغواي. ومثل هذه الازدواجية للذات بـ«أنا» الآخر، هي على الغالب، السراب الأكثر واقعية، الذي يتجسد في الحب السعيد.

لقد بدأ يتضح في السنوات الخيرة، أن ما فوق الشعور هو أعلى قوة إبداعية عند الناس، وهو أداة الاكتشاف والإبداع الرئيسة فينا، التي تخترق المجهول سعياً إلى طبقات جديدة من المعرفة.

إن القدرة على الحب هي أيضاً، كما يبدو، قوة إنسانية عليا: إنها قدرة الروح الإبداعية بالذات، التي تكمن في حدود الإنسان العليا، وفي ذروة إمكاناته. أن يحب المرء، يعني أن يشعر بالآخر كقيمة عالمية كونية، كتجسيد للنوع البشري، وأن يمنحه السعادة، وأن يعامله بمنتهى وبذروة المعاملة الإنسانية، باهتمام اكبر، وعناية اكبر، وطيبة أكبر.

وهنا، تبرز عدسة الحب الازدواجية، بجانبها المفارق والمتناقض. فعندما ندرك بأحاسيسنا المحبوب وكأنه مركز العالم، فإن هذا، من وجهة نظر واقعية، مجرد خداع بصر. وكما قال الكاتب الايرلندي الساخر (برناردشو): «الحب هو مبالغة كبيرة سمجة للاختلاف بين إنسان واحد وبين جميع الأشخاص الآخرين»(12).

ولكن، عندما نشعر بالمحبوب كبعد كوني، ربما يكون لمثل هذا الشعور معنى «فوق واقعي»؟ ربما يكون هذا بمثابة مرصد انفعالي، عاطفي، وهو في البعد الطبيعي يظهر ما نراه عادة، أصالة وتفرد كل إنسان، وأهمية حياته الشخصية، التي لا تقدر بثمن بالنسبة له؟

ربما يكون هذا مثل مرآة الإنسان الذي لا يعوض، مثل صدى حياته التي لا تتكرر. على أي حال، فهذا ليس صداه وحده، بل صدى أصالتنا التي لا تتكرر. وعندما نرى في الشخص المحبوب مركز العالم، فإننا نضع فيه بصورة لا شعورية، شعورنا بالتفرد.

إن الشعور بالمحبوب كبعد كوني عالمي هو أيضاً صدى كبير

لوشوشة هادئة، لإحساس لا شعوري بحياة المحب، باعتبارها قيمة عليا، لقيمة مطلقة. إنه بمثابة صدى سيكولوجي للحياة، للتمتع البيولوجي بالحياة، وهو الأساس الأول لكل حياة.

إن المحبوب في عيون المحب، يصبح بلا نهاية، بلا قرار، يصبح بعداً نهائياً، والإحساس به كجزيء، لقيمة عليا، وهي القيمة التي تبقى الأعلى والأسمى في أي ميزان. كما قد يكون الحب هو المرآة الوحيدة التي تظهر فيها، ولو بشكل غريب، القيمة الحقيقية للحياة الإنسانية.

على أي حال، فإن هذا ينسحب أيضاً على أنواع الحب الأخرى، حب الآباء للأبناء، وحب الأبناء للوالدين. وقد تحوي جميع هذه العواطف في طياتها اختراقاً إلى رؤى عميقة جداً، إلى الينابيع الأولى للحياة، وإلى مغزاها الجذري. وربما يكون هذا المعنى خافياً عن إحساسنا ومشاعرنا العادية، ولا يتراءى إلا في لحظات الحب...

12- ماهيتا الحب ودوره الاجتماعي :

هناك في أي حب، على الأغلب، مشاعر واضحة عادية، مألوفة، وأحاسيس غامضة، مبهمة، خفية. فالحب ازدواجي دائماً، وفي كل شيء، ولديه دوماً إخفاقات وتحليقات، وحتى في حياته اليومية العادية، ثمة قمم محلقة، وهوى سفلية سحيقة.

هل يمكن الجمع بين العقل والحب؟ يبدو أنه طالما بقيت الطبيعة البشرية كما هي، فستبقى مشاعرنا مزدوجة: عقلانية ومضادة للعقل. وكلما كانت العواطف أضعف، كانت أكثر خضوعاً للعقل، وكلما كانت أقوى كانت أبعد عن الخضوع له وأكثر استقلالية عنه. وهذا كما يبدو، قانون النفسية الإنسانية.

إن الحب والعقل حليفان متحدان، طالما بقي الحب حليفاً، متحداً مع العالم. وعندما يطعن الحب، عند ذلك يدب شرخ فيه، ويحدث شرخ بين الحب والعقل. ويبدو أنه، وحتى في المستقبل المثل، سيبقى الحب

والعقل على خلاف إذا ما لحقت الخسارة بالحب، أو ألحق به الضرر، وشعر بالخوف على وجوده.

إن المشاعر الإنسانية هي ميكانيزمات (آليات) أكثر قدماً من العقل نفسه، وهي تعود بجذورها إلى علم الأحياء (البيولوجيا) ولكن، وبالمقارنة مع العقل، فإن النوابض التي تحركها هي نوابض عاصفة، متفجرة، خلافاً لنوابض العقل الهادئة، وهي تكمن في الجوانب المضيئة والمظلمة من نفوسنا.

أما ما يتعلق بالجرائم التي قد ترتكب باسم الحب، فقد كتب يقول، بهذا الخصوص، القانوني الفرنسي الشهير (لويس بروال)، الباحث في علم النفس الجنائي في القرن التاسع عشر: «إن الحب الذي يلعب هذا الدور الهام في الحياة والأدب، يحتل المركز الأول أيضاً في إحصائيات الجرائم وحوادث الانتحار... فقد تحولت سهام كيوبيد (سهام إله الحب آمور) الأسطورية إلى خناجر ومسدسات حقيقية تخترق القلوب بالمعنى الحرفي للكلمة»[13].

وفي عصرنا هذا، يدفع الحب المطعون الناس المحبين إلى ارتكاب الجرائم، وإن كان بنسبة أقل. وحسب معطيات وزارة الداخلية الروسية، تشكل الجرائم التي تتم على خلفية أسرية ربع جميع الجرائم المرتكبة. في حين أن نسبة حوادث القتل والجرائم التي ترجع إلى أسباب عائلية في الولايات المتحدة الأمريكية تصل إلى 40٪ من جميع الجرائم المرتكبة[14].

وعلى أي حال، فإن ما يدفع إلى ارتكاب الجرائم، على الأغلب، ليس الحب المطعون، بل عواطف ومشاعر أكثر يأساً وانحطاطاً. وإذا لم تكن الجريمة دفاعاً عن النفس، ولا تفجر اليأس، ولا الانتقام، فمن الواجب في المجرم أن يموت الإنسان، ومعه تموت القدرة على الحب. إن الإنسان المحب، على العكس تماماً، في غالبية الأحوال، إنه يحمي الناس من الجريمة. ولكن يحدث أحياناً، أن الحب وما أن يولد في نفس إنسان

ما، وما أن يبدأ بالنمو ويتحول من تعلق إلى حب، وقبل أن يتمكن الحب من إعادة تنظيم الإنسان المحب، قد يخضعه تفجر اليأس لأزمة حادة، ويجعله أسير النوابض والدوافع السوداء الوحشية في نفسه. والشيء نفسه، يمكن أن يحدث على الأغلب، مع إنسان ذي مبادئ ضعيفة. إن أزمة اليأس - وهي هنا سكرة موت الحب - قد تحطم في الإنسان المحب حواجز العقل غير الصامدة، وتخضعه لثوران المشاعر المظلمة والشريرة.

إن الحب يرتقي بالإنسان إلى الأعلى، وهنا يكمن جوهره المضيء، أما الحب المطعون، فيمكنه أن يقود الإنسان إلى الأسفل. ويبدو أنه كثيراً ما يتشابك ويتداخل، في الحب المطعون، السامي والمنحدر، الذروة والقاع، المضيء والدامس، وما فوق الإنسان وما دونه.

الحب ليس فقط تحليقاً إلى تلك الحرية التي يشعر بها الإنسان، في وقت من الأوقات، إلى حرية السماء السابعة، إلى حرية النشوة، إلى التحرر من الابتذالية الأرضية؛ الحب أيضاً هو عبودية، إنه أسر من قبل الإنسان المحبوب، إنه تبعية شديدة، تبعية كل خطوة في حياتك لكل خطوة في حياته. إنه عبودية في الحرية، وحرية في العبودية، إنه سبيكة لقطبين متنافرين لا يجتمعان.

وكما في بلازما الدم، حيث يختلط كل شيء وينفصل عن مداره، في حالة الأشياء الرابعة، كذلك في الحب (بلازما العواطف)، تختلط وتندمج أقطاب لا يمكن الجمع بينها. وكأن الحب يغمر الإنسان في الأسس الأولى للحياة، في ينابيعها ومصادرها الأولى، في سبيكة اللبنات القطبية الأولى التي تتكون منها الحياة.

إن الحب يكون لدينا نموذج العلاقات الإنسانية الحقة تجاه الآخرين. إنه ينظم، وعلى منوال إنساني، ليس الشعور وحده، ولا الطبقات العليا من الشخصية وحدها، بل ينظم أعمق دوافع مشاعرنا وسلوكنا. إنه يقدم للناس في حياتهم الخاصة ما تقدمه، في حياة المجتمع، مثل ومبادئ البناء الاجتماعي العليا التي توصلت إليها البشرية.

والحب هو بمنزلة ممثل هذه القيم والمثل العليا ورضيعها، وفي الوقت نفسه، هو أحد صانعيها: إن الحب مشبع بهذه المثل، والحب نفسه هو الذي يولدها، وهو الذي يغرسها في الحياة.

ولهذا، فالحب هو من أعمق مظاهر النزعة الإنسانية، وأسمى شكل من أشكال تفاهم الإنسان وتواصله مع الآخر، وأعلى صيغة لتقديم العون للإنسان الآخر.

لقد بدأت تتضح، الآن، قوة هذه العاطفة في البشرية المعاصرة، وقد لا يشعر بقوتها، بصورة كاملة، إلا أحفادنا. ولكن، وحتى الآن، ورغم أنه لم يكتسب سوى جزءاً صغيراً من قوته، يقف الحب إلى جانب أقوى العتلات والروافع التي يمكنها أن تقلب الأرض، وتنقل الجنس البشري من الظلمة إلى النور. ومما يؤسف له، أننا لا نفهم الدور الاستراتيجي للحب إلا فهماً سيئاً، ونلحق به، وبأنفسنا، وبكامل مسيرة التقدم الكثير من الضرر.

❖ ❖ ❖

الهوامش :

(1)- ترى غالبية علماء الاثنوغرافيا (علم السلالات) أن النظام الأمومي، كتنظيم عام في المجتمع، لم يوجد في تاريخ البشرية. ولكن من المحتمل جداً، أن يكون هذا النظام قد قام لدى بعض القبائل، حيث ارتقى وضع المرأة الرفيع في هذه القبائل بالمرأة في العادات والأخلاق الاجتماعية ومنحها قوة روحية كبيرة.

(2)- هيغل: المؤلفات، المجلد 13، ص 107.

(3) – هلفيتيوس: حول العقل. بطرسبورغ، 1917، ص 368.

(4) – هذه الحقيقة أدركها فلاسفة الإغريق، الذين اعتبروا الصداقة العاطفة الإنسانية الرئيسة. وقد قال أرسطو في كتابه «الأخلاق»: «إن جميع علاقات الصداقة تنشأ من موقف الإنسان من ذاته وتعميم هذا الموقف وسحبه على الآخر» – أرسطوطاليس: الأخلاق. ص 176-177.

(5) Maslow A.N. Motivation and Personality. N,-J, 1954.

(6) – البلالايكا: آلة موسيقية وترية روسية، من الآلات الموسيقية الشعبية الشهيرة في روسيا.

(7)- أندريه موروا: آمال وذكريات. موسكو، 1983، 244.

(8)- Fromm E. The Arte of Loving. Bantam Books N.-1., 1956.

(9)- «The Arte of Loving» , N-1, 1967

(10)- ميترلينك، م. المؤلفات الكاملة. المجلد 2، بطرسبورغ، 1915، ص 85.

(11) – ما فوق الشعور: هذا المصطلح يرجع إلى الكاتب والمخرج المسرحي الشهير (ستانيسلافسكي)، تحدث عنه بشكل معمق وتناوله بطريقة جديدة عالم النفس الفيزيولوجي المعروف (ب.ف. سيمونوف) في كتابه «الإنسان، الشخصية، المزاج» – موسكو، 1984.

(12)- هيوز، ي. «برنارد شو» موسكو – 1968، ص 156.

(13)- لويس بروال. «الحب والجريمة – دراسات نفسية – اجتماعية». بطرسبورغ، 1901، ص 4،6.

(14)- غوزمان، ل. يا. «سيكولوجية العلاقات العاطفية» – موسكو، 1987، ص 66.

الفصل السادس

الحب والعالم

1- طريقة الوصول إلى الحب :

يرتبط الحب بالعالم بآلاف الخيوط، المتشابكة، وغير المتوقعة، ومن الصعب جداً العثور على الرقم السري الذي يفك تشابكها. وعلى أي حال، هناك مؤشرات تساعد في رؤية كيف يرتبط الحب بالوسط الاجتماعي.

المؤشر الأول - هو المؤشر السيكولوجي: فالحب بمنزلة ظل داخلي للإنسان، وطابعه يكرر ملامح طبع الإنسان، وماهية الحب يتوقف على ماهية الإنسان المحب.

المؤشر الثاني - هو مؤشر نفسي- اجتماعي: فالحب هو «ظل» الوسط الذي يعيش فيه الإنسان المحب، وكما أن حياة النبتة تتوقف على التربة التي غرست فيها وتتغذى منها، كذلك حياة الحب تتوقف على تربته ووسطه الاجتماعي.

وإذا ما تحدثنا بصورة شرطية، اصطلاحية، فإن للحب مقياسان: مقياس داخلي ومقياس خارجي، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك بصورة عابرة. أما المقياس الداخلي فهو الحب -العاطفة، حياة القلب، أحاسيس الحب ومشاعره ومعاناته. وأما المقياس الخارجي، فهو الحب - العلاقة، سلوك المحبين، وصلاتهم وعلاقاتهم الحياتية، وأخلاقيات الحب وعاداته.

الحب -العاطفة هو مرآة شخصية الإنسان، وطباعه ومزاجه وبنيته

العصبية. وصلته بالمجتمع، بالوسط غير مباشرة، أي من خلال شخصية الإنسان المحب.

أما الحب -العلاقة: فهو أثر الشخصية والوسط على الحب، وتؤثر على الحب - العلاقة تأثيراً مباشراً العلاقات الاجتماعية والثقافة والأخلاق، والعادات الأسرية.

الحب - العاطفة يتميز أكثر بطابعه الإنساني، بينما يتميز الحب - العلاقة أكثر بطابعه الاجتماعي.

الحب- العاطفة يرتبط مباشرة بالإنسان، بنمطه التاريخي ببنيته السيكولوجية والبيولوجية. وتكمن جذور الحب، كعاطفة، في سيكولوجية الإنسان، وليس في النظام الاجتماعي، وارتباطه بالمجتمع ارتباط غير مباشر، من خلال مرحلة انتقالية، من خلال الإنسان المحب وشخصيته.

أما الحب - العلاقة، فهو يرتبط ارتباطاً مباشراً بعاملين: أولا: بالوسط، بالمجتمع (بما فيها القواعد والأعراف العائلية وأخلاقيات الحب)، وثانيا: يرتبط بنمط الإنسان التاريخي، وببنيته السيكولوجية والبيولوجية.

على هذا النحو المتشابك - تشابك تعقيدات الحياة - تقوم تلك المنظومة من المؤشرات التي يمكن من خلالها النظر إلى روابط الحب والعالم المعقدة. وهذه المنظومة - العدسة تسمح لنا، دون تبسيط مبتذل، برؤية كيف يتبدل الحب عبر التاريخ، وما الذي يحرك تحولاته وتبدلاته. وهذه المنظومة تقدم لنا الأرضية المناسبة- الصلبة إلى حد ما - للتنبؤ بمستقبل الحب.

وهذه المقاربة هي مقاربة جدلية: فهي تحافظ بعناية وحرص على خصوصية الحب، من حيث هو عاطفة متميزة، ومن حيث هو ظاهرة نفسية - اجتماعية خاصة. كما أنها مقاربة اجتماعية وسيكولوجية في آن واحد، وليست مقاربة اجتماعية ضيقة: فهي تربط الحب بخلفيته الاجتماعية من خلال الإنسان.

2 - ماهية العاطفة الإنسانية العامة :

العاطفة الإنسانية العامة هي العاطفة التي يشعر بها الناس في جميع العصور، ومن جميع الفئات والطبقات. مثلها في ذلك مثل عاطفة الأمومة، التي تشعر بها كل امرأة. وأساس هذه العاطفة: الأنانية الغيرية، التي يمكن أن يشعر بها العبد والسيد، والفلاح والعامل، والرأسمالي والمثقف.

لكن هذا لا يعني أن الوضع الطبقي للإنسان وعصره لا يؤثران على عاطفته. فالإنسان هو سبيكة من الخاصيات الإنسانية العامة والاجتماعية - التاريخية. ومن هذه السبيكة تتكون شخصيته ونفسيته وأخلاقه.

هناك بالطبع، على الأغلب، عصور وفئات اجتماعية أكثر ملاءمة للحب، وهناك أخرى أقل ملاءمة. ففي الأوساط الإقطاعية، ذات المستوى الثقافي الضعيف، قد ينشأ مناخ سيكولوجي خاص، تتردد فيه بأصوات عالية «مشاعر الملكية»، وعاطفة «الحصول على المرأة»، والاستهلاك. ومثل هذا المناخ ينمي في نفوس الناس مشاعر الأنا المركزية، ويبرز في المركز الأول «الانفعالات للذات» و«العاطفة للذات» - وبالتالي يعيق نشوء انفعالات وعواطف أكثر عمقاً وتعقيداً.

لكن هذا لا يعني أن الطريق إلى الحب مغلق أمام إنسان من هذه الطبقة أو الفئة الاجتماعية. فالموقف الاجتماعي للإنسان، وليس وضعه الاجتماعي، هو الذي يكون نفسيته وروحه، إنه نمط حياة الإنسان وسلوكه، وأفعاله ووجوده وآماله. فالحياة وحدها هي التي تشكل عواطفنا وآراءنا وأخلاقنا، وليس الوضع الطبقي السلبي، بل الدور الاجتماعي الإيجابي.

إن الموقف الاجتماعي للإنسان قد ينشأ عن وضعه الاجتماعي الطبقي، وقد يختلف عنه ولا يتطابق معه، بل وقد يعارضه تماماً. ويكفينا، هنا، أن نلقي نظرة على تراجم ومصائر العظماء، والكتاب، والثوريين، الذين كانوا ينتمون إلى الطبقات العليا من المجتمع.

عندما يكون موقف الإنسان إنسانيا، تنمو في نفسه أوتار عميقة ورقيقة، يمكن أن ينشأ ويترعرع فيها الحب. وقد لا تنمو هذه الأوتار العميقة لدى الأشخاص غير المناسبين للحب إلا نادراً. ولكن، وحتى هؤلاء، قد يعانون من حب لا مثيل له، من حيث العمق والقوة والسطوع، وهذا ما ترويه لنا أدبيات الحب الإنساني جميعها، والقصائد الشعرية منذ آلاف السنين.

وهناك حالات معاكسة. فثمة أشخاص من طبقات وفئات مناسبة للحب، لكنهم يعيشون نمط حياة لا ينمي في نفوسهم الأوتار العميقة الطيبة المساعدة على الحب. وإذا ما كانت الاهتمامات اليومية المعيشية هي التي توجههم، فإنها تولد في نفوسهم الأوتار التي لا يمكن أن تنمو فيها إلا العواطف والمشاعر البسيطة اليومية. وخلال مسيرة التاريخ، عانت الملايين من الطبقات والفئات الفقيرة والكادحة، ولا تزال تعاني حتى اليوم من هذه الأوضاع المعيشية الصعبة.

علاوة على ذلك، فإن الحياة التي يهيمن فيها الاهتمام بالذات دون الاهتمام بالآخرين تغرس في الإنسان لا شعوراً أنانياً مركزياً، غير قادر على الحب. حتى وإن كان هذا الشخص من طبقات متوسطة أو فقيرة؛ فمثل هذا الإنسان توجهه مشاعر الأنانية المركزية. هنا، إذن، يكون الموقف الحياتي أقوى من الوضع الاجتماعي، وهذا الموقف يوحد بين نفوس ملايين الناس...

إن جذور الحب، من حيث هو عاطفة، تكمن في شخصية الإنسان بالذات، وليس في التشكيلة الاجتماعية، وإذا ما أردنا البحث عن الحب في التشكيلة والبنية الاجتماعية، فمثلنا مثل من يبحث عن جذور الشجرة في القشرة الأرضية وليس في جذورها.

ومما لاشك فيه أن مسيرة التاريخ تغير الإنسان، وتغير معه عواطفه ومشاعره (ظله الداخلي). فهناك اختلاف كبير بين الأشخاص الذين ينتمون إلى عصور وشعوب مختلفة.فهناك اختلاف كبير في

سيكولوجية الحب، وفي ملامحه الوطنية والثقافية، بين الأشخاص الذين ينتمون إلى عصور وشعوب مختلفة. ولكن، وعبر هذا الاختلاف كله يلوح قلب واحد، جوهر واحد لعواطفهم، وهذا ما يصنع حبهم: الاهتمام بالآخر كالاهتمام بالذات.

لهذا، يبدو المواطن الإغريقي في العصور القديمة، وحب الهندي، ومُواطن عصر النهضة، وفارس العصور الوسطى، والعامل، والرأسمالي - عن حب كل واحد منهم شبيه بحب الآخرين، وغير شبيه في الوقت نفسه. إن حب كل واحد منهم يشبه حب الآخرين، من حيث أساس نسيجه السيكولوجي، الأنا الغيرية، ولا يشبه حب الآخرين، من حيث ملامحه القومية والثقافية الحية.

إن كل إنسان هو أشبه بسبيكة من الإنسان عامة وإنسان عصره وقوميته وطبقته. ولهذا، تبرز المشاعر الإنسانية دوماً في أزياء عصرها وتلبس لبوس زمنها وبيئتها. فقوى العصر والثقافة وأسلوب الحياة تلون هذه المشاعر بلونها، لكنها تبقى مع ذلك مشاعر إنسانية عامة، لجميع الفئات والطبقات، وتبقى مرحلة تاريخية من مراحل نمو المشاعر الإنسانية العامة.

3- نحو الوعي الكوني :

قبل ألفين وخمسمائة عام، طرح الفيلسوف الصيني (كونفوشيوس) فكرة إنسانية عظيمة، وهي بناء العلاقات بين الدول على نمط العلاقات الأسرية. ورأينا أن هذه الفكرة مثل أعلى وقانون يجب السعي لتحقيقهما، إنه قانون المجتمع الإنساني. ولو طبق وتحقق هذا القانون لكان النقطة المضيئة الهادية الرئيسة لإنقاذ البشرية. وهذا القانون يجب أن يكون أساساً للعلاقات داخل الدولة الواحدة وبين الدول.

ثمة مؤشر جديد ينمو الآن في وعي الناس، وهو يعيد بناء نظرتهم الروحية. ويضاف هذا المؤشر إلى مؤشرات المصالح الوطنية والطبقية،

الا وهو مؤشر المصالح الإنسانية العامة. وباندماج أشعته بأشعة المؤشرات الأخرى، فهو يصبغها بصبغته، ويبدل خريطة العالم.

وهذا الوعي الجديد يوسّع في الإنسان، على شكل قفزات، الشعور بالسيادة. و«خاصتي» بالنسبة له لا تقتصر على الوطن والطبقة والمهنة، بل تشمل الإنسانية كلها. ويبدأ الإنسان بالشعور بأنه سيد، ومشارك في العالم كله. وهنا بالذات، في هذا التوسيع الكبير لعاطفة السيادة المشتركة، هنا بالذات يكمن الجوهر السيكولوجي للوعي الجديد. حيث توسع «الأنا» الإنسانية حدودها إلى حد كبير، ويولد نموذج تاريخي جديد كليا للإنسان - الإنسان من حيث هو قيمة عالمية، كونية. ليس الإنسان المحلي، بل الإنسان العالمي وحده هو القادر على حل المشكلات العالمية.

وتنشأ نقطة انطلاق جديدة، وحدة قياس جديدة: ماذا يقدم لنا هذا الحدث الجديد أو ذاك؟ أو بماذا يهدد البشرية كلها، الإنسانية كلها، الكرة الأرضية كلها؟ وليس الوطن أو الأمة أو الطبقة!. بالطبع، لا يزال هذا الوعي، هذا الشعور، يخطو خطواته الأولى، ولا يزال عدد من يملك مثل هذا الشعور قليلاً جداً، أقل بكثير ممن يقصر مشاعر سيادته على البيت والأسرة. ووعي مثل هؤلاء المتقوقعين أضيق بكثير من الإطار القومي أو الإطار الطبقي، وكلما زاد عددهم ازداد الخطر على البشرية.

وقد سبق القول، بأنه لا يمكن إنقاذ الجنس البشري من الدمار الحربي والبيئي والأخلاقي إلا بالجهود الإنسانية العامة المشتركة. وهذا الإنقاذ غير ممكن إلا عندما تقف البشرية كلها صفاً واحداً في جهدها الإنقاذي، وخاصة في المجال البيئي والأخلاقي والاجتماعي. ومن أجل هذا الغرض، يجب على جميع الطبقات وجميع الأمم أن تضع المصالح العامة المشتركة فوق المصالح الخاصة الضيقة المختلفة، وأن تضع مشاعر الصداقة فوق مشاعر العداء.

إن على النظم الاجتماعية المختلفة، وعلى الدول المتقدمة والنامية، وعلى بلدان الشمال والجنوب، وعلى الأديان المختلفة أن تعقد صلحاً،

وتجري حواراً، وتحقق تفاهماً، وأن تعثر على تلك المصالح الإنسانية العامة المشتركة، التي تقرّب فيما بينها وتجمعها، وان تعيد بناء المدنية والحضارة وفق هذه المصالح العامة.

وفي هذه الحالة، ربما تبدأ بالاضمحلال والزوال تلك الأنظمة الاجتماعية القائمة على الأنانية والظلم وعدم المساواة. فهذه الأنظمة معادية للمصالح الإنسانية المشتركة، لأن أساس هذه المصالح يقتصر على التحالف والإتحاد الودي بين «الأنا» والـ«نحن». وفي هذه الحالة، سيصبح الحب أحد المحركات الرئيسة لهذه التحولات، وربما المحرك السيكولوجي الرئيس. وليس هذا لأن الحب يغرس في الناس الأنا الغيرية، والروح الإنسانية. لنتذكر أن الحب يرقى بالإنسان إلى ما فوق ذاته، ويجعل منه، وإن كان بشكل ضبابي، وفي الأحاسيس والمشاعر، بعداً عالمياً، وجزءاً من الكل العالمي الواحد. إن الحب يغرس في الإنسان، وإن كان على شكل تباشير وبوارق وشرارات، وعياً كونياً، شعوراً معادلاً للعالم كله.

إن الحب يمكنه أن يظهر للإنسان بعده الحقيقي، وقيمته الحقة، وحجمه العالمي الحقيقي. صحيح أن هذا لا يحدث إلا نادراً جداً، لكن هذا ليس بسبب الحب نفسه، بل بسبب الحياة التي لا تعطي الإنسان الفرصة الكاملة للكشف عن قواه إمكاناته.

4 - الإنسان العاقل والإنسان الشكلي :

لنعد قليلاً إلى الوراء، ولنتذكر، أن الإنسان هو ملتقى، ونقطة تقاطع جميع قوى العالم التي تحرك الحياة، وان الحب هو مرآة الإنسان. إذن، ومن أجل فهم مصير الحب، علينا أولا أن نفهم الإنسان وأن نعرف مصائره العالمية.

إن الطريق إلى البساطة، في هذا العالم الحالي، الشديد التعقيد، يمر بالضرورة عبر ضرورة حل هذه الصعوبات والتعقيدات، عبر محاولة

الإمساك بالخيوط البسيطة التي تتركب منها. ليس صحيحاً أبداً، أن كل ما هو عظيم وعبقري بسيط: فالبساطة لا تميز سوى بعض أجزاء الكلي العبقري، في حين أن هذا الكلي العبقري بكامله شديد التعقيد. وإن بساطة شروق شمس أيار، وبساطة ترنيمة البلابل، وبساطة أشعار بوشكين وغيره من شعراء العالم العظماء الآخرين، هذه البساطة ليست سوى التعبير الخارجي عن عبقرية عميقة بعيدة الغور، شديدة التعقيد. وأي بساطة يمكن أن نلمحها في «المهابهاراتا»، وفي التوراة والإنجيل والقرآن، أو في إبداع ليوناردو دافينشي، وتولستوي، وبتهوفن، وتشايكوفسكي؟

والشيء نفسه ينسحب على حب الإنسان. فإذا ما عرفنا الفرق بين الإنسان العاقل والإنسان الشكلي (العادي)، نحصل على مفتاح هام لفهم مصائر الحب ومصائر العالم. وسوف يسهل علينا فهم السر الصعب والأليم وهو: لماذا يعاني الحب الأمرين في عالمنا المعاصر. وكيف يمكننا تحسين وضعه؟..

الإنسان «العاقل» - هو الإنسان من حيث هو كائن عاقل homo sapiens، هو الإنسان عامة، ممثل البشرية كلها،الزنجي والأبيض، المواطن الروماني القديم والإنسان المعاصر. وهو يختلف عن جميع الكائنات الحية الأخرى بأنه: عاقل، ذو شخصية، متفرد، متعدد الجوانب.

إن تعدد الجوانب والأبعاد هو ما يميز الإنسان، تحديداً، عن الحيوان. وقد قال الفيلسوف الألماني (فييرباخ) بهذا الصدد: «الإنسان ليس كائناً حياً منعزلاً كالحيوان، بل هو كائن حي شمولي، إنه ليس محدوداً، وهذه الصفة الشمولية تسيطر على كينونته بالكامل»[1].

وكلما كانت شخصية الإنسان وتعدد جوانبه وأبعاده أضعف، كلما قويت عنده النزعة الضيقة وانعدام الملامح الشخصية، وكلما ابتعد أكثر عن حالته من حيث هو كائن عاقل، من حيث هو إنسان عاقل. لأن هذا يعني أن الإنسان لم يخرج طبيعته البشرية من مملكة الحيوانات. وهذه

الطبيعة البشرية تنمو فيه وتنضج مع سير التاريخ، مع السيرورة التاريخية.

أجل، إن الإنسان الحالي هو إنسان النوع البشري وليس الإنسان «العاقل»، فالبشرية لا تزال بعيدة عن أن تكون جنساً واحداً، إنها منقسمة إلى أنواع: قوميات، طبقات، فئات تمارس أعمالاً عقلية وحدها، أو فئات تمارس أعمالاً جسدية وحدها، فئات تمارس الإنتاج وأخرى تمارس الإدارة. لهذا تتردد بين العبارات والأوتار «النوعية»: الطبقية، الوطنية، المهنية وليس عبارات الجنس البشري عامة.

لعل الخاصية الرئيسة للإنسان من حيث هو كائن حي عاقل، هو خاصيته العاقلة الإنسانية العامة. وقد يكون إنسان الحضارة القادمة إنساناً عاقلاً عاماً. فما هي تلك الخاصيات الإنسانية العامة التي تميز الإنسان من حيث هو كائن حي عاقل؟ إنها لا تقتصر على الحب، بالطبع، ولا على النزعة الإنسانية، ولا تقتصر على السعي والتطلع إلى الإبداع والجمال والحرية. فهي تشمل أيضاً السعي إلى الحياة الكاملة المكتملة: السعي نحو التطوير الهادف المتعدد الجوانب لـ«الأنا»، والسعي نحو الاتحاد العميق، المتعدد الجوانب، مع الناس الآخرين.

إن حياة العقل والعواطف، المتعددة الأبعاد والجوانب؛ والتطوير المتعدد الجوانب للقدرات والكفاءات؛ وإشباع الحاجات؛ والتواصل الحر المتنوع بين الناس، تلك هي خاصيات الإنسان الرئيسة، من حيث هو كائن حي عاقل، وهي نابعة من طبيعته الاجتماعية ذاتها.

لقد دعا (ماركس) «التطوير الكامل»، و«الكشف المطلق عن مواهب الإنسان الإبداعية» «هدفاً بحد ذاته»، أي المثل الأعلى للإنسان. إنه التطوير الكامل «حيث يجدد الإنسان نفسه ليس باتجاه واحد، بل يجدد نفسه كلياً، في جميع الاتجاهات...»[2].

وكتب (إنجلز) يقول: «مع تقسيم العمل، ينقسم الإنسان نفسه إلى أجزاء. وتطوير جانب واحد محدد يؤدي إلى التضحية بقدرات الإنسان

الجسدية والروحية الأخرى. ويزداد تشويه الإنسان هذا ويتعاظم كلما ازداد وتعاظم تقسيم العمل»[3].

لقد بلغ تشويه الإنسان، الآن، حده الأقصى. فالتخصص يزداد ضيقاً باطراد، ويؤدي بالناس، بصورة مطردة، إلى الغباء المهني، إنه يجعل منهم أذكياء في مجال واحد، وأغبياء في المجالات الأخرى. ويتجلى تأثير عصر التخصص، المهشم والمشتت بوضوح متزايد في أفعال الإنسان وتصرفاته وأفكاره وعواطفه، وفي أسلوب حياته بكامله، بما في ذلك في مجال الحب والعواطف.

ولعل الضرر الرئيس للتخصص الضيق يكمن في أنه يعزز في الإنسان قطاعاً ضيقاً، كالمهارات الحرفية، ويفصله عن أهم شيء في الإنسان: عن نفسه، عن روحه وأخلاقياته، عن نواة «الأنا» الخاصة به. إن التخصص ينمي ويطور خاصيات الإنسان المهنية، بصورة منفصلة عن خاصياته الإنسانية، وبالاغتراب عنها، وبالتالي فهو يدمر الشخصية الإنسانية.

إن العمل، اليوم، يتألف غالباً من عمليات جزئية دقيقة: فالعامل ينتج قطعة جزئية من السيارة، وينفذ جزءاً من الحسابات، وينجز كل يوم خطوات روتينية متكررة من الأعمال. ومثل هذا العمل يتطلب مهارات تقنية، نمطية، لا شخصية. وهذا العمل لا يحتاج إلى شخصية الإنسان أو نفسه أو روحه.

إن اغتراب شخصية الإنسان كامن في الأسس التقنية ذاتها للعمل المعاصر اليوم، ولهذا، وهنا بالذات، تظهر الحاجة الجذرية لإحداث ثورة جذرية في أسس المدنية الصناعية الحديثة.

فهل سيكون الإنسان شخصية أم كائناً نمطياً؟ هل سيكون إنساناً جزئياً أم شاملاً؟ - إن هذا السؤال هو مسألة حياة أو موت بالنسبة للبشرية. إننا نعيش الآن في عصر انتقالي، مرحلة انتقالية، حيث تبدأ بالظهور على خشبة مسرح التاريخ المشاريع الأولى لإنسان المستقبل.

ويبدأ الانتقال الطويل والأليم، من الإنسان الجزئي إلى الإنسان العاقل الشمولي. وتتراءى من بعيد مشارف عصر جديد كلياً في حياة الإنسانية.

وقد يكون للحب مصير آخر في العالم الجديد. فالعاطفة الإنسانية الشمولية تشعر بالضيق في الإنسان الشكلي اليوم، الضيّق الأفق، تماماً مثل التنفس الذي يشعر بالضيق في الصدر الضيق المضغوط بالمشد. وعندما يصبح الإنسان كائناً إنسانياً عاقلاً ستتبدل، على الأغلب، حياته النفسية الانفعالية كلها، وخلفيته السيكولوجية كلها، الحاضنة لمشاعره وعواطفه. ولن يشعر الإنسان العاقل الشمولي بالضيق، بل سيشعر بالرحابة، وسيعيش للمرة الأولى حراً، وبدون قيود.

5 - رحلة إلى اليوتوبيا :

إن للحب خاصية هامة، بصورة استثنائية، تميزه عن التعلق والأشواق والأهواء الأخرى. فنموذج هذه الأهواء والأشواق - وهو الأنا المركزية - يرتسم، بسهولة كما يبدو، في إطار جميع أنواع اللامساواة الإنسانية. أما نموذج الحب، فهو الشوق والتطلع إلى التوازن والتكافؤ مع الآخرين، وهو معاد لنموذج اللامساواة. ولعل مادته الخفية ذاتها، وتطلعه الخفي إلى تكافؤ «الأنا» للمحبين، يتمردان، بصورة لا شعورية، على الحواجز والعقبات، وعلى اللامساواة الإنسانية...

ربما يكون الحب هو تلك البشائر الانفعالية البعيدة للمدنية الجديدة، لتلك المساواة الاجتماعية العظيمة التي يمكن أن تحل على الأرض. إن الحب كان دائماً تلك البشائر اللاشعورية منذ أن ظهر على هذه الأرض. فالحب، مثله مثل آلة الزمن، كان ينقل الناس إلى اليوتوبيا، إلى الجزر المأهولة الغامضة للأخلاق المثالية المقبلة. وربما تكون المثل العليا الاجتماعية ذاتها قد نشأت، ولو جزئياً، على هذا النموذج الإنساني من العلاقات، التي كان يقف الحب من ورائها وإلى جانبها.

أما ما يتعلق بالعواطف والمشاعر الإنسانية العامة الأخرى:

كالعواطف الأسرية والعائلية والصداقة، فهي أيضاً تضفي على الناس طابعاً انفعالياً من النزعة الروحية والتقارب والاهتمام، وتوقظ في موقفاً من الآخرين، كموقفهم من الذات. إن نسيج العواطف العامة الشمولية، وجوهرها اللاشعوري ذاته، يقود إلى الحياة المنسجمة المتكافئة، ويتطلع إليها.

ويبدو أنه يكمن في طبيعتنا السيكولوجية ظمأ لا يرتوي وتوق لا ينتهي إلى المثل العليا: وربما تكون الحياة المثلى وحدها تلائم الأسس الأعمق، الأسس الأولى لنفسياتنا، وربما تكون المثل العليا وحدها هي التي تعطينا الشعور بالاتساع والرحابة والحرية.

وإذا كان صحيحاً، أن الثورة السيكولوجية - العلمية ستحوّل كامل نشيج الحياة حسب قوانين الطبيعة الإنسانية، فإن الحضارة الجديدة القادمة ستكون حضارة الأنا الغيرية، أما العواطف والمشاعر الإنسانية العامة الحالية، كالصداقة والأسرة، فهي بمنزلة نموذج علاقات المستقبل الإنسانية.

على أي حال، فالحب، هنا أيضاً، ذو بعدين: فهو شوق وتطلع ليس إلى التوازن فحسب، بل وإلى «عدم التوازن»، وبخاصة في مرحلته القاسية الأليمة الأولى. فالحب يرقى بإنسان واحد (بالمحبوب) إلى ذروة القيم، في حين يدع الآخرين بعيداً، في الأسفل، في المنحدر... ورغم تجاوز الحب لأي حالة من حالات انعدام المساواة، قومية كانت أو اجتماعية، فهو مشبع حتى الثمالة بانعدام المساواة الانفعالية.

ومن ناحية أخرى، الحب، مثله مثل المشاعر الشمولية الأخرى، يحمل في طياته، في الوقت نفسه، نموذج أعلى درجات المساواة، نموذج اللا مساواة العليا، والنخبة العليا. إن هذا كله يدل على الجدلية الأليمة للحياة، على التحالف المحزن بين النور والظلام، الذي يقوم عليه العالم.

غير أن «انعدام مساواة القلب» الذي يحمله الحب، هو انعدام المساواة السيكولوجي الطبيعي. وعليه يقوم أي تفضيل نقوم به، وأي تعبير

عن إعجابنا أو رغبتنا أو ميلنا. وعلى هذا التفضيل والأفضليات تقوم عواطفنا وأذواقنا، واهتماماتنا، وهي التي تخلق قوس قزح الحياة الحي، وكامل تنوعها وتعدد أصواتها وألوانها.

6- حب أفروديت :

كيف يتوقف الحب على نمط الإنسان وشخصيته وعلى النظام الاجتماعي السائد؟ هاكم بعض الأمثلة على هذا الارتباط.

لنتذكر الحب، كعاطفة عند الإغريق، ذلك الحب الذي انطبع في إلهة الحب (أفروديت). لقد كان حباً فريداً من الناحية السيكولوجية، وهو لم يتكرر أبداً في التاريخ الإنساني. أما في عصر النحات الإغريقي (براكسيتل Praxitele) فقد بدأ هذا الحب يخمد، بدأ يحل محله نموذج تاريخي آخر من الحب - العاطفة. ولعل أفروديت هي العمل الفني الوحيد الذي وصل إلينا، والذي انطبعت فيه تلك المرتبة العظيمة من الحب الإنساني.

لقد كانت أفروديت تجسد في ذاتها المثل الأعلى الإغريقي الشهير (كالوس كاي آغاتوس) - أي الجميل الرائع والجيد، إنه المثل الأعلى للانسجام المشع للروح والجسد، اندماج الجمال الجسدي بالكمال الروحي.

صحيح، أن الإغريق كانوا يفهمون هذا الانسجام بصورة مختلفة عن فهمنا له. فالروح والجسد لم يكونا، بالنسبة لهم، كما هما بالنسبة لوعي وإدراك الإنسان العادي في العصر الحديث. فالإنسان العادي المعاصر يبدو له الجسد شيئاً مادياً بحتاً، بعيداً عن الروح، في حين أن النفس أو الروح هو شيء غير مادي، لا يمكن إدراكه، وأن الجسد والنفس لا يشبه أحدهما الآخر، بحيث لا يمكن الخلط أو الجمع بينهما، تماماً كما لا يمكن الجمع بين الحجر وظله، أو بين الطير والهواء.

وحسب المفهوم الشائع عند الإغريق آنذاك، لا ينفصل الروح عن

الجسد، لاختلاف النوع حسب فهمنا المعاصر، وانسجامهما لم يكن جمعاً أو مزجاً لقوتين خارجيتين، منفصلتين، الواحد عن الأخرى. لقد كان اندماجهما كاملاً، متماسكاً، غير قابل للانفصال؛ وانسجام النفس والجسد كان ذوباناً كاملاً لهما، الواحد في الآخر. وفي هذا الاندماج، كان من المستحيل تمييز جزيئات النفس عن جزيئات الجسد. إنهما: «النفس المرئية جسدياً، والجسد الذي يعيش روحياً»[4]، حسب قول الباحث الكبير في علم الجمال (آ. لوسيف).

كذلك كانت الرغبات الجسدية والروحية للحب مندمجة بصورة متماسكة، عند الإغريق ما قبل العصر الهيليني. حيث تختلط الأهواء والرغبات النفسية والجسدية فيما بينها وتتحول الواحدة إلى الأخرى، وتواجد في اتحاد غامض؛ وكان هذا الاندماج يتجلى في كل حركة من حركات العواطف، وفي كل اندفاع انفعالي، وكان هذا الاندماج كنواة أولية لهذه الانفعالات.

وهنا يكمن أهم ما يميز عاطفة الحب عند الإغريق القدماء عن العواطف الحالية اليوم. حيث لا نجد في عواطف إنسان العصر الحديث هذا الاندماج. فقد تبلورت داخلياً، الأحاسيس النفسية الروحية والجسدية، منذ عهد بعيد، وانفصلت الواحدة عن الأخرى.

لقد نشأ هذا التكوين للعواطف عند الإغريق بتأثير نمط خاص معين للإنسان الإغريقي ما قبل العصر الهيليني، وكان يرتبط بنمط حياته المتميز، وبوضعيته الاجتماعية.

فالحياة كلها كانت آنذاك متماسكة، كانت عبارة عن مزيج شبه أولي، بدأت تتبلور فيه للتو، الحدود والأشكال اللاحقة، ولم يكن الجسد منفصلا عن النفس، وكذلك الإدراك الأدبي الروائي لم يكن منفصلا عن الإدراك العلمي، كذلك العلوم (أو على الأصح ما قبل العلوم أو بذورها الأولى) لم تكن منفصلة عن بعضها بعضا. كذلك الشخصية لم تكن منفصلة عن المجتمع (وهذا هام جداً بالنسبة لنا في هذا المجال). وكما

قال كارل ماركس «كان الفرد الواحد مرتبطاً ربطاً محكماً بحبل سري، بقبيلته أو عشيرته، كالنحلة المرتبطة بخليتها»[5].

لقد أدت العلاقات الإنسانية البدائية، البسيطة، والطابع البسيط للحياة والعمل إلى جعل حاجات الناس صغيرة، قليلة ومحدودة. والفرد لم يكن معارضاً للمجتمع، ولم يكن منفصلاً عنه، ككيان خاص، كان الفرد جزءاً من المجتمع، ولم يكن يعي أبداً أنه أكثر من مجرد جزء منه.

وعلى أي حال، لم يكن الأفراد، في تلك الأثناء، شخصيات حقيقية ذات فردية متميزة. فشخصية الفرد كانت لا تزال في مرحلة المخاض، في البداية. أما التربة التي نشأ عليها هذا الاندماج Syncretism أو الاتحاد القديم فهي وضعية العالم، والمجتمع، حيث بدأ الأفراد، للتو، بالتحول إلى شخصيات مستقلة عن المجتمع.

وحتى بنية المجتمع الاجتماعية كانت آنذاك متماسكة، متحدة. والفرز الطبقي كان قد بدا حديثاً، لكنه لم ينضج، كان ينمو ويتضخم داخلياً، وكانت المصالح الطبقية المشتركة موجودة لكنها كانت ضعيفة مثلها مثل تناقضاتها. وقد ساد وضع خاص، شبه متبلور، لم يتكرر أبداً في التاريخ؛ ونتج عن هذا الوضع علاقات اجتماعية خاصة، وثقافة خاصة، وسيكولوجية خاصة، وعاطفة حب خاصة.

لقد أوجد المجتمع المتماسك إنساناً متماسكاً، وأوجدت سيكولوجية هذا الإنسان المتماسك نوعاً خاصاً من الحب هو الحب المتماسك.

للنظرة الأولى، قد يبدو الحب الإغريقي، ما قبل العصر الهيليني، حباً غير سيكولوجي، بعيداً عن المعاناة النفسية والروحية، مرتكزاً على الأحاسيس الجسدية وحدها. وهذا ما يظهر واضحاً في القصائد الشعرية الغنائية للعصر البطولي، والعصر الكلاسيكي، وفي التراجيديا الإغريقية الكلاسيكية أيضاً. ولهذا، دعا كثير من مفكري الماضي، ومن بينهم الفيلسوف الألماني هيغل، الحب الإغريقي «شهوة جسدية»، أو «شهوة حسية بلا روح»، أو «اندفاع الدم الداخلي».

لكن هذه النظرة غير صحيحة. فالناحية الروحية في عواطف ذلك العصر لم تكن مستقلة، ولم تكن منفصلة عن مادتها - عن الأحاسيس الجسدية -، وكانت كامنة في داخلها كجنين، كنذير، كمولود قادم. وتماسك العواطف هذا، هذا التمازج بل والتماهي للنواحي الجسدية والنفسية والروحية كان الخاصية الرئيسة للحب الإغريقي في ذلك العصر.

إن هذا التماهي هو بالذات، يجعل من عواطف الإغريق القدماء «شهوات حسية» و«دفقات دم داخلية». فعندما تتدفق، في كل نبضة من نبضات العاطفة، نفحات نفسية وجسدية، تتعاظم قوتها، الواحدة بعد الأخرى، وتتحول إلى عاصفة من العواصف. وكما قالت الشاعرة الإغريقية (سافو Sapho - القرن السادس قبل الميلاد) التي دعاها أفلاطون بـ«إلهة الشعر العاشرة» عند الإغريق:

مثل ريح هبت من أعلى الجبل على شجرة بلوط
هزتنا شهوة الروح....
فالتهبت بالشهوة، وصرت كالمجنون...

إن قوة هذه الشهوة، التي تهز الإنسان هي قوة الشهوة الجسدية، وتتجلى في الأحاسيس الجسدية وليس الروحية. لكن شاعرية هذه الأحاسيس، وطابعها الجمالي هو الجانب الروحي فيها، وهو ميل روحي خاص، متماسك، يعيش في كنف الجانب الجسدي، ويندمج فيه.

وفي التراجيديا (المأساة) الإغريقية الكلاسيكية، لدى الشعراء مثل سوفوكل Sofokle، وإسخيل Eschyle، وإيريبيد Euripide نجد أن مشاعر أبطالهم هي دفقات روحية جبارة. وبدت وكأنها عواطف ومشاعر عادية، موضوعة تحت عدسة مكبرة، ولهذا كبرت وتعاظمت إلى حد كبير، وأصبحت عواطف عملاقة، وثورات سيكولوجية وروحية متماسكة ضخمة.

إن الحب، والكراهية، والفرح، والشوق، كل هذه العواطف تصل في

الأدب الإغريقي الكلاسيكي إلى حد تهييج الشهوة، وهذه الشهوة تقذف بالإنسان كحبة رمل، وتجعله عبداً لها. إن تهيّج الانفعالات التي تتحول إلى شهوات، هو تلك الخاصية المميزة للعواطف المتماسكة المندمجة، وهي تلك الخاصية الهامة المميزة للحب ولعاطفة الحب الكلاسيكي. إنه ذلك المحور للحب الإغريقي القديم في تماهيه واندماجه الذي لا يتجزأ للأحاسيس الجسدية والروحية.

7- بداية الحب الفردي :

تمر عدة قرون، وتتبدل تركيبة الحياة الاجتماعية، كما تتغير بنية النفس الإنسانية، ومعها تتغير مادة الحب وعاطفة الحب. وينطبع بشكل ساطع نمط الحب الجديد في الشعر الغنائي الروماني الرومانسي في القرن الأول قبل الميلاد، لدى الشعراء الرومان مثل: كاتول، تيبول بروبيرسيوس، أوفيد، هوراس، فيرجيل. وفيما يلي يتحدث الشاعر بروبيرسيوس عن حبيبته في إحدى قصائده:

ليس قوامها ما أفقدني عقلي، أيها الصديق...
هناك ما هو أهم، ما جعلني أجن بسعادة وحبور...
إنه عقلها النبيل المتفتح، كمالها واكتمال معارفها في الفنون..
وكذلك رشاقتها وأناقتها وهندامها.

لم يعد الحب، هنا، شوقاً موحداً، بل أصبح شوقاً مزدوجاً، جسدياً وروحياً في آن واحد. إنه شوق إلى أناقة المحبوبة وكمالها وجمال جسدها، وشوق إلى عقلها النيّر وتمكنها في الفنون. ولم يعد المثل الأعلى للجمال سبيكة مندمجة، غير قابلة للانفصال، إنه يحوي الآن في طياته، عَلَقَات وجلطات متخثرة، ويبدأ بالانقسام إلى «أجزاء». والحب أصبح هنا: عاطفة مركبة، تياراً موحداً ينقسم إلى مسارات مختلفة، ومن الممكن إدراك اختلاف هذه التيارات بوضوح.

إن وحدة الروح والجسد تفقد تماسكها واتحادها، وينقلب

اندماجهما إلى جميعة. فتتغير تلك الجوانب الروحية التي تلهم الجسد: ويشترك في هذا الإلهام الآن ليست الخاصيات الأخلاقية وحدها كما في السابق، بل تضاف إليها باطراد خاصيات جسدية جمالية: كالجمال والأناقة والرشاقة. ومع سير الزمن، ينحسر بصورة مطردة دور الخاصيات الأخلاقية، حيث ترجعها الخاصيات الجمالية إلى الخلف، وينتقل مركز ثقل المثل العليا من خاصيات الإنسان الأخلاقية إلى خاصياته الجمالية.

ويختفي من عاطفة الحب الإغريقي المثل الأعلى الإغريقي: سبيكة الجيد والرائع. ويصبح الأهم، بالنسبة لسيكولوجية الحب الجديدة: التوق إلى الجميل في الإنسان أكثر من التوق إلى الجيد، وهذه الحلقة الدالة على أزمة ما في الحب، هي أولى الدلائل المنبئة بهذه الأزمة. هكذا انطلق في تلك العصور، طريق الخسائر والمكتسبات في المشاعر الإنسانية، وهكذا انطلق مسار توسيع الحب وتعقيده جنباً إلى جنب مع تضييق مفهومه.

إن الحب هنا، عاطفة جديدة كلياً. إنه لم يعد عاطفة متماسكة، لقد أصبح عاطفة مكونة من عدة طبقات، متفرعة داخلياً. وتعد ولادة هذه العاطفة الجديدة حلقة من سلسلة تلك التحولات السيكولوجية والاجتماعية الكبيرة التي جرت في العصر الهيليني خلال الفترة الواقعة بين القرن الرابع والقرن الأول قبل الميلاد.

لقد أصبح العمل العبودي، في هذا العصر، أساساً للمجتمع، وبدأ بتفتيت المجتمع وتحطيمه من الداخل. وبدأت تظهر على الصف الأول من الساحة الاجتماعية، العلاقات البضاعية النقدية، وهذا كله أدى إلى تبديل حاد في العلاقات بين الأفراد، ومن خلال حلقات تحويلية وسيطة، أدى إلى تبديل أخلاقياتهم، ونفسياتهم، وكامل منظومة قيمهم الحياتية. وبدأ ينحسر عن الساحة الاجتماعية، الغموض الاجتماعي القديم،واختفاء إيجابيات المجتمع وتناقضاته، الذي ميز المجتمع القديم.

وبـدأت ترتسـم بوضـوح مطـرد، تناقضـات الفئـات الاجتماعيـة، وتظـهر بوضوح أكبر الحدود الفاصلة بين العبيد والسادة الأحـرار، وبـين الأغنيـاء والفقـراء، وأخـذ ينقسـم المجتمـع إلـى فئـات وطبقـات وخلايـا، ويـزداد التنافس، ومن ثم الصراع بين أفراد المجتمع.

لقـد أخـذت تنمـو، بصـورة ملحوظـة، القـوى الطـاردة المركزيـة التـي تقسم المجتمع، ويتغلغل الخلاف والانقسام الداخلي إلى حياة المجتمع في جميـع جوانبـها ومقاييسـها، وتتجـزأ الملكيـة الاجتماعيـة العامـة المتماسـكة القديمة، حيث تخترقها ملايـين الشـقوق، وتتحـول كتلـة الصخـر الجـامدة القديمة إلى قطع فسيفساء مبرقش.

وينسحب من الساحة التماسك القديم للحياة الاجتماعية. وتتمـيز شـخصية الفـرد عـن المجتمـع، حيـث بـدأ الفـرد يـدرك بصـورة مـتزايدة مصالحـه الخاصـة، المنفصلـة عـن مصـالح المجتمـع. وتصبـح حيـاة الفـرد الخاصة الشخصية ذات سيادة، ومعارضة لكل شيء آخر. وينطلق الفـرد، في هذه الفترة إلى الأمام، إلى الخط الأول، ويقـع تحـت العدسـة المكبـرة، ويغدو متشعباً، متنوعاً، متعدد الطبقات.

فـي هـذه الفـترة بـالذات، يظـهر الإحسـاس بفـرادة الحـب، وتمـيزه، واستحالة مقارنته بالعواطف الأخرى. ولهذا كان يردد الشعراء، فـي كثـير مـن الأحيـان، أن الحـب مركـز حياتـهم، وأهـم مـا فـي حياتـهم، وأن الحـب أقـوى مـا فـي الوجـود، أقـوى مـن رابطـة الـدم، حتـى أنـه أقـوى مـن غريـزة الوجود والبقاء. وكأن الإنسان المحبوب ينفصل نوعياً عن الآخرين، ويبدو فيه كل شيء متميزاً، فريداً.

لقد كان هذا إحساساً جديداً بالحب، ولم يكن باستطاعة العاطفة المتماسكة، عاطفة ما قبل ظهور مفهوم الشـخصية أن تولـده. ومثـل هـذا الإحسـاس لا يمكـن أن يشـعر بـه إلا الفـرد – الشـخصية؛ كمـا أن ظـهوره يعني ظهور الحب الفرد، كشخصية، وهو نوع تاريخي جديد كلياً من أنواع الحب.

ولكن، لا يجدر بنا الاعتقاد، هنا، أن الحب كله، في ذلك العصر، كان على هذا النحو. وحديثنا يدور، هنا، عن ذرى الحب، وزد على ذلك، عن الحب الذي يمر عبر قلب الفنان، الشاعر، ولذلك فهو حب شاعري، رقيق، أنيق. لقد كانت هناك في الحياة الاجتماعية آنذاك، أنواع أخرى من الحب، أكثر بساطة، أشد قسوة، وأقل سطوعا. ولكن، في ذرى الحب هذه، كما هو الأمر في ذرى العواطف والأحاسيس الأخرى، تظهر بوضوح تلك التحولات التي تجعل من الحب الهيليني نوعاً جديداً كلياً من الحب.

8 - حب الفرسان :

لنتذكر، هنا من جديد، أن قدرة الإنسان أو عدم قدرته على الحب، تتوقف على تلك الأوتار الروحية والنفسية التي يوفرها له دوره في الحياة ووضعه في المجتمع. فالدور الحياتي للمرأة، على سبيل المثال، لا يتطابق إلى حد كبير، مع وضعها الاجتماعي. فالأمومة خاصة، ودورها كزوجة، وربة منزل، يولد في نفسها، أكثر من الرجل، الوتائر الإنسانية العامة، كوتائر الطيبة والخير، والحنان والرعاية، والاهتمام بالأهل والأطفال والأقارب...

ونساء الطبقات الاجتماعية العليا (ذات الامتيازات) أقل اشتراكاً ومساهمة من الرجال في الأعمال الاستثمارية التي تنمي في النفس الأنا المركزية. كما أن حاجاتهن الحياتية الرئيسة موفرة، وأخلاقهن دمثة، ويتمتعن بالتعليم والثقافة، وهذا حسب قانون إعلاء الحاجات، يمكن أن يحوّل قوى النفس إلى حاجات أكثر عمقاً، ويفتح الطريق إلى مشاعر وعواطف أعلى وأرفع وأكثر تعقيداً. لهذا كان وضع النساء من الفئات المتميزة أكثر ملاءمة للحب من الرجال، وأكثر ملاءمة للحب من نساء الفئات الاجتماعية الدنيا، المسحوقة، التي تعاني الكثير من الحاجة والعوز والاستغلال.

إن القدرة على الحب هي بمنزلة موازية أو توازن بين جوانب

نفسية وروحية عديدة ذات اتجاهات مختلفة، إنها سبيكة من القوى الحليفة والمعادية والمحايدة... وتأثير الوضع الاجتماعي هنا يسير باتجاه واحد، فهو إما يساعد، أو على العكس، يعيق نضج وتائر محبة الإنسان في النفس. وقد يكون تأثيره، في بعض الأحيان، إزدواجياً، حيث تكون بعض جوانبه معادية للحب، في حين أن جوانب أخرى منه، كما هو لدى نساء الطبقات المتميزة، مناسبة وملائمة للحب. كما أن نساء الطبقات المتميزة يؤثرن بدورهن، على الرجال، بصورة غير مباشرة، عن طريق التربية؛ وبصورة مباشرة، بخلق مناخ من التوق والتطلع إلى الحب. فالمؤثرات السيكولوجية التي تقف وراء الحب يمكنها أن تتغلب على المؤثرات الاجتماعية التي تعارضه وتقف في وجهه.

إن هذا التشابك المعقد للمؤثرات المختلفة المتعارضة هو الذي ولّد حب الفرسان في القرون الوسطى، أحد أسطع أنواع الحب الإنساني. وقد ظهر حب الفرسان في إقليم البروفانس، في جنوب فرنسا، ودخلت مثله العليا قلب الثقافة العالمية، وأصبحت إحدى أسسها.

لقد كان هذا تقديساً حقيقياً للحب، وهو بصورة رئيسة، حب روحي، أفلاطوني، وهذا وجه اختلافه عن الحب الإغريقي. وكان لهذا التقديس إله، وهو (آمور)، إله الحب، أما آلهاته فهن السيدات الأنيقات الرائعات، وكان له خدمه ومنشدوه، وهم التروبادور (شعراء البروفانس)، وكان له هواته وأنصاره، وهم الفرسان.

لقد أصبح الحب في البروفانس خدمة للسيدة الرائعة وتقديساً لها. فسيدة القلب كانت، بالنسبة للفارس، تكويناً غير أرضي، وحتى وإن كانت تكويناً أرضياً، فهي قديسة أرضية، إنها رمز وتجسيد للألوهية. وقد كان حب الفارس عاطفة سجود وخضوع، عاطفة سمو وارتقاء مثالية، وعاطفة متأنقة رقيقة في البلاط.

مما لا شك فيه، أن حب الفرسان السامي لم يكن حباً جماهيرياً، فإلى جانبه، كما هو معروف للجميع، كانت هناك العادات والامتيازات

الإقطاعية، كحق الإقطاعي في الليلة الأولى من كل فتاة تتزوج، وعلاقات الأراضي وارتباطاتها، وكلها كانت تشكل أساس الهرم الذي اعتلاه في الذروة حب الفرسان. لكن ذلك الجديد الذي ظهر آنذاك في الحب الإنساني، قد سار عبر مرتبة عشق الفرسان.

لم يكن الفرد، في نظام الطبقات والمراتب في القرون الوسطى، إنسانا أو شخصية في المقام الأول، بل كان وظيفة، دوراً، ممثلاً لطبقته أو فئته: فارساً، رجل دين، ملاّك أراضي وقصور، حرفي. ومثل هذه الوظيفة للإنسان، لا كشخصية ولا كإنسان، كانت المرأة بالنسبة لعادات طبقات المجتمع السائدة وأخلاقياته. فالفتاة كانت، بادئ ذي بدء: زوجة المستقبل، أو أم ولي العهد الوريث، أو عاملة. فدور الإنسان ووظيفته كانا في المقام الأول، أما شخصيته فكانت في المقام الثاني.

في الحب وحده، صارت المرأة إنسانا، وفي الحب وحده، كان الفارس يعاملها كامرأة، كشخصية. ولهذا فإن التروبادور - المنشدون، الذين كانوا ينشدون قصائد الحب والإعجاب، قد تمردوا وثاروا على السلطة الميتة المندثرة للعادات الطبقية. وقد كانت أناشيد الحب عندهم حلماً حماسياً ملتهباً بالعلاقات الإنسانية والمثالية بين الناس. لقد كان حب الفرسان حباً طوباوياً، حباً حالماً، كما كان هذا الحب تمرداً وثورة عاطفية على القيود، التي كانت أخلاقيات ذلك العصر تقيّد بها الإنسان.

وبتقديسهم للمرأة، فقد أسبغ الفرسان على صورتها الخاصيات الإنسانية السامية كالجمال والروعة، والطيبة والأناقة، والعقل والذكاء. وهذه التصورات التي ارتقي بها إلى السماء، أخذت الآن تعود إلى الأرض، مبدلة الوعي الذاتي للإنسان، مثرية إياها في أعينه.

في حب الفرسان، بدىء بالنظر إلى المرأة بمعايير أسمى المثل العليا التي عرفتها البشرية في تلك الحقبة. وعلى أي حال، لم يكن يحترم (بضم الياء) في المرأة آنذاك كل ما هو إنساني، بل كان يحترم فيها ما كان قريباً من الإلهي، من القداسة، كجمالها الروحي، الذي كان

منفصلاً عن الجمال الجسدي الأرضي. لقد جعلت الآراء والمعتقدات الكنسية السائدة آنذاك من حب الفرسان حباً جزئياً، نصفياً، أفلاطونياً، وحيد الجانب.

ولكن، قبل تلك الحقبة، كانت تقدَّس، أي تطلق أسمى القيم والصفات الإنسانية، على الآلهة الأرضية وحدها، أي على أصحاب المراتب الروحية والمدنية العليا. أما الآن فتقدَّس، أي تطلق أسمى الصفات الإنسانية على المرأة، من حيث هي امرأة، بالذات، أي من حيث هي إنسان.

إن التقديس الديني للمرأة كان ينقل في أشكال وصيغ ذلك العصر التي ظهرت حديثاً، ونقصد بذلك، على وجه التحديد، الموقف الإنساني من المرأة. وكان هذا التقديس جسراً على الطريق نحو النزعة الإنسانية التي بدأت تنضج في آخر العصور الوسطى، ومن ثم ظهرت إلى الوجود في عصر النهضة. إن حب الأفراد من الطبقات العليا ذات الامتيازات، أي حب الفرسان، قد بعث إلى الحياة جزراً من أسمى العلاقات الإنسانية، فاتحاً بذلك الطريق للمثل العليا للإنسانية.

❖ ❖ ❖

1) - فيرباخ، ل. «المؤلفات الفلسفية المختارة» موسكو.

2)- ماركس، ك. «الأشكال السابقة لأسلوب الإنتاج الراسمالي». موسكو، 1940،ص 20.

3)- إنجلز، ف. «أنتي دوهرينغ». موسكو، 1950، ص 276.

4)- «مسائل علم الجمال». موسكو، الإصدار 3، 1960، ص 458.

5)- ماركس. ك، انجلز. ف «المؤلفات». موسكو، المجلد 23، ص 346.

الفصل السابع

تحولات مزدوجة في السيكولوجيا المعاصرة

1 - مؤثرات في اتجاهين :

ثمة تحولات وتغيرات أليمة ودامية تحدث في عصرنا، في جميع أنحاء الكرة الأرضية. فمنذ الثلث الأخير من القرن العشرين، نشبت في كثير من البلدان أزمات لا سابق لها شملت جميع جوانب حياة الإنسان الشخصية: الانفجار الهائل في حالات الطلاق والانفصال بين الأزواج، انحسار نسبة الولادات بشكل خطير في غالبية البلدان الأوروبية والمتقدمة، تعاظم الأعباء التربوية، وغيرها كثير...

فما الذي يجري الآن على صعيد الحب؟ وكيف يتبدل الحب في عصرنا، عصر التحولات المفصلية الحادة؟

إن المؤثرات الاجتماعية الحالية على الحياة الشخصية تسير في اتجاهين: الأول، تأثير المبادئ والأركان الأساسية التي يقوم عليها المجتمع؛ والثاني: تأثير النمط الجديد للحياة اليومية الذي تحدثه التحولات الجارية في العالم: انحسار النظام الأبوي (البطريريكي)، ولادة الأسرة الحديثة، التمدين والنمو الهائل للمدن الكبرى، الثورة العلمية - التقنية، ومدنية الجلوس الحالية، المدنية «المقعدة».

إن المبادئ الأساسية للمجتمع التعاوني ملائمة للحب ومناسبة له. فاندثار نزعة الملكية الخاصة، وانتهاء ظلم النساء، وولادة النزعة الإنسانية الجديدة، وازدياد عمق الثقافة الروحية، إن كل هذا يبدو

مناسباً ويهيئ تربة ملائمة أكثر للحب. فالمبادئ التعاونية تميل إلى العلاقات الإنسانية بين الناس، ومن حيث المثل الأعلى، تجنح إلى احترام مصالح الآخرين، وإلى التعامل بصورة متماثلة نحو مصالح الذات ومصالح الآخرين.. ومن هنا، نجد تقارباً بين هذه المبادئ وبين الأساس السيكولوجي للحب والأسرة، وهذا التقارب يؤثر تأثيراً إيجابياً على الحياة الشخصية.

وعلى أي حال، فإن تأثير هذه المبادئ من الناحية العملية يتوقف على مدى توجيهها للحياة اليومية، ومدى تجذرها وتعمقها فيها. غير أن نظام اشتراكية الدولة الذي كان قائماً في الاتحاد السوفييتي السابق ودول أوروبا الشرقية، كان بعيداً عن النزعة الإنسانية. فقد بني هذا النظام على اغتراب الإنسان عن السلطة وعن الملكية، وعن حقه في أن يكون سيداً مشاركاً لعمله، ولوجوده، ولحياته المدنية؛ أي عن حقه في أن يكون إنساناً، وليس لولباً في آلية المجتمع. وهذا ما وأد في الناس أفضل قوى الروح والنفس، وشوه المشاعر الشخصية والحياة الأسرية. وقد بدأت الآن تحولات عنيفة جارفة، ولكن، لا بدمن انقضاء سنوات طويلة، قبل أن تتخلص نفوسنا وحياتنا من الرواسب الماضية.

2- تغير أركان الأسرة وثوابتها

هناك تحولات وتغيرات مذهلة تجري في الحياة الشخصية، وهي بمنزلة أصداء للتحولات التاريخية الكبيرة المعاصرة. إن الأزمات التي تمر بها الأسرة اليوم قد نشأت أيضاً عن التناقضات الخطيرة، التي لا سابق لها، والتي تجري اليوم في حياتنا، ولم نجد لها الحلول المناسبة. وقد سادت في هذا المجال، فترة طويلة، الدراسات السطحية، والبحوث الخفرة عن أمراض الأسرة وعلاجها. ومن أجل تغيير هذا الوضع لابد من رؤية جميع جذور الأزمات، وإيجاد المخارج المناسبة لها.

إن الجذر الأول لهذه الأزمات هو الوضع العام للإنسان في الحياة

الاجتماعية. وقد سبقت الإشارة إلى اغتراب الإنسان عن السلطة والملكية، وعن إدارة شؤون حياته. فقد كان الإنسان في النظام البيروقراطي المتسلط محروماً من الحقوق، وقد قمع النظام شخصيته واستقلاليته وروحه. وولد تكراراً وتقليداً جماهيرياً للسلوك الأناني اللا أخلاقي، سواء في العمل أو في الحياة المدنية والشخصية. وهذا ما أدى إلى تشويه نفوس عشرات الملايين، وولد لديهم الشعور بالنقص، وزرع فيها بذور الأنانية والانحرافات المرضية في الحاجات.

وقد تأثرت الأسرة تأثراً كبيراً بالثورة الجبارة، في جميع علاقات الرجل والمرأة، وفي جميع أدوارهما الاجتماعية: الاقتصادية، والمنزلية والمجتمعية والجنسية. فقد تبدلت جذرياً أوضاعهما الاستراتيجية في المجتمع والأسرة. وحل محل تبعية المرأة الاقتصادية والاجتماعية للرجل (وهي التبعية التي تربط المرأة بأوثق الخيوط)، علاقات أكثر تعقيداً من الحرية والاستقلالية المتبادلة.

واندثر النظام الأبوي البطريركي، وظهر ما يعرف بالنظام المزدوج (سيادة الجنسين معاً، بدلاً من سيادة الرجل وحده في النظام الأبوي). وهو نوع جديد كلياً من تنظيم المجتمع، تنظيم جديد لجميع علاقات الرجل والمرأة. وربما تكون هذه الثورة الجبارة، ثورة سيادة الجنسين، من أهم الجسور المؤدية إلى حضارة جديدة - حضارة البشرية الواحدة المتكافئة. غير أن الخطوات التي نخطوها نحو هذه الحضارة لا تزال خطوات غير كافية وغير صحيحة.

لقد أُخرج الرجال والنساء من السكة التي ألفوها طيلة آلاف السنين، وهم يتوصلون، بعذاب شديد، إلى علاقات جديدة كلياً، ويبحثون لأنفسهم عن أدوار جديدة، بصورة عمياء، وبتخبط، لأنهم لا يتلقون من المجتمع، ولا من العلم، المساعدة الكافية.

وثمة انقلاب آخر يولّد أزمات خطيرة في الحياة الشخصية. وهو يكمن في التساؤل الخطير التالي: هل الأسرة في طريقها إلى الموت؟

ورأينا، أن نوعاً واحداً فقط من أنواع الأسرة سيموت، وهو النوع الذي ساد في حياتنا طيلة عشرات القرون، إنه يموت، بكامل حضارته، وأخلاقياته، وعلاقاته المنزلية، ويحل محله نوع جديد من أنواع الأسرة الإنسانية، ونوع جديد من العلاقات الأسرية.

كانت الأسرة القديمة في البداية نواة اقتصادية، ومن ثم نفسية وروحية، وكان الزوجان بحاجة ماسة،أحدهما إلى الآخر، يتعاونان معاً في تنظيم بيت الزوجية، وتربية الأولاد، وفي المركز الثاني، كشخصين متحابين. وكانت العلاقات السيكولوجية في هذه الأسرة تخضع للعلاقات المادية.

أما الآن، فالعلاقات السيكولوجية (النفسية) تحتل مركز الصدارة بوضوح متزايد. حيث يجري الانتقال من الأسرة - كنواة مادية سيكولوجية- إلى الأسرة كاتحاد سيكولوجي مادي. وتتغير أركان الأسرة بتؤدة، حيث تحل الأركان النفسية الروحية في مركز الصدارة بدلاً من الأركان المادية.

إن الأسرة القديمة كانت مشبعة أكثر، بحاجات الناس الأساسية - اليومية، الحياتية، الجنسية والانفعالية. أما الإنسان المعاصر فهو بحاجة لأن تشبع الأسرة على نحو أفضل وأكبر متطلباته وحاجاته الأسمى: السيكولوجية والأخلاقية، والعقلية.

وظهرت لدى الأسرة مسؤولية جديدة، لم تكن موجودة من قبل، وهي إشباع متطلباتنا الأساسية والروحية والنفسية العليا في الآن نفسه. وهذا يزيد إلى حد كبير من متطلباتنا الداخلية، الواحد نحو الآخر، ويضع ملايين الناس في موقف عسير لا سابق له. كانت الروابط الخارجية - الاقتصادية، الاجتماعية والدينية تشد الأسرة القديمة على النحو الأكبر. أما الآن، فقد انضمت أيضاً الروابط والعرى الداخلية، وهي الأكثر هشاشة وحساسية، كمشاعر الناس وعواطفهم، ووعيهم، وتمازجهم، وقدرتهم على العيش المشترك، وواجب الوالدين. وتضعف الآن الأسس القديمة، وتكتسب الأسس

الجديدة قوتها ونماءها،ولكن مع شيء من التأخير؛ ونتيجة لهذا التأخير، حلّت فترة خلت فيها الأسرة من الأسس والأركان، الأمر الذي زاد من تقلقل الأسرة، وضعف أركانها، وقدرتها على الصمود...

وثمة تحول آخر، ترك أثره الكبير على الحياة الأسرية، ويتعلق بتغير وضع المسنين، العاجزين عن العمل. في الزمن السابق، كانت الأسرة هي التي تنفق على معيشة المتقدمين في السن والشيوخ، أما الآن، فالمجتمع هو الذي ينفق عليهم، من خلال الراتب التقاعدي، وبذلك حصل المسنون وكبار السن على الاستقلال المادي عن الأسرة. لكن هذه الخطوة التقدمية كانت لها عواقب قاتمة، وهنا تكمن المفارقة! ولم تلحظ هذه العواقب، وهذا ما ألحق ضرراً كبيراً بتربية الأطفال.

في السابق، كان الأولاد، بالنسبة للوالدين، المعيلين المقبلين لهما، وتأمينهما الوحيد في الحياة. وكانت تحكم تربية الأولاد التغذية الراجعة القاسية: إذا لم تربيا أولادكما على حب العمل والرعاية والعناية بالأهل فستموتان أيها الأب وأيتها الأم. لقد كانت تربية الأولاد على حب العمل ورعاية الوالدين مسألة حياة أو موت بالنسبة لهما، لهذا كانت هذه التربية ركناً أساسياً للأسرة الكادحة.

بالإضافة إلى ذلك، كانت الأسرة خلية إنتاجية. وقد انعكس مناخها الكادح على الأولاد، وطبعهم بطابعه. وقد صاغت هذه الأخلاق الشعبية الكادحة، المهتمة، الراعية للأهل، روحاً كادحة في الأولاد. أما الآن، فقد أصبحت الأسرة خلية استهلاكية. وسقطت من التربية الكادحة، التربية على حب العمل في الأسرة، سقطت قاعدتها الاقتصادية الرئيسة، حيث لم تعد هذه التربية بالنسبة للوالدين أساس مستقبلهما الشخصي، كما لم تعد مسألة حياة أو موت بالنسبة لهما. أما ما يسود في التربية الأسرية الآن، فهي تغذية راجعة مغايرة، أقل قساوة، وهي تغذية ليست اقتصادية الطابع، بل هي تغذية ثقافية، تتمثل في مستوى وعي الوالدين، ومستوى ثقافتهما التربوية.

لقد انهارت التغذية الراجعة القديمة، أما التغذية الراجعة الجديدة، فما تزال غضة، فقيرة، حديثة العهد. وقد لاحظ العلم والمجتمع الهوة الكبيرة بينهما. إن هذا التحول التاريخي الكبير، وغير المدرك بصورة جيدة حتى الآن، قد أصبح أحد جذور أزمة التربية الأسرية الحالية.

في الأسرة تلتقي جميع قوى العالم التي تسيّر الحياة، وفيها تتمركز جميع الهزات الاجتماعية، وتتقاطع جميع تحولات التربة الاجتماعية. لكن العلم والمجتمع لم يلحظا، ولم يتمكنا من رؤية كيفية تأثير التحولات التاريخية الكبيرة الحالية على الأسرة، وكيفية انعكاس تناقضات التقدم الحتمية عليها.

فالعلم والمجتمع لم يؤسسا النوابض الاجتماعية التي يمكنها تقديم المساعدة الحقيقية في الحياة الشخصية، وتسهيل التحولات في الأسرة. فالمساعدة الاجتماعية المقدمة للأسرة (ثقافية، سكنية، مادية، تنظيمية) ضئيلة وعاجزة، ولا تفي بالحاجة. ولا توجد استراتيجية لمكافحة أمراض الأسرة، ولهذا تزداد هذه الأمراض قوة بدل أن تنحسر وتزول.

3- عتلة أرخميدس :

من المؤسف جداً، أن دور الأسرة الاجتماعي لم يُقدر حق التقدير. إننا لا نعي جيداً حتى الآن، أن الأسرة هي من أقوى محركات التقدم أو كوابحه. إنها دعامة فريدة للمجتمع، وهي تقدم له مالا تستطيع الدعائم الأخرى تقديمه. للأسرة أربعة أدوار اجتماعية كبيرة: الأول، هو أن الأسرة هي خلية المجتمع الديموغرافية الرئيسة، فهي المورد الوحيد للأفراد الذين يتكون منهم المجتمع. والثاني، أن الأسرة هي الخلية الرئيسة التي نستمد منها القوى العاملة، أهم دعائم الاقتصاد الوطني بكامله.

أما الدور الثالث، فهو أن الأسرة هي خلية المجتمع التربوية

الرئيسة. ففي الأسرة تحديداً، وفي السنوات الأولى من عمره، ينمو جوهر الإنسان ونفسه ولبه؛ وحسب نموه، الجيد أو السيئ، يتكون المواطن، الصالح أو الطالح.

والدور الرابع والأخير للأسرة، هو أن الأسرة هي خلية سيكولوجية فريدة. والعواطف التي تقوم عليها هذه الخلية، تولّد في نفوسنا القدرة على محبة الأقربين وتقديرهم، كمحبتنا وتقديرنا لذواتنا، ورعاية مصالحهم كرعايتنا لمصالحنا. وإن محبة الآخرين ورعايتهم كرعاية ومحبة الذات هما أساس النزعة الإنسانية.

لهذا كله، يمكن للأسرة أن تكون مصدراً قوياً للنزعة الإنسانية. ففي الحياة اليومية، وفي الحياة الشخصية، يمكن للأسرة أن تقدم للأفراد ما تقدمه، في المجتمع، المثل العليا والمبادئ السامية لتنظيم الحياة، التي أبدعتها الإنسانية خلال تاريخها الطويل. إن الأسرة هي الحليف الطبيعي لهذه المثل العليا، وأحد أعظم مطبقيها في الحياة والواقع.

ولهذا، تتوقف مسيرة التقدم الإنساني كلها على الأسرة، بدرجة أكبر من توقفها على الإنتاج والعلم والعلاقات الدولية معاً. لكن المجتمع ينفق على «سعادة الناس في حياتهم الخاصة» من القوى والموارد أقل بعشرات المرات مما ينفقه على العمل والإنتاج. وهو بهذا، يضعف الأسرة، وبالتالي يضعف جميع مؤسساته وجوانبه الأخرى، دون استثناء.

فكيف يحصل هذا الارتداد؟ إن الأسرة والتربية (ما قبل المدرسية والمدرسية) هما بمنزلة «الإنتاج الروحي - التربوي»، الذي يكوّن الإنسان، باعتباره الشخصية المركزية لجميع نواحي المجتمع: فهو المحرك الرئيس للعمل، وهو الباني الرئيس للعلاقات الاجتماعية والصانع الرئيس لظروف الحياة والأسرة. أننا أمام هذه الأسرة، كأننا أمام مفتاح المفاتيح، فالأسرة مفتاح جميع جوانب الحياة.

لهذا، يجب أن تكون الأسرة والتربية أحد أهم مراكز الاهتمام الرئيسة العملية للمجتمع، والتي لا تقل أهمية عن أي جانب آخر من

جوانب الحياة. وهذا الاهتمام يجب أن لا يكون بالأقوال والتنظير، بل بالأفعال والأعمال، بحيث تقدم للأسرة وللحياة الخاصة موارد لا تقل عن الموارد التي تقدم للحياة الاجتماعية. وهذا يتطلب وضع استراتيجية جديدة خاصة لبرامج المساعدة الاجتماعية المخصصة للأسرة.

إن المساعدة الجزئية، الضئيلة، غير قادرة على تخليص الأسرة من عللها وأمراضها المزمنة. ومن غير الممكن التخفيف منها إلا بالعمل بآن واحد، وبصورة منتظمة، على مكافحة جميع أمراض الأسرة. وهنا، لا بد على الغالب، من مساعدة شاملة للأسرة تشمل جميع جوانب حياتها: السكنية، المادية، الاقتصادية، التربوية، الثقافية، التنويرية والتنظيمية.

وهذه المساعدة يجب أن تكون أكبر بكثير مما هي عليه اليوم: وبدون هذه المساعدة، لن تتمكن الأسرة - برأينا - من النهوض من كبوتها ومن السير في طريق الانهيار. إن إعادة بناء استراتيجية للأسرة، يجب أن تكون عملية بناء ثورية، مثلها مثل إعادة بناء الاستراتيجية السياسية والاقتصادية.

4- «انفجار التحولات» و«إفقار» العواطف

كيف تؤثر هذه التحولات الاجتماعية المعاصرة على عواطفنا؟ وكيف تؤثر التحولات العالمية الأخرى كالثورة العلمية - التقنية والثورة المعلوماتية وظاهرة المدن الضخمة العملاقة، وظاهرة التمدين urbanization، ومدنية الجلوس وراء المكاتب؟ إن هذه التحولات وغيرها هي خطوات انقلاب عظيم في الحضارة العالمية، وهي تحمل في طياتها انقلابات مذهلة وتبدلات جذرية في نمط الحياة اليومية بكامله.

ولعل التحول الأول ضمن هذا النسق هو ما يمكن تسميته بـ«تفجر التحولات». فوتيرة الحياة تتسارع بصورة مذهلة ومطردة، ويتزايد عدد التحولات والتغيرات التي تحدث في وحدة زمنية معينة: ففي العام الواحد تحدث الآن تغيرات وتحولات أكثر مما كانت تحدث في عقد بل

في عقدين اثنين من السنين. إن تفجر هذه التحولات والتبدلات يحمل في طياته تيارات من الأشياء الجديدة تثري الإنسان وتزيد من رفاهيته، لكنها تزيد من الضغوط العصبية عليه.

إن النفس الإنسانية تخضع اليوم لحزمة من هذه الضغوط التي لم تعرفها من قبل في السابق. ومن أجل حماية نفسها من الانحلال والتفتت، تبدأ النفس الإنسانية بتقنين قواها العصبية. فهي تفرز الآن نسبة أقل من هذه القوى لكل إحساس، ولكل معاناة، ولكل عاطفة. وفي كل استجابة عصبية، يمر الآن قدر أقل من الطاقة العصبية، وتنشأ في لا شعور الإنسان آلية سيكولوجية جديدة، وهي آلية إضعاف الانفعالات وإخمادها. وهي تدخل في عداد الآليات الجديدة للنفس البشرية، التي تسيرها وتوجهها بصورة متزايدة.

وهذه الآلية تخلّص النفس البشرية من اختلال التوازن، لكن العواطف الإنسانية تضعف نتيجة هذه الآلية وتصبح أقل تركيزاً، وأقل انفعالية، وأكثر عقلانية وتفكيراً من السابق. ***وهذا الإفقار للعواطف هو التحول الأول، السلبي في السيكولوجيا المعاصرة***. إنه ثمن ندفعه لقاء تكيف أعصابنا مع الوتيرة السريعة المجنون الحالية للحياة. وإذا ما تسارعت هذه الوتيرة أكثر في المستقبل، فإن عواطفنا ستزداد فقراً، بصورة أكيدة.

منذ بضعة سنوات، أجرى علماء الاجتماع في إستونيا استفتاء، حيث طرحوا على طلاب جامعة (تارتو)، السؤال التالي: ما هو الأمر الرئيس والهم في الحياة الأسرية. وقد احتل المركز الأول في أجوبة الطلاب: الاحترام المتبادل، ثم السكن، فالتفاهم، فالثقة، فالأطفال. أما الحب فقد جاء في المركز السادس. وهذه الإجابات جاءت من الطلاب الشباب، الذين يتميزون باتقاد العواطف وتدفقها...

يتزايد عدد الأفراد المنطقيين، العقلانيين باطراد، ويغدو الإنسان العقلاني أحد الأنماط الرئيسة الإنسانية. ومثل هذا الإنسان أسوا تكيفاً

مـع الحيـاة الأسـرية، كمـا أن تعلقـه بـالأقرباء أضعـف؛ وجميـع عواطفـه: كعواطف الحب، والصداقة، والعواطف الوالدية، وعواطف القربى تتقلص باستمرار، وتفقد الكثير من عمقها واتساعها. وهـذا أمـر خطـير، يلحق بالحيـاة الشخصية مصـائب وكوارث جديـدة، لا سـابق لهـا، بدأنـا مؤخـراً بإدراك اتساعها وأبعادهـا...

5- حسب قانون عمر الآخر

إن المعارف، وتحديداً، المعارف المعلوماتية والمنطقيـة، تتواجـد فـي طبقـات خاصـة مـن عـالم الإنسـان الداخلـي- فـي طبقـات العقـل وليـس القلـب. وقـد تتقـاطع مـع العواطـف، وتخضعـهـا، لكنـهـا تكـون علـى الغـالب، محايدة تجاهها.

إننا نحب بعواطفنا، ونعرف ونتعلم بعقلنا، وعندمـا يحـب الإنسـان شخصاً آخر، فإن المجال الانفعالي العاطفي يبعد مجال العقل، وكما قـال الكـاتب الفرنسـي (لا روشـفوكو La Rochefoucauld): «إن العقـل دائمـا خاسر أمام القلب».

يمكن للمعارف والمعلومات بالطبع، أن تعيق العاطفة الضعيفة، التي لا تتمتـع بعدسـة مزدوجـة قويـة. ولكـن، كلمـا كـانت العاطفـة أقـوى، كلمـا ضعف دور المعارف في توجيه الإنسـان. وهنـا يكمـن، علـى الغـالب، قـانون النفسية السيكولوجية الإنسانية.

على أي حال، يمكن للمعرفة أن تضر بالعاطفة القوية في حـالتين: وذلك بأن تجعل من المعرفة المجردة (المعدومة الصفات الشخصية) معرفة شخصية، وأن تعلمن المعرفة العامة (بشكل عام) معرفة عن هـذا الإنسـان المحبوب. وهذا ما يحصل في الحب الفاشل أو البـائس، أي الحـب الـذي يصطدم بمعرفة عيوب الشخص المحبوب: وهنـا المعرفـة تصبـح عاطفـة: معرفة - ألم، معرفة - حنين؛ وما إن تصبح هـذه المعرفـة عاطفـة، يمكنـها أن تلحق الضرر بالعاطفة...

إن القدرة أو عدم القدرة على الحب لا تتوقف على كمية المعارف التي يمتلكها الفرد، بل على نوعية نفسيته،وسيكولوجيته، على مدى عمق نفسه أو سطحيته، على مدى تمركزه حول ذاتهegocentrism أو انفتاحه على الآخرين.

لكن العقلانية المفرطة عند البعض تجعل نفوسهم خاسرة، فيبدون وكأنهم يبتزون من نفوسهم، يجتثون منها الميل والانجذاب إلى الآخرين، ولا يسمحون بأن تنمو في ذواتهم الأنا الغيريةegoaltruism .

والعاطفة، لدى مثل هؤلاء الأشخاص، تكون بمنزلة أفكار مجمّعة في عبوة انفعالية عاطفية، إنها الأفكار التي تغلغلت إلى داخل العاطفة، وبدلت لحمتها الانفعالية بلحمة عقلانية. والوعي عندهم يغزو مناطق غريبة، مناطق الغير، ومن أصل جانبي النفس - الجانب المفكر والجانب الحساس - يبقى لديهم الجانب المفكر وحده. وهذا يحدث عادة، لدى الشخص الهرم، كبير السن، حيث تضعف عنده العاطفة، وتغدو نفسه مفكرة أكثر مما هي عاطفية ، ذات إحساس عاطفي.

إن النزعة التفكيرية والعقلانية هما هرم مبكر للنفس، والإنسان - العقل يعيش هنا، حسب قوانين العمر الآخر. كما أن الهرم المبكر السيكولوجي قد يؤدي إلى هرم وعجز جنسي. إن هذا الهرم المبكر النفسي، ومثل هذا العيش حسب قوانين عمر آخر يصيبان الآن أعداداً متزايدة من الناس. وهما يشكلان كسراً جماعياً في سيكولوجية الإنسان المعاصر، ويؤثران تأثيراً سلبياً أليماً على جميع جوانب حياته.

6- العدو الثاني :

تلك هي الحلقة الأولى من السلة التي تقيد اليوم المشاعر والعواطف الإنسانية. وتضم هذه السلسلة حلقات أخرى، متناقضة غالباً، وهي تفرض نفسها على نفسيات الناس من الجانب غير المتوقع.

لقد بين لنا علماء النفس، أن أعصاب الإنسان تسعى إلى تحقيق

أفضل مستوى من الإثارة بالنسبة لها، وهي الإثارة المثالية. فإذا كانت أعصاب الإنسان ضعيفة الاستثارة (كما هي الحال لدى الأشخاص من ذوي المزاج البلغمي phlegmatic) فهو بحاجة على مستوى أعلى من المثيرات في الحياة. أما إذا كانت أعصاب الإنسان قوية الاستثارة، أي مستثارة بشكل قوي، (كما هو الحال بالنسبة لذوي المزاج السوداوي melancholic، أو ذوي المزاج الصفراوي choleric)، فهو بحاجة إلى مستوى أقل من الاستثارة، نظراً لأنه يَتعب بسرعة أكثر من الآخرين.

إن التواصل الشخصي يجتذب جميع قوى الإنسان الروحية، وهو تواصل صدامي بصورة كاملة، يتكون من تناقضات دائمة وآراء متضاربة، ورغبات متعارضة. أما التواصل غير المباشر، التواصل غير الشخصي (في المسارح وقاعات المحاضرات) فلا حاجة لأن تقرر، أو أن تعطي شيئاً. فالمشاهد عليه فقط أخذ الانطباعات، والمشاركة في المعاناة لمصائر الآخرين، عليه، هنا، أن يستهلك، لا أن يخلق ولا أن يبدع. وهذا يتطلب حداً أقل من القوى الروحية والعمليات النفسية، وبالتالي فمن لا تتوفر لديه هذه القوى بصورة كافية، يختار لنفسه، دون تعليل، وبصورة لا شعورية، طرقاً أسهل، يختار طرق المقاومة الأقل، كما يقول علماء الفيزياء.

لكن توفير القوى الروحية والعمليات النفسية هو طريقة مرتدة، ترتد على صاحبها بالكثير من الألم: إنها لا تعزز القوى الروحية ولا تقوي العمليات النفسية، بل على العكس، تزيد من ضعفها. وهنا يظهر أثر ومفعول الطاقة الحيوية (قاعدة العكس) - فالإنسان عندما يعطي فهو، بالتالي، يأخذ، أي أنه يدرب، ويقوي ويعزز وتائر روحه ونفسه. أما في عملية توفير القوى وتقنين العمليات فهو لا يدربها، وبالتالي يضعفها.

إن أخطار مثل هذه الحياة واضحة وجلية: فالإنسان الذي يسبح مع التيار يسهل عليه الوصول إلى الضفة، إلى المكان الضحل، أكثر من الوصول إلى الهدف. وإذا لم تقم المرأة الشابة بمقاومة عدم تواصلها، فإن العزلة القاتلة تهددها وتتحكم بمصيرها.

إن عدم التواصل، والتواصل الجزئي - هو خاصية جماهيرية جديدة لسيكولوجية الأفراد اليوم، إنها العدو الثاني للحياة الشخصية. وهو ناشىء عن ضعف العواطف والتعاطف، أي ضعف الميل إلى الناس الآخرين وتفضيل التقوقع على الذات، وعن الشعور الخفي بالنقص، وبالخوف من معاملة الآخرين معاملة سيئة، ومن عدم حيازة ثقافة التواصل. في المجتمعات الزراعية، كان يسود فن تواصل طبيعي، أشبه بالطفولي. وهو ناشىء عن الصراحة والشفافية، وانفتاح الروح والقلب. وقد اختفى فن التواصل الطبيعي هذا من حياة المدينة المعاصرة. أما فن التواصل الجديد الذي نشأ حديثاً في المدن، فهو فن مصطنع، قائم على المهارات، ولم يتمكن بعد من أن يحل محل التواصل الطبيعي السابق أو أن يؤدي دوره.

7- «انفجار التواصل» وشخصية الفرد :

إن انفجار التحولات، وهو وليد الثورة العلمية - التقنية، والتأثير السيكولوجي للعلم على الإنسان - هما عتلتا الحياة المعاصرة الجديدتان، اللتان تجعلان الإنسان عقلانياً، وتفقرانه عاطفياً. فكيف يؤثر على الأشخاص «تفجر التحولات»، الذي جلبته حياة المدينة المعاصرة؟.

لقد أحصى علماء الاجتماع الإنكليز، أن لدى المواطن المتوسط عدد من المعارف المشتركة يتراوح بين خمسمائة إلى ألف شخص. وهذا أمر يمكن أن يوسع أفق الأفراد، ويعمق التواصل فيما بينهم. لكن «انفجار التواصل» يقزّم غالبية هذه الاتصالات، ويفقدها عمقها ودفئها. أما الاتصالات «الطائرة»، السريعة، اليومية مع آلاف الأشخاص، في الشارع، في المحلات التجارية، في وسائل المواصلات -فهي تزدري الأعصاب وتستخف بها بصورة حادة، وتعزز تيارات الانفعالات الشاقة الأليمة. كذلك يزدري الأعصاب ويسيء إليها كل من «انفجار المعلومات»، وضجيج المدن، وتلوث الهواء، والانفصال عن الطبيعة.

وقد أثبت الأطباء الأمريكيون، أن ضجيج المدن ينتقص من صحة السكان، ويعمل على تسريع الهرم المبكر، ويقلص من عمر الإنسان بمعدل عشر سنوات. وكشف العلماء اليابانيون، أن الإنسان، في الطبيعة، وفي الغابات، يستعيد ويجدد قواه العصبية والجسدية بسرعة اكبر بمقدار 60٪ من ظروف المدينة، وتزداد قدرته على الاحتمال ويشتد تركيزه الذهني. وهذا يعني، أن الانفصال عن الطبيعة يؤدي إلى تردي عمل وفعالية أعصابه بما يزيد على النصف، هذا دون الحديث عن عيوب المدينة الأخرى.

ورداً على هجمات المدينة، تخلق سيكولوجية الإنسان خطاً دفاعياً آخر. حيث يبدأ الدماغ بصياغة قوالب وأنماط انفعالية، واستجابات متماثلة تجاه الأفراد والأشخاص المختلفين، وإشارات جديدة للحياة. وهذه أيضاً تصون قوانا العصبية وتحافظ عليها، نظراً لأن الاستجابات المألوفة تستهلك دائماً قدراً أكبر من الطاقة.

يبدو أنه، تتقولب عند الناس جوانب كثيرة من حياتهم العصبية، وهذا ما ينقذ حياتهم العصبية من الانهيار، وينقذ قوانا العصبية من الاستهلاك المفرط، لكننا ندفع غالياً ثمن هذا الإنقاذ، وهذا التقولب. فعواطفنا تتجرد من صفاتها الشخصية، وتفقد تنوعها وتميزها الشخصي. وتجرُّد العواطف من السمات الشخصية هو التحول الثاني الخطير (بعد إفقار العواطف وعقلنتها) في سيكولوجية الإنسان المعاصر.

إن الفيضان الحالي من التواصل البشري يفتقر كثيراً إلى الروح، يفتقر إلى التواصل العميق، القلبي، الشخصي. وضمن إطار الأسرة الواحدة، يتناقص تواصل أفراد الأسرة فيما بينهم، وهم يتواصلون أكثر مع التلفزيون والراديو والصحف والانترنيت.

ويتمتع السكان الآن، وبخاصة سكان المدن، بوفرة كبيرة من أشكال الاتصالات وأنواعها: لديهم الكثير من الاتصالات «الجماهيرية»، مع

أركان المجتمع الإعلامية والفنية، ولديهم الكثير من الاتصالات «الدورية» - القائمة أساساً على الأدوار الاجتماعية- شبه الشخصية واللاشخصية، كدور العامل، والموظف، والمشتري، والمسافر، والبائع، الخ.

إن المدن تنمو الآن بصورة عاصفة، وإذا لم تتوقف عن النمو، فسوف تنمو أكثر بصورة كارثية قاتلة. إن حوالي ثلثي أو ثلاثة أرباع السكان، في غالبية البلدان، يعيشون في المدن الكبرى. يتزايد باطراد عدد المدن الكبرى التي يزيد عدد سكانها على المليون نسمة. حيث تتعاظم فيها سلبيات المدن، باطراد، مع ازدياد مساحاتها وأعداد سكانها.

وتلحق الاتصالات اللا شخصية ضرراً كبيراً بجميع الصلات والعلاقات الشخصية، كما تزعزع دعائم الأسرة التي تقوم، تحديداً، على العلاقات الشخصية، العميقة، القلبية، الصادقة، التي تجتذب الإنسان وتشركه فيها ككل. إن فائض العلاقات والاتصالات «الجماهيرية» يقلقل جزيئات الأسرة ويفتتها إلى ذرات متنافرة، بعضها عن بعض.

إن الاتصالات الجماهيرية النمطية لا تجتذب ولا تشرك الإنسان ككل، بل تجتذب جزءاً منه، حيث تشارك في هذه الاتصالات الطبقات السطحية، الخارجية من نفسياتنا وسيكولوجياتنا، أو أجزاء منها، كحب الاستطلاع، والفضول، والذاكرة، والمعرفة والاهتمامات... وهي تقريباً لا تمس أعماق النفس الإنسانية، وهذا يؤدي إلى تجريف الشفافية الصادقة القلبية للعلاقات الشخصية، ويجعلها سطحية نمطية، ذات وتيرة واحدة.

وقد اثبت علماء النفس، أن الأحاديث العائلية بين ذوي القربى، تدور غالباً حول المعلومات الخارجية، والجزئيات والأخبار اليومية الجارية. ومثل هذه الأحاديث لا تتطلب توتراً نفسياً، وهي لا تمس أعماق الإنسان. وهنا، من جديد، تتراجع شخصية الإنسان الحية، الحساسة المفكرة، إلى الوراء.

8- المدينة الكبرى والمدنية الجماهيرية :

لقد نشأ في القرن العشرين مجتمع جماهيري لا سابق له في التاريخ، وظهرت حضارة الاتصالات الجماهيرية العظمى. إن حياة سكان المدن كلها تقريباً تجري بين الحشود: في الشوارع، في المحلات التجارية الضخمة، في المواصلات، في أماكن العمل، في أماكن الترفيه وفي المطاعم والمقاهي. وحتى المنزل، تحاصرنا الحشود الجماهيرية من على شاشات التلفزيون، وعلى صفحات الجرائد.

إننا نمارس وجوداً على خط تجميع بشري في هذه الكتل البشرية الهائلة، نعيش فيها لا كأفراد ولا كشخصيات، بل كوحدات بشرية بلا شخصية: مسافر، مشتري، زبون، مشاهد، عابر، منتج، مستهلك... إن الحياة على خط سير الإنتاج تحمل في طياتها تجريد الأفراد الجماعي من شخصياتهم، وتحويلهم إلى متوسطات جماهيرية من النفوس والعواطف. وكلما زادت أعداد الحشود في حياتنا اليومية، كلما عاني الإنسان أكثر من الوحدة والعزلة في الحشد، وكلما زاد هذا من أنانيته.

إن المدينة الحالية اليوم معادية للمثل العليا التواصلية الإنسانية، معادية لتحالف الإنسان والجماهير، معادية للنمو الإنساني لشخصية كل فرد على حدة وجميع الأفراد عامة. فهذه المدينة الحاشدة تخلق نمط حياة يفرق بين الناس ويقمع شخصياتهم.

منذ عصر الرأسمالية، بدأت المدن تنمو حول المراكز الصناعية، وتجمعت حول هذه المراكز حشود هائلة من الناس، وشُغلت من أجلهم، مساحات هائلة من الأراضي. إن المدينة قائمة، بادئ ذي بدء، كحاوية للإنتاج، وحياة أبناء المدن لا تقوم على نموهم وتطورهم الطبيعي الحر، وتحالفهم الودي، وصداقاتهم وتآلفهم، بل ترتكز على عملية الإنتاج والاستهلاك.

الإنسان، بالنسبة للمدينة الحديثة المعاصرة، هو بادئ ذي بدء، «صورة نمطية»، إنه مشارك في عمليتي الاستهلاك والإنتاج، ثم بعد

ذلك، وفيما تبقى، هو إنسان وشخصية. إن حياة المدينة تفصل الإنسان عن الطبيعة، وتفصله عن الناس الآخرين، كما تفصله عن أفضل شيء في ذاته - تفصله عن الجانب الأكثر إنسانية، والأكثر عمقاً وإبداعاً في نفسه.

وتتميز المدن الكبرى بحب العظمة، وتلويث البيئة، وتجميع الحشود... إنها تتصف بتراكم جماهير الناس، واغتراب الشخصية، والانفصال عن الطبيعة، وإخضاع الحياة للإنتاج والاستهلاك وليس للنمو النفسي الحر والتحالف والتآلف الودي بين الأفراد، تلك هي الخصائص المميزة لحياة المدن الكبرى اليوم.

إن المدن الكبرى، بضخامتها، تسمم إحساس الإنسان بذاته، وتبعث فيه الشعور بالحرمان، والنقص والصغر. كما أن عمارة المدن، بنمطيتها، تلوث لا شعورنا، ليلاً ونهاراً، بإشعاعاتها، إشعاعات النمط الواحد من الأبنية الضخمة، العملاقة.

إن المدينة الصناعية، بطبيعتها، هي آلة باردة، بلا روح، للسكن والعمل. وقد ورثناها عن الرأسمالية، وعلينا الآن بناء مدينة جديدة كلياً: مدينة - صديقة، مدينة - غابة، لا آلة للعيش، بل واحة للحياة الحقة. فالمدينة الصناعية تتعارض، بشكل صارخ، مع سيكولوجية الإنسان، ومع أخلاقياته، ومع الحاجات الطبيعية لنفسه وروحه وجسده. و«الطبيعة الثانية» للمدينة الصناعية، بكامل بنيتها وتركيبها، من حرمان الإنسان من شخصيته المميزة إلى فصله عن الطبيعة، هي معادية للطبيعة الأولى، ومعادية لطبيعة الإنسان.

ومما يدعو للأسف، أننا نسينا، أن الطبيعة هي المهندس المعماري العظيم للمشاعر الإنسانية، وهي مبدع نفوسنا وأمزجتنا وطباعنا. والطبيعة هي التي تعلم الناس، بصورة غير ملحوظة، القيم الأخلاقية التي نحن بأمس الحاجة إليها، كحاجتنا إلى الهواء. الطبيعة تعلمنا أن نكون طبيعيين، منفتحين، الواحد نحو الآخر، تعلمنا أن نحب الحياة،

ببساطة وبلا شروط، وأن نقدر، بكامل روحنا، فرحاتها البسيطة ومسراتها العفوية التلقائية.

إن الطبيعة تساعد الناس في المحافظة على طفولة النفس وبراءتها، وعلى عمق النفحات المضيئة. وكما أن الانفصال عن الطبيعة يسلب من الإنسان شخصيته، فالاتحاد مع الطبيعة، بالمقابل، يساعد الإنسان على استعادة هذا العمق الطبيعي والألق الطبيعي لشخصيته وروحه.

9- ما هي الشخصية ؟

إن مصطلح «شخصية» يحمل معنيين. الأول، هو المعنى الأساسي، ويرجع إلى القرن التاسع عشر. فالشخصية، هنا، هي الإنسان بشخصه، بوجهه، الذي لا يشبه الآخرين، وهي ما يعرف بالفرنسية Personalite. أما المعنى الثاني، فقد ظهر في علم الاجتماع والفلسفة المعاصرة، ويقصد بالشخصية، هنا، السمات السيكولوجية المميزة للفرد، وسبيكة خصائصه الفيزيولوجية والسيكولوجية التي تميزه عن الآخرين. وبالنسبة لعلم الاجتماع والفلسفة، تعني الشخصية: الشخصية الاجتماعية، أي التفرد السيكولوجي على أساس اجتماعي، وتميز الإنسان، عن غيره، كمشارك في الحياة الاجتماعية، وكمنفذ لأدوار اجتماعية[1].

ورأينا، أن مصطلح «الشخصية»، يمكن استخدامه بالمعنيين الاثنين معا. فهو يعني، بشكل جيد، أي تميز شخصي للإنسان، سيكولوجياً كان أم اجتماعياً.

الشخصية: هي وجه الإنسان السيكولوجي والاجتماعي، هي طريقته في التفكير والإحساس والإدراك، والحديث والتصرف والسلوك. إنها سبيكة خاصة لدى كل إنسان، تتكون من جميع سماته وخاصياته الرئيسة: السيكولوجية والأخلاقية والعقلية والعلمية. إنها النمط الخاص للإنسان من الطباع والمزاج، والإحساس بالعالم، وإدراك العالم، والنظرة

إلى العالم؛ إنها النمط الخاص بالإنسان، من الحاجات والاهتمامات والآراء والسلوك[2].

وباختصار، فالشخصية هي بمنزلة مقطع عرضاني لذلك التنوع الذي يتشرب روح الإنسان ونفسه وعقله، ويلون بلونه جميع أفعاله وآرائه ونفسيته. إنها بمنزلة قائد «مايسترو» لغرائزه وعقله، ومحرك لنفسه وسلوكاته، وكأن الشخصية حكومة داخل الإنسان، توجه أسلوب حياته كلها.

هل يمكننا اعتبار كل إنسان شخصية؟ يبدو، أن الإنسان الذي يعد شخصية هو ذلك الإنسان الذي يتغلب فيه تميزه الشخصي على النمطية، والقولبة النموذجية، وانعدام الشخصية. وهل من المفيد، حقاً، أن يكون الإنسان، دائماً، شخصية؟ إن كون الإنسان شخصية لا يعد مديحاً، دائماً. والسؤال هو: أي شخصية هذا الإنسان، وماذا يريد؟ وما هي أهدافه؟...

10- عمى نوابض الطوارئ:

بيّنا، أن الثورة العلمية - التقنية ونمو المدن وتضخمها تحمل لنفسية الإنسان الضرر أكثر من الفائدة. فكيف تؤثر علينا حضارة «الجلوس» وراء المكاتب؟ _ وهي ركن آخر من أركان الحياة العصرية!...

إن مدنية «الجلوس» تمنع الناس من الحركة، وتحمل في طياتها انفجار قصور الحركة hypodynamy أو انعدامها. إن الأعباء الجسدية، الحالية لا تشكل لدى كثير من الناس سوى خمسة أو عشرة أو عشرين بالمائة من الأعباء الجسدية المعيارية (أي المعدل المطلوب من الأعباء الجسدية). ويقترن نقص الحركة الجسدية بوفرة وإفراط الأعباء العصبية. وهذا «المقص» الجديد، بقطبيه - نقص الحركة الجسدية وكثرة الأعباء العصبية - يلحق ضرراً كبيراً ومؤلماً بصحة الإنسان وأعصابه. وفي البلدان المتقدمة، حيث يكون هذا «المقص» مرهفاً وحاداً جداً، وابتداء من منتصف القرن الماضي، تضاعفت حالات العصاب أكثر

من(24) مرة.؟ وحسب بعض المعطيات، يعاني الآن من العصاب حوالي 85٪ من سكان هذه البلدان.

من المعروف، أن التفريغ البدني هو أفضل طريقة للتخلص من الإرهاق العصبي. وليس من باب العبث، أن الأطفال الصغار، عندما تتقلب أهواءُهم، يضربون الأرض، ويخبطون بأقدامهم، بل ويسقطون على الأرض. وعلى هذا النحو تفرغ عضوياتهم الطاقة السيئة والشحنات الزائدة للإثارات والتهيجات. وهذا يعني أن الشحنات العصبية والجسدية يجب أن تتبدل بتناسب طردي - كلما ازدادت الواحدة منها كلما وجب أن تزداد الأخرى، لكنها تتبدل بتناسب عكسي، وفي مفارقة منعكسة - كلما ازدادت الشحنات العصبية نقصت الشحنات الجسدية.

وهذا مرض خطير آخر من أمراض الإنسانية، وتنافر قاس آخر للمدنية المعاصرة مع الطبيعة الإنسانية. وقد نشأ عن النمو الاجتماعي الملتوي - تقسيم العمل الجديد بين الإنسان والآلة، ونقل الكثير من الأعباء العضلية الجسدية إلى الآلة، وهي الأعباء التي لم تعوض بأي شيء. وعدم التعويض هذا قد خفّض عشرات المرات من أعباء الناس الجسدية، في حين أن الحياة العصابية التي نعيشها تزيد عشرات المرات من الأعباء العصبية.

لقد كان توازن الأعباء الجسدية والعصبية يوجه الإنسان ملايين السنين، وكانت الضغوط الجسدية إحدى الدعائم الإنمائية الرئيسة للحياة الإنسانية. إن انعدام الحركة، وقلة الحركة يهددان أسس وجودنا، ويضربان جذور التطور البشري.

إنه أشبه بنظام حمية رؤوف، نظام معد لإنسان عجوز هرم أو إنسان مريض. لكن هذا النظام، المعد للشيوخ وكبار السن، قد سيطر فجأة وغزا الناس من جميع الأعمار، وأصبح قاعدة لغالبية الناس الراشدين، والشباب والتلاميذ... هذا في حين أن الحياة بأسلوب الشيوخ قد أصابت الأعصاب بالعدوى، وأكسبتها ملامح الشيوخ، الضعف

المرضي، وضعف مقاومة الأمراض. هذا في حين أن أعصاب الناس الآن لا تعيش وفق نظام الشيوخ، بل وفق نظام المراهقة، نظام التوتر والاحتدام، والثورات والإعياء. وهذا يعني أن حياة الإنسان المعاصر تتكون من نصفين غريبين: حياة المراهقة العصبية، والحياة الجسدية للشيخ المريض. فكيف يؤثر هذا التحول غير الطبيعي على عواطفنا، على نفوسنا، وعلى أخلاقنا؟

عندما يعاني الإنسان من الإرهاق العصبي ، فإن القسط الأكبر من قواه العصبية يستنزف في معايشة ومعاناة هذه الإرهاقات. ولا يبقى من قواه العصبية إلا الجزء اليسير للإهتمام بالآخرين، وللتعامل معهم، «كما يتعامل مع ذاته». ونتيجة لذلك، يصبح الإنسان المعاصر ***اكثر تمركزاً حول ذاته واكثر انانية***. وهذا تحول آخر خطير، إضافة إلى إفقار عواطفه وتجرده من شخصيته، في السيكولوجيا الإنسانية المعاصرة.

إن الثورة العلمية - التقنية، والتمدين، وحضارة «الجلوس»، هذه كلها قد ولدت في عصرنا هذا، حالة توتر يومية دائمة. ولا نبالغ أبداً إذا قلنا أن الإرهاقات العصبية لم تكن في يوم من أيام تاريخ الإنسانية، بهذه القوة والتصعيد، كما هي عليه اليوم. وأصبحت الحياة اليومية موترة للأعصاب بنفس الدرجة. قد تكون الحروب العالمية وحدها قد خلقت في مؤخرات الجيوش مثل هذا المناخ، الذي يسيطر علينا اليوم في أيام السلم الآن.

لقد ولّدت الثورة العلمية - التقنية، وحضارة «الجلوس» أشكالاً جديدة كلياً من التناقضات الاجتماعية. وهي تؤثر على الناس بصورة خفية غادرة، من الجانب غير المألوف، ليس من خلال الوعي أو الشعور، بل تؤثر على عمل أعصابنا من خلال اللاشعور.

إن إضعاف العواطف وتجريدها من شخصيتها، وتنامي نزعتها الأنانية وتمركزها على الذات -إن هي إلا وسائل دفاع بيولوجي يلجأ إليها الإنسان، إنها سلاح تطوري، يحفظ لنا سيكولوجيتنا من الانحلال

والتفتت. لكن هذا السلاح، أليس سلاحاً أعمى؟ أوليس أكثر شراً من الشر الذي يحمي الإنسان منه؟ أوليس أسوأ من المرض نفسه؟

هذه الآلة الدفاعية الطبيعية ولدت أصلاً في عالم الحيوان، وكانت هي الحماية الرئيسة من الموت المحدق، الكامن في كل مكان، حيث كانت الوثبة السريعة الخاطفة، دون تفكير، هي وحدها المنقذة من براثن الحيوانات القاتلة. وهذه الآلية فعالة ومنقذة، عند الإنسان أيضاً، حيث يدور الصراع لا من أجل الحياة، بل من أجل الموت. لكن مبدأ المنفعة القريبة، في الحياة اليومية العادية، غالباً ما يكون هو مبدأ الضرر البعيد.

وعندما لا يرى المرء أبعد من أرنبة أنفه، عندما لا يرى إلا مسافة خطوة واحة إلى الأمام، ولا يرى ما وراءها، فإن الفائدة التي حققها اليوم، ستتحول إلى خسارة غدا. وهذا النصر التكتيكي سيؤدي إلى هزيمة استراتيجية. وهذا، على ما يبدو، قانون عام في الحياة، يوجه جميع جوانبها وشؤونها: من صحة الإنسان إلى إدارة المجتمع.

إن توفير الطاقة العصبية اللا شعوري لا يزيد من قوة هذه الطاقة بتوفيره وتقنينه، بل يضعفها، ويجعلها عليلة، سقيمة. وبإنقاذه لنا من مطبات، يقودنا هذا التوفير والتقنين إلى مطبات أخرى، أكثر عمقاً، وأشد ضرراً. إنه طريق مسدود، وسطح منحدر، يقود إلى أفول قوى الإنسان وضعفها.

11- على من تؤثر الإرهاقات العصبية ؟ :

يبدو أن الإرهاق العصبي يؤثر على أبناء المدن أكثر من تأثيره على أبناء الريف، كما أن تأثيره أكبر على أبناء المدن الكبرى، حيث وتيرة الحياة محمومة أكثر، وحيث ضباب دخان التمدين smog أكثر كثافة.

إن مشاعر النساء والرجال تتأثر بصورة مختلفة، على الغالب، من الإرهاق والتوتر. ففي سيكولوجية الرجل يكون الجانب العقلاني أكثر قوة

منه في سيكولوجية المرأة، بينما يشغل الجانب الانفعالي عند الرجل حيزاً أقل. ونتيجة لذلك، تتعقلن المشاعر والأحاسيس عند الرجل، بصورة أسهل وأعمق، في حين أن مشاعر النساء تخضع أكثر للإرهاق والتوتر العصبي، وتعاني منه أكثر.

ويبدو أن الإرهاق والتوترات العصبية تؤثر أكثر على الأفراد، من ذوي الأنماط الضعيفة من المنظومة العصبية، حيث أن أعصابهم أكثر قابلية للتأثر، فيضطرون للاحتماء بدروع أكثر سماكة. ولكن، هل يعني هذا، أن عواطفهم تصبح أكثر ضعفاً من مشاعر الأشخاص من ذوي الأنماط القوية من المنظومة العصبية؟

إذا ما تحرينا الدقة، فإن الاحساسات القصيرة، والانفعالات والمشاعر الاستجابية لأحداث ما - كثورات الفرح والغضب والخوف، والحذر والدهشة، هي ما يصاب بالضعف، بادئ ذي بدء، عند الإنسان. وهي مشاعر تمهيدية، أولية، مشاعر خفرة آنية، أحاسيس، استجابات للأحداث. وباختصار ودقة، فإن ردود الفعل، أي الاستجابات العصبية، التي تكمن في أساسها، هي ما يصاب بالضعف[3].

أما ما يتعلق بالعاطفة- الحالة، والعاطفة - العلاقة، كالحب والصداقة، والاحترام، والكراهية، والاحتقار، والنفور، الخ...، فهي شيء آخر... إنها مشاعر وعواطف مديدة، ثابتة، وعمقها يتوقف على جذرين اثنين: على قوة طاقتنا العصبية، وعلى اتجاهنا نحو الأنانية والتمركز على الذات، أو نحو الأنا الغيرية.

فالشخص الذي يتميز بالبنية العصبية الانفعالية الضعيفة تكون العواطف الاستجابية عنده أضعف مما هي لدى الشخص ذي البنية العصبية الانفعالية القوية؛ ولكن إذا كان هذا الشخص من ذوي الأنا الغيرية، في حين أن الآخر من ذوي الأنا المركزية، فإن العاطفة - الحالة، والعاطفة - التعلق تكون أعمق لدى الشخص ذي البنية العصبية الضعيفة مما لدى الشخص ذي البنية العصبية القوية. (على أي حال، ورغم أن

العاطفة - الحالة تتوقف، جزئياً، على قوة ردود الفعل العصبية، فإن إفقار هذه الاستجابات - ردود الفعل- يفقر العواطف ذاتها دائماً).

ولكن، هل هذه التحولات والتقلبات غير المستقرة تكون مستمرة، دائمة عند الناس، أم تستمر فترة زمنية قصيرة؟ وهل يمكن التخفيف منها، وإذا كان ممكناً، فكيف؟

هل يجب تبديل وتيرة الحياة، واستئصال سلبيات التمدين والإبقاء على إيجابياته؟ أم يجب تبديل الإنسان، وتعزيز آلياته التكيفية؟

من أجل استئصال الجوانب الضارة، الخطرة من الثورة العلمية - التقنية، والتمدين، والحضارة «الجالسة» (حضارة الجلوس وراء المكاتب)، لا بد على الأغلب، من إحداث تحولات جذرية في جميع جوانب الحياة الرئيسة: بدءاً بإعادة بناء المدينة المعاصرة، وإعادة تقسيم العمل، وانتهاء بالتحول الجذري في تربية الأطفال، وفي كامل بنية الحياة اليومية. يجب الانتقال إلى المدينة الجديدة، القائمة على إعادة البناء الجذرية لكامل نسيج الحياة المعاصرة، بكامل خيوطه ومكوناته.

أما ما يتعلق بالسيكولوجية الإنسانية، فإن تحولاتها توجِّهها اليوم محركات ما دون الشعور subconscious الطارئة. وعندما يهبّ الشعور لنجدتها، فإنه يرمي التكتيك المتأزم للفائدة القريبة جانباً، ويضع استراتيجية الفائدة الحقيقية، القريبة والبعيدة، لليوم والغد معاً.

ومما يؤسف له، أن علم الإنسان المعاصر لمثل هذه الاستراتيجية، وهذه إحدى علامات الأمراض الاجتماعية القاسية. فهو لم يلحظ تحولات خطيرة في الإنسان المعاصر، ولم يوفر دفاعاً لمقاومتها. وعلى أي حال، فقد حذّر كبار علماء النفس والاجتماع، منذ فترة طويلة، من التحولات المقلقة الخطيرة التي يتعرض لها الإنسان المعاصر. لكن قلق هؤلاء العلماء، للأسف، لم يكن معدياً، ولم يحرك الجهات العلمية الرسمية. كما أن استهتار علماء الاجتماع بحياة الإنسان الشخصية، والطرح الخفر للمشاكل الجديدة، والخوف من التناقضات

الاستراتيجية، كل هذا وجَّه، أيضاً، ضربة قوية، للناس والإنسانية عامة.

والآن، يجري انتقال عالمي، كما يبدو، من الاهتمام بنمط تاريخي معين من الإنسان إلى نمط آخر: من الإنسان ذي الحاجات المادية - الروحية، المجرد تقريباً من الشخصية، إلى الإنسان ذي الحاجات المادية - الروحية، ذي الشخصية. ومحركات هذا الإنسان الموحدة الرئيسة ستشكلها، بصورة متزايدة باطراد، نوابضه السيكولوجية والشخصية- كالآراء والأمزجة الشخصية والأخلاق الفردية والصحة والأعصاب-، وليس نوابضه التقليدية النمطية.

وهذه النوابض والقوى المحركة الشخصية هي العتلة الأخيرة، التي يتوقف عليها، في كل قطاع شخصي من حياة الفرد، نجاح حياته أو فشلها، وتفاهتها أو سطوعها. وما لم يدرك علم الإنسان، والمعرفة الإنسانية، هذه الحقيقة، وما لم يتمكنا من تقديم المساعدة من أجل إعادة بناء الإنسان حسب قوانين الطبيعة البشرية، فإن الأزمات الشخصية ستستمر وتتزايد.

12- الانفعال - ابن مولّدين متنافسين :

تقول نظرية عالم النفس الفيزيولوجي (ب. ف. سيمونوف)، إن قوة الانفعال تتناسب طرداً مع حاجة الإنسان إلى شيء معين ما، وتتناسب عكساً مع المعلومات عن إمكانية الوصول إلى هذه الحاجة (هل يمكن تلبية هذه الحاجة أم لا؟) وهذا يعني أن الانفجار المعلوماتي الحالي يؤدي إلى إخماد نهائي للانفعال.

ذلك أنه كلما توفر لدى الإنسان مقدار أكبر من المعارف والمعلومات كلما كان تفكيره أكثر وإحساسه أقل. وبالتالي، فإن العقلنةrationalization الحالية للأفراد هي نتيجة الانفجار المعلوماتي وازدياد التعليم. وبالتالي، فالتعليم العام يؤدي إلى العقلنة الشاملة وخمود العواطف والانفعالات.

ويمكننا التنبؤ، إذاً، بأن إنسان المستقبل سيتحول إلى روبوت (إنسان آلي) مفكر، إلى دماغ متحرك.

إن نظرية العالم (سيمونوف) في الانفعالات هي إسهام كبير في سيكولوجية العواطف والانفعالات، رغم أن بعض العلماء لا يوافقون عليها. تقول هذه النظرية: إن الانفعال والدين متنافسين: أحدهما يضعف الانفعال، والآخر يزيده قوة؛ أحدهما هو محرك، بالنسبة للانفعال، والآخر هو كابح، مانع للحركة.

وكلما كانت *حاجتنا* إلى شيء ما أشد قوة كان ينقصنا شيء ما بشكل أقوى، وكان الانفعال أقوى، والرغبة بالوصول إلى هذا الشيء والتعلق به أكبر. ***فالحاجة***، إذن، هي المولد الرئيس للانفعال، إنها والده المحرك.

ولكن، كلما عرفنا أكثر كيف يمكننا إشباع هذه الحاجة، كلما ذهب قدر أقل من طاقتنا إلى الانفعال، وقدر أكبر منها إلى الفعل أو التفكير. والعكس صحيح، كلما كانت معرفتنا أقل لكيفية إشباع الحاجة، كان انفعالنا أقوى. إن الإنسان يحتاج إلى الانفعال باعتباره مقوياً، ومعززاً لطاقته: فالانفعال يحفز قواه الخفية، ويعبىء احتياطياته. ولكن، إذا كان بلوغ الهدف بسيطاً، فلا حاجة إلى القوى الاحتياطية، وبالتالي، يمكن للانفعال أن يكون ضعيفاً.

أما ***المعلومات*** عن إشباع حاجة الإنسان – سواء أكانت الحاجة شعورية أو لا شعورية – فهي الوالد الثاني للانفعال، لكنه الوالد الكابح، الوالد المعيق. وإن قوة الانفعال وشدته هما تأثير متساو، متكافئ لوالدي الانفعال الاثنين معاً، ولقوتهما المشتركة[4].

إن موضوع نظرية سيمونوف هو الاستجابات العاطفية، وليس الانفعال – كحالة، أي أن موضوعها هو العواطف والانفعالات الآنية، الوقتية، وليس الانفعالات والعواطف الطويلة الأمد. (وإذا ما تحرينا الدقة، فهي ليست نظرية العواطف، بل نظرية الانفعالات. فهي نظرية

الاستجابات العاطفية، أي العاطفة الآنية وليس العاطفة - الحالة). وهي تفسر تفسيراً جيداً، مقنعاً، الآليات الهامة في عقلنة الأفراد الحالية.

لنتذكر انفجار الاتصالات لدى أبناء المدن المعاصرين. إنه، بصورة أساسية، انفجار الاتصالات السطحية الخارجية. والأفراد يشاركون فيها بالطبقات السطحية النمطية من نفوسهم، ويتصرفون فيها بلا شخصية. وفي شؤوننا البيتية والمنزلية وشؤون العمل، ثمة الكثير من التقليدي والنمطي والوضوح الإعلامي. فالأفعال والتصرفات المقبلة معروفة ومجزأة، ومرسومة سلفاً. وهذا يخمد استجاباتنا العاطفية، ويدربها على الأحاديث الخافتة والهامسة.

وفي الحياة الخاصة، أي في التواصل بين عدد محدود من الأفراد أو في التواصل الجماعي، تكون مجابهة هذا الخمود أبسط من ناحية، وأصعب من ناحية أخرى. وكلما كان الأفراد أكثر فتوة وشباباً كانت لديهم أشياء جديدة وغير معروفة، أكثر، فيسود بينهم «جوع معلوماتي» أحدهم نحو الآخر، وبالتالي فهذان المولدان الاثنان يزيدان من حدة العاطفة ولا يخمدانها.

ولكن، كلما كان الأفراد أكبر سناً، تصبح حياتهم أكثر روتينية، وتكون مشبعة أكثر بالمعلومات، وبالتالي كانت استجابتهم العاطفية أكثر خموداً. ومع ضعف الاستجابات العاطفية تضعف العلاقات العاطفية: كالحب، والتعلق، والميل والتعاطف...

إن نظرية الانفعالات المعلوماتية تكشف الآلية الدائمة للأحاسيس، وهي تسمح بذلك، بإدراك سبب عميق آخر لإفقار العواطف الحالي. لكنها لا تستبعد التفسيرات الأخرى، بل تكملها، وتقف معها جنباً إلى جنب.

13- هل يستبعد الفكر العاطفة ؟ :

لنعد ثانية إلى المذاكرة والتساؤل: أصحيح، أنه كلما كان الإنسان أكثر ثقافة وتعليما كان أكثر تفكيراً وأقل عاطفة؟ أو انفعالاً؟ أصحيح أنه كلما كانت معارف الناس أكثر كلما انطفأت عواطفهم أكثر؟

أعتقد أن الواقع ليس كذلك. فعدد الأفكار لا يتناسب تناسباً عكسياً مع عدد الأحاسيس والعواطف. والإنسان بطبيعته، هو كائن حسّاس homo sensualis، أكثر منه كائن مفكرhomo rationalis.

الانفعال، هو الأساس الأكثر سلطة، والأكثر تلقائية وآلية للطبيعة البشرية. إنه أعمق من الفكر، وهو كامن في سيكولوجية الإنسان البيولوجية، في أعمق الطبقات العضوية من حياته. كما أن فكرنا أيضاً (عدا التفكير الميكانيكي الآلي) له بشكل عام، جانب انفعالي: فالفكر يترافق دوماً بالانفعالات، فهو يستثيرها، ويولَد منها في الآن نفسه.

ويؤثر الفكر والانفعال، أحدهما في الآخر، لا من حيث الكم فحسب، بل ومن حيث النوع أيضاً. فكلما كان الفكر باهتاً أكثر، انعكس هذا على قرينه (أو تابعه) الانفعال، وأصبح كذلك باهتاً أكثر. وكلما كان الفكر أكثر سطوعاً وعمقاً، كان صوت الانفعال أعمق وأقوى. والعكس صحيح، فالانفعالات العميقة وحدها تؤدي إلى أفكار عميقة، أما الانفعالات المطموسة، الباهتة فتولّد أفكاراً باهتة مطموسة أيضاً.

علاوة على ذلك، فالمعارف - أي المعلومات الفكرية والمنطقية هي مجرد جزء يسير من سيل المعلومات الذي نعيش ضمنه. والجزء الرئيس من هذا السيل الجارف الذي لا يهدأ، هو المعلومات الصورية والإدراكية الحسية المختلفة، كالانطباعات البصرية والسمعية، والإشارات الحركية واللمسية وغيرها...، أي أن غالبية المعلومات التي يتلقاها، وسوف يتلقاها الإنسان، هي معلومات انفعالية، عاطفية، وليست عقلانية.

لهذا، لا مبرر، ولا خوف من أن يؤدي التعليم الشامل، والثقافة العامة إلى ذبول الانفعالات وخمودها، ولا خوف من أن يصبح إنسان المستقبل دماغاً متحركاً على قدمين. وعلى أي حال، فالتعليم الحالي، المنطقي، الجاف يلحق الضرر بانفعالاتنا بصورة واضحة. وهو يتعلق، كما

سبق الذكر، بنصف الكرة اليساري من الدماغ، ويفصل بقسوة وخشونة، المعارف عن الانفعالات، وهو بذلك يضعف الانفعالات، ويجعل من عشرات ملايين الناس مجرد مفكرين، عقلانيين، غير طبيعيين.

إن الثورة العلمية - التقنية ستخلق ثقافة جديدة كلياً، ثقافة يمكن أن تلبي طبيعة الإنسان وتلائمها. وهذه الثقافة سوف تعمق معارفه وعواطفه وتساعده، ولا تخمد انفعالاته. وهذا على أي حال، أحد المتطلبات الاستراتيجية من الثقافة الجديدة، التي سيرتكز إليها الإصلاح التعليمي القادم.

14- عوامل مغذية وأخرى مدقعة :

هنا، قد يتساءل كثيرون: هل أصبحت عواطفنا أعمق، أم أصبحت أكثر سطحية وبدائية؟، مع ازدياد التوترات العصبية والتمدين، وغيرها من التحولات الجارية؟ وهل حب الإنسان العادي في القرون الوسطى كان أقوى من حب الإنسان المعاصر؟

لقد كان موضوع حديثنا، حتى الآن، التحولات التي أدت إلى إفقار سيكولوجية الإنسان المعاصر. ولكن طرأت على السيكولوجيا الإنسانية المعاصرة أيضاً تحولات وتغيرات مغذية لها، جاءت وليدة للتقدم الاجتماعي والعلمي - التقني والثقافي. إن التقدم يغدو الآن أكثر تعقيداً، ويشبع بتعقيداته عدداً متزايداً من خلايا البنية الاجتماعية، ومن خيوط الحياة اليومية.

وهذه التحولات الاستراتيجية تزيد شيئاً فشيئاً، ومن العمق، من المتطلبات تجاه الإنسان: تجاه عقله، وأخلاقياته، وسيكولوجيته. وتتوافق سيكولوجية الإنسان ببطء، في جميع حلقاتها، مع هذه التحولات، من الأعلى إلى الأسفل، ويتغير نسيجاً بكامله ويتحول وفقاً لهذه التحولات.

كما يزيد من عمق الإنسان أيضاً، ذلك الجانب القوي المعروف

من الثورة العلمية – التقنية، والكامن في ازدياد التعليم ونمو الثقافة، والفئات المبدعة في المجتمع، وفي الأعمال البحثية العلمية. كما يزداد قوة عند الأفراد الإحساس والشعور بـ«الأنا» (ولكن أحيانا ينمو عند البعض إلى درجة الإفراط)، كما يتزايد الميل إلى اكتشاف الذات، وتنميتها وتطويرها.

إن جميع هذه النوابض في الحياة المعاصرة تعمق شخصية الإنسان وترهفها، وينمو تميز وتفرد خاص لدى كثير من الأفراد، في الشعور واللاشعور، في عواطفهم واهتماماتهم، وفي عاداتهم وسلوكاتهم. وبلغة علم النفس نقول: يحدث تفرد الإنسان كفرد متميزindividualization، ويبرز عدد متزايد من الأفراد البارزين، كشخصيات بارزة، أفراد ذوو نفسيات عميقة ومعززة.

على أي حال، تتبدل الشخصية لدى الكثيرين، فتغدو أكثر تفكيراً وعقلانية، وأقل عاطفية وانفعالية. ويظهر ما يمكن تسميته «أنصاف الشخصيات» – أي الأشخاص الذين تكون عقولهم متطورة، لكن عواطفهم خامدة، مكتومة، ومجردة من السمات الشخصية المميزة.

إن الصراع بين الشخصي واللا شخصي يخترق الإنسان المعاصر بكامل كيانه ووجوده: ومن المحتمل أن يكون هذا الصراع هو الصراع الرئيس الذي يجري في نفسيته. حيث تتزايد، باستمرار، حاجة الإنسان إلى تطوير «أنا» ته وتنميتها، لكن العناصر الكامدة للشخصية تقوى وتتعزز باستمرار.

ينمو لدى الإنسان المعاصر القطبان التاليان معا: حيث تجري بسرعة كبيرة عملية تفرده individualization، ولكن في الآن نفسه، تجري بسرعة أيضاً، عملية تنميط وقولبة standartalisation كثير من جوانب نفسه. وهكذا نرى، أن عملية نمو الإنسان المعاصر تتم من خلال عمليتين: عملية درامية dramatization وعملية استقطابية polarization، وهذا كما يبدو، قانون عام سائد من أوائل القرن العشرين، إنه قانون صراع

الأقطاب. ويظهر هذا الاستقطاب بوضوح، في كثير من جوانب الحياة، كما تتعاظم حدة التطور العالمي مأساوية.

إن هذه التحولات المزدوجة في السيكولوجية الإنسانية تولدها تحولات مزدوجة في عالم العواطف والانفعالات الإنسانية. فالحب، أيضاً، يتعرض لعملية استقطاب، والتحولات الجارية فيه تسير، إذا ما تحرينا البساطة، باتجاهين: حيث يثرى الحب لدى البعض ويتعمق داخليا، ويغدو موفور الصحة، مزدهراً، بينما يغدو سقيماً، ضعيفاً، لدى البعض الآخر، وتتسم علاقات الحب عنهم بالفقر والتبسيط الشديد؛ حتى أن بعضهم يقصر مفهوم الحب على الجنس. إن مثل هؤلاء الأفراد يكتفون بالعواطف الأبسط والأقل عمقاً، والأكثر سطحية. وهم يستبدلون الحب بالتعلق والميل والرغبة، بل وحتى بالجنس. فكيف يؤثر هذا على نفسياتهم؟

عندما تكون الجوانب غير العميقة من نفسية شخص ما هي الفعالة، فإنها نتيجة لذلك، تنمو وتكبر وتحتل حيزاً أكبر في نفسيته. في حين أن جوانب نفسيته الأعمق تنزاح جانباً وتضعف، وتحتل مكانها في نفسيته، الجوانب الأكثر بساطة وسطحية.

كلما عانينا وعشنا أكثر من عواطف ما، كلما شكلت هذه العواطف نفوسنا على طريقتها ووفق نموذجها. وهذا قانون معروف في علم النفس. على هذا النحو، كما يبدو، ولكن بتعقيد أشد بالطبع، تجري لدى الأفراد عملية إفقار العواطف والنفوس والعلاقات.

15- سيكولوجية الحب المعاصر :

مما يدعو للأسف، أن علم النفس لم يدرس، ولم يتطرق بصورة كافية إلى عواطف الحب وانفعالاته، لهذا نضطر إلى البحث عن مفاتيح الحب المعاصر في الدراسة المباشرة لهذه الظاهرة في الحياة، وفي الاكتشافات السيكولوجية التي تسبر غورها في المؤلفات الأدبية والأعمال الفنية.

كان الروائي الفرنسي الكبير (بلزاك) قد طرح في أعماله السؤال التالي: من يعطي الإنسانية أكثر: بروميثيوس أم فاوست؟ وبروميثيوس هو رجل عظيم، بنّاء، مكتشف النار، وهو بذلك يمثل العلم والتقنية؛ أما فاوست فهو متأمل، مفكر، باحث عن السعادة وعن معنى الحياة، أي أنه يمثل الفن والأخلاق والفلسفة.

يؤكد عصرنا العلمي التقني، بأن بروميثيوس هو الشخصية الرئيسة بين هاتين الشخصيتين: فهو الذي يطعم البشرية ويسقيها، وهو الذي يقدم لها خيرات الحياة ونعمها؛ أما فاوست فهو مجرد إضافة لبروميثيوس، إنه «الطبق الثالث» في الوجبة، الطبق غير الضروري، وغير الإلزامي، ويمكن الإنسان أن يشبع ويعيش بدونه إطلاقاً...

مثل هذه النظرة على الأغلب، هي نظرة طبيعية، مألوفة، بالنسبة لإنسان الاحتياجات المادية والقيم التكنوقراطية. ولكن، وفي هذه المرحلة بالذات، يولد إنسان آخر، إنسان روحي-مادي في الآن نفسه، وهو يدرك جيداً أن بروميثيوس وفاوست، كالجناحين بالنسبة للطائرة، لا يمكنها التحليق بدون أي واحد منهما. فكل منهما يعطي الإنسانية ما لا يستطيع الآخر تقديمه، وكلاهما ضروريان، وبنفس الدرجة (رغم أن فاوست هو الحكيم والمفكر، وبالتالي فالحاجة إليه أكبر).

يقدم الفن للبشرية قدراً أكبر من الثقافة الروحية، في حين أن العلم يقدم لها قدراً أكبر من الثقافة المادية. الفن هو الفاتح الرئيس لعالمنا الداخلي، لكن اكتشافاته ليست أقل أهمية من الاكتشافات العلمية. إن العلم اليوم يقدم لنا معارف أكثر عن العالم الخارجي، أما الفن فإنه يكشف للإنسان ذاته، وينفذ الفن بصورة تزداد عمقاً إلى أسرار عالمه الروحي، إلى أسرار العلاقات الإنسانية؛ وحيث لا وجود لمثل هذه الاكتشافات لا وجود للفن، بل هناك تقليد للفن وتزييف له.

❖ ❖ ❖

فما هي الاكتشافات والإنجازات التي حققها الفن في علم نفس العواطف والانفعالات؟ سنتحدث عنها الآن، بشكل سريع موجز لأننا سبق أن تناولنا بالتفصيل في الفصول السابقة.

في القرن الرابع عشر اكتشف الشاعر الإيطالي (بترارك) وجه الحب المزدوج، الذي يشفي ويجرح، ويقسم الإنسان إلى عواطف مستقطبة متنافرة:

أخاف، وانتظر الكارثة، وأتوقع القشعريرة...

أهرب من الجميع، وأتشوق إلى الجميع.

لقد لحظ بترارك رافدي الحب، وتبين أنه يضم الانشراح والكآبة، والفرح والترح، والأمل واليأس، وكلها تندمج في سبيكة خاصة من العواطف التي تسيطر على الروح والنفس. لقد كان هذا اكتشافاً كبيراً في عالم الإنسان الداخلي- اكتشاف بنية الحب الداخلية وتعقيداته المتشابكة، التي تبدل حياة الإنسان كلها. لكن بترارك لم يكتشف مكونات هذه التيارات، ولم يلحظ كيف تتداخل هذه التيارات وتتحول، بصورة غير ملحوظة، من تيار لآخر.

واعتباراً من القرن العشرين أصبح طيف الحب معقداً ومتشابكاً إلى حد كبير، وأصبحت النظرة المحبة تتألف اليوم من حزم شديدة التعقيد من الانفعالات.

«كانت هذه النظرة تحوي شيئاً جديداً، لم يألفه (راماشوف) أبداً من قبل كان فيها ملاطفة حنونة رقيقة، ونظرة ثاقبة، وقلق. وفي أعماق حدقتيها الزرقاوين كان يكمن شيء غريب، يصعب فهمه، يتحدث بلغة الروح الخفية الغامضة».

هكذا رأى الشاب (راماشوف)، بطل رواية «المبارزة» للكاتب الروسي الكبير (كوبرين)، عيني حبيبته، وفي هذه الرؤية تتجلى المراتب العديدة لتعلقه وحبه، بكامل تعقيداته. والعواطف التي يتكون منها حبه تكمن في مقاييس و معايير سيكولوجية متباينة، وفي الأعماق، ووراء هذه

العواطف المختلفة يكمن شيء غريب يستحيل فهمه، يتحدث بلغة الروح الخفية الغامضة...

إن الحب هو انبعاث عميق للروح، للنفس، وهو يصدر من تحت الشعور، ذلك الجزء الكبير والهام من الوجود الإنساني الذي يخفي في طياته كثيراً من الأسرار. ومن هنا تبدأ اهتزازات النفس العميقة، وهنا تكمن قوى كثيرة تملي على الإنسان عواطفه وتحركاته النفسية.

في السابق، لم يؤخذ بكثير من هذه التحركات والتبدلات في النفس الإنسانية وفي أواخر القرن العشرين، بدأ العلماء يلتفتون إليها، وأخذوا يلحظون هذه التحركات الغامضة. إن هذه التحركات، ما إن تقترب من شعور الإنسان ووعيه حتى تندلع وتلتهب، كما تلتهب النيازك في السماء؛ وفي هذه اللحظات وحدها، يصبح بالإمكان رؤيتها وملاحظتها. ولكن: أي طريق قطعته قبل ذلك، ومن أي أعماق خرجت؟ هذه المسألة ما زالت سراً غير معروف.

إن عواطف الحب عند بترارك منفصلة عن بعضها بعضاً، إنها تلمع مثل حد الشفرة: إعجاب وحنين، فرحة و ألم، سعادة وبؤس. ولا وجود لأي ضباب بينها، تشابكاتها واضحة، وممراتها محددة، مرئية.

أما الآن، فالحب لا يتكون ببساطة من بضعة عواطف وانفعالات. فقد تحول رافداً الحب إلى دلتا،إلى قناة تتكون من تيارات ومسيرات عديدة، وكل تيار منها يتكون بدوره من ينابيع صغيرة من الانفعالات والأمزجة والتحولات النفسية العارضة والسريعة، التي لا يمكن الإمساك بها، والمنسكبة الواحدة في الأخرى، الملتهبة والمنطفئة، والمشتعلة من جديد في مكان آخر.

ونشأت سيكولوجية الحب الدقيقة، وتفرعت جدلية النفس إلى فروع تتناول الشرارات السريعة الطائرة، وتألقات العواطف العفوية. وبدأ الفن بتتبع الخارطة الدقيقة لتحركات النفس السريعة، وتدفقات التيارات العميقة ومسيلاتها.

واخذ الناس يدركون أن سبيكة الأحاسيس التي يتكون منها الحب ذات قيمة كبيرة بالنسبة لهم، فهي تسعى إلى جعل الإنسان إنساناً بكل معنى الكلمة، إنساناً يبتعد بعواطفه عن قوانين الحياة اليومية الروتينية ويتحرر منها، ليعيش وفق قوانين أخرى أكثر سمواً ورفعة. وهذا كله كان جديداً، إنه تصور جديد للحب كلياً نشأ في القرن العشرين، وكان هذا اكتشافاً لنمط جديد ومعقد جداً لسيكولوجية الإنسان.

❖ ❖ ❖

إن عواطفنا هي موسيقى الروح، الأكثر عمقاً والأسهل تناولاً، بالنسبة للكثيرين منا. ومن المحتمل، بعد أن تزيد الثورة السيكولوجية من رهافة الإنسان وعمقه، أن يتعلم الإنسان الإصغاء إلى نغمات عواطفه وأوتارها، وأن يتشرب جميع تدفقاتها وتشابكاتها. وإذا ما تم ذلك، فإن حياة الحب ستصبح أكثر ثراء. وهذا الطريق الذي شق بالأمس، هو طريق المستقبل، مستقبل الحب الثري، القوي، النابض.

في أوائل القرن العشرين خط الشاعر الروسي المعروف (ماياكوفسكي) كلمة جديدة في الحب: فقد اكتشف بنية جديدة من مشاعر الحب، وكتب صفحة جديدة في الحب الإنساني. إن حب (ماياكوفسكي) المأساوي، الجريح، المقموع – وليس حب «التانغو» – يجعل من الإنسان عملاقاً، ويولّد في نفسه نفحات عملاقة. وهاهو ذا الشاعر ماياكوفسكي يقول:

لو كنت صغيراً...
كالمحيط الكبير...
لمشيت على أصابعي فوق الأمواج..
ولداعبت القمر بيدي برفق...
أين يمكنني العثور على حبيبة مثلي؟

ما هذه النزعة العملاقة؟ ما هذه النزعة الكونية في الحب؟ ما هذه الروح الطموحة؟ لقد عبّر ماياكوفسكي بقوله هذا، وجسّد أحد أفكار العصر المركزية. إن شخصية الإنسان تغدو في عصرنا هذا، وفي أعيننا بالذات، بعداً كبيراً. وتود هذه الشخصية أن ترى عظمتها من خلال الحب، تود أن تشعر بالحب، بعواطفها الكبيرة التي تهز قلبها.

إن الإنسان عندما يشعر بنفسه بأنه يشكل بعداً عالمياً كونياً، يبدأ برؤية الإنسان الآخر كبعد عالمي أيضاً،كعالم معقد ومتشعب، يتألف من حلقات وتيارات ومجاري عديدة.

تنوء (آنييتا ريفيير) - بطلة الروائي الفرنسي (رومان رولان) - «الروح الساحرة»، تنوء تحت أعباء طموحها لتقديم أفضل ما عندها للآخر، لحبيبها. لكن عقلها، وعواطفها تتمرد على هذه الدعوة الغامضة. إن ما تحت شعورها مستعد للانفصال عن «أنا»تها، لكن شعورها يقف ضد ذلك. ويرى الروائي رولان، أن هذا الصراع هو التناقض الحقيقي للحب في العصر الحديث، حب الإنسان الذي أدرك قيمة ذاته، «أنا»ته، ولا يريد في الوقت نفسه الاستخفاف بشخصيته ولا قمعها.

تقول (آنييتا) لخطيبها (روجيه): «أنت تدخل حياتي لا بحبك وحده فحسب، إنك تدخل حياتي مع أقربائك وأصدقائك ومعارفك، تدخل حياتي بأهلك، ومنصبك، بمستقبلك الواضح بالنسبة لك، بحزبك وعقائده، بأسرتك وتقاليدها، إنك تدخل بعالم كامل، بعالمك الكامل الذي هو أنت. وأنت تقول لي، وأنا لي عالمي الكامل أيضاً، وأنا أيضاً عالم كامل، تقول لي: «اطرحي عالمك جانباً، ارميه جانباً، وادخلي عالمي!. أنا مستعدة، ياروجيه لدخول عالمك، لكنني أدخل بعالمي بكامله، فهل تستقبلني، كما أنا، بعالمي كله؟».

إن الحب المعاصر، بالنسبة للروائي رومان رولان هو: تقارب وتواصل عالمين بشريين، كبيرين ومعقدين. وهذان العالمان متباينان

مختلفان، في كثير من النقاط والحدود. ويتوقف مصير الحب وحياته، أو انهياره وموته على ما إذا كانت هذه النقاط والحدود ستتقارب من بعضها أم لا!

❖ ❖ ❖

إن الحب يزيد من تعقيد حياة القلب، بصورة غير عادية. ويبدو، وكأن الحب يعطي الإنسان عيوناً خفية، تسمح له برؤية الزوايا الخفية من نفسه وروحه، وبالإحساس بتلك الظلال من العواطف، التي لم يكن يشك فيها أبداً من قبل.

وحديثنا هنا، يدور بالطبع حول أسمى آيات الحب، حول ذراه السيكولوجية التي تتواجد، إلى جانبها، العديد من أغوار الحياة العادية اليومية وانهداماتها ووديانها. وفي اقتران وترابط هذه التحليقات والذرى والأغوار تتجلى بوضوح ازدواجية التطور السيكولوجي المعاصر، حيث يسير ازدياد عمق الشخصية، جنباً إلى جنب، مع تجرد الإنسان من شخصيته؛ فازدياد رهافة بعض خاصياتنا يتحقق من خلال إخماد خاصيات أخرى وإضعافها.

لنتذكر هنا، بعدي الحب: البعد «الكمي»، بقوته وهيجانه، والبعد «النوعي» بعمقه وبنية عواطفه. عن الحب. إن الحب، ببعده «النوعي»، ينطلق إلى الأمام، يتطور، ويغدو الآن أكثر تعقيداً، ويتشبع أكثر بالمثل العليا الإنسانية. أما ما يتعلق ببعده «الكمي» وقوته وهيجانه وتوتره، فهنا، كما يبدو، نخسر ونفقد أكثر مما نكسب. إن شوائب حياتنا المعاصرة وعيوبها تحد كثيراً من قوته وتوتره. فهذه الشوائب، باستهلاكها لطاقة الإنسان النفسية، تأخذ بالقدر نفسه من طاقة حبه، وبالتالي تضعفه، وتقصر من عمره.

إن ازدياد تعقيد الحب، وتفرعه وانقسامه إلى خلجات وارتعاشات

روحية ونفسية دقيقة، يسير جنباً إلى جنب، مع انهيار صورته وكماله وضعف نمائه وقوته العفوية. ويتجلى بوضوح متزايد فقدان الحب لثرائه العاطفي، كما يتجلى انعدام إمكانية تعويض خسائره ومكاسبه.

16- حب الشخصية :

ماهي التحولات التي تجري في العاطفة ذاتها تحديداً؟ وما الذي يتغير في مشاعر الحب، من الداخل، في مضمونها وبنيتها؟.

من الأقوال الشهيرة المأثورة في الهند القديمة، عن أسمى أنواع الحب الإنساني:

«إن لأهواء الحب وعواطفه عند الإنسان مصادر ثلاث: النفس والعقل والجسد:

فأهواء النفس تولّد الصداقة،

وأهواء العقل تولد الاحترام،

وأهواء الجسد تولد الرغبة،

أما اتحاد أهواء هذه المصادر الثلاثة فيولد الحب».

في هذا القول المأثور، وبالرغم من تبسيطه الشديد، يتجلى وجه الحب المثالي بصورة رائعة، ذلك الحب الذي يسيطر على الإنسان بكامله، وتتشربه نفسيته بكاملها. ومثل هذا الحب المسيطر، رغم انه نشأ قبل آلاف السنين، لكنه لم يكن هو النوع المسيطر، على الأغلب؛ فقد سيطرت في العالم أنواع أخرى من الحب أكثر بساطة.

وهذا النوع من الحب، من حيث المبدأ، هو بالذات حب الشخصية، أي الميل العميق الجارف للاندماج الكامل بالشخص المحبوب، الطموح الأقصى كي يرتسم في الحب ويندمج أكبر قدر ممكن من جوانب وجود المحب.

وبالطبع، فأهواء العقل والجسد ليست هي الحب بحد ذاتها، إنها، ببساطة، ميول «جزئية» عند الإنسان، احترام عقلي أو رغبة جسدية،

وهما غالباً يتواجدان بصورة مستقلة، منفصلة عن الحب. لكن الحب هو حالة خاصة لجميع عواطف الإنسان ومشاعره وكينونته، إنه حالة خاصة من حالات النفس والعقل والجسد. ويمتص الحب في ذاته كامل طاقة الإنسان، كما يتشرب ويستهلك كامل قواه، ويجعلها تيارات تسير في مجرى موحد كامل من العواطف.

هكذا، كان المفكرون يدركون الحب ويفهمونه، وليس في الشرق وحده. فالمفكرون الأوروبيون، وقبل سيطرة النزعة الميكانيكية mechanism، التي تجزئ الإنسان إلى أعضاء، كانوا ينظرون النظرة نفسها إلى الحب. ولنتذكر هنا قول المفكر والأديب الفرنسي (فولتير) «الحب يغزو في الإنسان عقله وقلبه وجسده دفعة واحدة». وقبله قال المفكر الفرنسي (فرانسوا دولا روشكو): «يصعب جداً وضع تعريف للحب، ولكن يمكن القول، أن الحب، بالنسبة للنفس، هو ظمأ للسيطرة، وبالنسبة للعقل، هو تقارب وألفة داخلية، وبالنسبة للجسد، هو رغبة خفية ومرهفة للحيازة والتملك لمن تحب، بعد مصارحات عديدة»[5].

ماذا يحدث عندما يتحول الحب من رغبة انفعالية، عاطفية، وحيدة إلى شوق وميل شاملين لشخصين اثنين محبين، ميل وشوق نفسيهما وعقليهما وجسديهما للتواصل؟ بادئ ذي بدء، تتعمق طبقات الحب الروحية، وتبدأ بالانتشار، وبخاصة لدى الأشخاص النامين سيكولوجيا، بصيص العواطف الإنسانية الأخرى: كالصداقة والاحترام، التي تتواجد غالباً، بصورة منفصلة عن الحب.

ولكن، لماذا يتبدل الحب على هذا النحو؟ ربما لأن النفس الإنسانية تتبدل أيضاً الآن على هذا النحو؟ لقد قالت إحدى رائدات الحركة النسائية الأمريكية العبارة الغريبة التالية: «نحن النساء، نطلب من الرجال الاحترام، بادىء ذي بدء، وليس الحب» خلال آلاف السنين، كانت النساء بحاجة إلى حب الرجل أولاً، ولم يفكرن إطلاقاً، بشيء من الاحترام. وتبدل القيم هذا، هو صدى التحولات المذهلة الجارية في

سيكولوجية المرأة. فالمرأة، بالتدريج، تتحول إلى شخصية، واحترام ذاتها هو حاجة أساسية من حاجات شخصيتها...

أما ما يتعلق بانفعالات الصداقة، فقد سبق القول، أن سيكولوجية الإنسان - الشخصية ذاتها، ترغب بصورة خفية لا شعورية، بان يكون لدى الإنسان القريب، الحبيب عدد اكبر من الخاصيات القريبة من ذاته. وعلى أساس الميل والشوق إلى مثل هذا القرب تقوم الصداقة، عادة. وتبدأ مشاعر الصداقة والود هذه بنسج الحب المعاصر، بصورة غير ملحوظة.

إن نفسياتنا تتبدل، وتتبدل معها، كالظل، مادة الحب السيكولوجية. وتتسكب في طبقات الحب المتعة، وفي ظمأ العاطفة إلى الإنسان المحبوب، وإلى تجميله بالألوان الزاهية، وفي مشاركته الوجدانية لانفعالاته ومعاناته،وفي الإيحاء الدائم لجميع هذه العواطف - تتسكب في هذه العواطف الدائمة تيارات جديدة من الانفعالات: كالرغبة في العثور لدى الحبيب على أصداء لأكبر عدد ممكن من أوتاره الروحية الذاتية، والتوق إلى التوحد معه من جميع الجوانب، والاندماج معه، ليس بالروح فحسب، بل وبالنفس، ولا بالعواطف فحسب، بل وبالمثل العليا والاهتمامات...

إن هذه البوارق الجديدة من ميول الحب وانجذاباته، هي بوارق وشذرات وبوادر لتلك الحاجات السيكولوجية الجديدة التي تظهر الآن لدى الإنسان المعاصر. وكأنه تنمو في لواقط الإنسان المتطور النفسية نطاقات وأبعاد جديدة، يصبح الإنسان بموجبها قادراً على التقاط موجات جديدة من الجاذبية الإنسانية. كما يضاف إلى الموجات القديمة من هذه الجاذبية، التي أيقظت فينا الحب، قوة العقل والحدس، وقرب المثل العليا، وخصوصية الآراء والعادات، وتفرّد التصرفات والسلوكيات...

ولكن، لماذا لا تكتفي الشخصية المتطورة بالحب «العادي»؟، لماذا تميل هذه الشخصية، بصورة لا شعورية، إلى العاطفة «الشمولية»، المضاعفة، أو الأكبر بثلاث مرات من العاطفة العادية؟ إن الرغبة بالتوافق

والتطابق، بأكبر شكل ممكن، مع الإنسان الحبيب هي أمر عادي بالنسبة للإنسان – الشخصية. لكن شوائب الحياة المعاصرة وعيوبها تعزز، اليوم، هذه الرغبة الطبيعية العادية وتقويها وتجعلها غير عادية، مفرطة. ففي عصر الوتائر العالية، والتواصل الكثيف، يتناقص، باطراد لدى الكثيرين منا عدد الأشخاص المقربين، ويتزايد عدد المعارف السريعين الآنيين، وأشباه الأصدقاء. إن حاجاتنا العميقة للاعتراف إلى الأصدقاء، والانفتاح الكامل أمامهم، وفي انفتاح النفس الكامل، وتقارب الأفكار الوثيق، وفي تلاقي الهوايات والاهتمامات، إن كل هذه الحاجات لا يتم إشباعها في الاتصالات والاحتكاكات السطحية، غير المعمقة. فتتراكم شحنات هذه العواطف في النفس، وتلتهب وتفيض منها. ومن ثم تصب في سيل ضخم قوي على الشخص الأقرب إلينا.

لقد أصبح الآن عدد الينابيع التي تثير الحب وتستثيره، والتي يتوقف عليها حياة الحب وبقاؤه أو موته، أكبر بكثير من السابق. ونتيجة لذلك، بدأت تتشعب وتتفرع مشاعر الحب وأحاسيسه، وتتفاقم وتتوتر، وبالتالي تستفحل وتتعقد، حيث يقف الظل جنباً إلى جنب مع الضوء.

إن الحب يغدو أكثر تشبعاً وكثافة من الداخل، لكنه يفقد في ماهيته هيجان العواطف. وكلما كان الحب أكثر توتراً وتفاقماً، وكانت عواطفه أكثر دقة ورهافة، كلما كان أكثر تعرضاً للخطر والإصابة وأقل ثباتاً. وهذا، كما يبدو، هو التناقض الأبدي الدائم للحب، وتلك هي الثمالة المريرة في قعر فرحته ومسراته. وهذا، عموماً، هو قانون الانفعالات والعواطف الإنسانية: كلما كانت بنية العواطف والانفعالات أكثر تعقيداً، وكانت أكثر تشعباً، كلما ضعفت قوتها، وانخفض توهجها وتألقها.

والحب، مع ازدياد ثرائه وغنى مضمونه، يصبح أكثر جلاء وإدراكاً وتأنقاً: ومن أجل استثارته، ونموه واستمراره، والإبقاء على حياته، يتطلب الأمر الآن، ترابط واقتران ظروف وشروطاً أكثر تنوعاً وأصعب منالا.

وكأنه تنمو داخل الحب نفسه عوائق وعقبات جديدة: فمن أجل الحب «المجلجل» الكبير، أصبح العثور على الشخص المناسب أصعب بكثير منه بالنسبة للحب «العادي».

إن الشحنة الداخلية للإنسان القريب، الحبيب، ومتطلباتنا الخفية نحوه تزداد إلى درجة الاستحالة: وكأننا نطلب من شخص واحد ما كنا نحصل عليه من عدة أشخاص. وهذا العبء الكبير لا يقدر على احتماله على الأغلب، إلا من يدرك واجبه الأسمى، ومن يتمكن من المحافظة على حبه، وحمايته من المتطلبات المرهقة.

17- من الأكثر ؟ :

هل تؤثر هذه التحولات المعقدة على جميع الأشخاص؟

وهل تتغير عواطف جميع الأشخاص على هذا النحو؟

أرى، أن لا حاجة لطرح مثل هذا السؤال. فالحب الأصيل والنسخة التقليدية عنه لا يجتمعان. الحب والنسخة طبق الأصل متناقضان مثلهما مثل الموسيقى والصرير. فالحب يخط بصماته، بصورة متميزة ومتباينة على الأفراد، ويعمق أصالتهم الفريدة. الحب مرآة الإنسان، وهو يجعل الإنسان مرآة له، إنه يجعله شخصية، وبالتالي يغدو الإنسان أكثر تميزاً.

لا وجود لحب واحد، لنمط موحد من الحب للجميع، لا وجود لعاطفة واحدة ومن نمط واحد للجميع. هناك أنماط كثيرة مختلفة من الحب المعاصر، وضمن كل نمط من هذه الأنماط ثمة العديد من الأنواع الفردية المتميزة من الحب. وكل هذه الأنواع والأنماط متميزة، متباينة، أصيلة، غير متكررة. ولكن، يبدو انه ثمة عامل مشترك بين كثير من هذه الأنواع، وهذا العامل المشترك هو البنية المعقدة لعاطفة الحب وتعدد طبقاتها وتفردها.

على أي حال، وبالإضافة إلى «اتحاد الأهواء الثلاثة»، هناك اليوم عواطف أكثر بساطة: وهي تتواجد في النفوس الشابة، التي لم يصبها

تعقيد المدنية الحديثة، ولدى الأشخاص من ذوي النفوس البسيطة والجلية، التي كان تأثير الأعباء الحالية التي تمزق وحدة المرء النفسية، **أقل** بكثير من الآخرين. وتقيم غالبية هؤلاء الأشخاص غالباً، في القرى والمدن الصغيرة، حيث نمط الحياة فيها لم يتأثر كثيراً بالتحولات الجديدة، وعواطف هؤلاء الأشخاص **أقل** غرابة، وأكثر هدوءاً وطمأنينة، نتيجة نمط حياتهم البسيط.

والأهم من ذلك، أن هذه التحولات المعقدة الحديثة، التي ذكرناها آنفا، قد مست على الأكثر، الأشخاص من ذوي النفسيات العميقة، أما الأشخاص من ذوي النفسيات السطحية، الأقل عمقاً، فيتأثرون أكثر بالعواطف الضعيفة، المجردة من السمات الشخصية.

❖ ❖ ❖

من الأكثر الآن: الأشخاص الأكثر عمقا؟ أم الأكثر سطحية؟

لا يمكننا الإجابة عن هذا السؤال إلا بصورة افتراضية، لعدم وجود دراسات أو بحوث حول هذه المسألة. ومن خلال الملاحظات اليومية والمراسلات المختلفة، يمكنني القول أن الأشخاص من ذوي النفسيات العميقة هم الأقل. إن شوائب الحياة المعاصرة تجعل الناس أكثر سطحية، كما أن الجوانب الكثيرة الباهتة، المسيطرة في أنظمة التربية والتعليم والثقافة العامة اليومية الاستهلاكية، تجعل الناس باهتين سطحيين.

غير أن أعداد الأشخاص من ذوي النفوس العميقة في تزايد مطرد، رغم بطء هذا التزايد بين صفوفهم: حيث تجري عملية استقطاب الأشخاص، ويحدث في كل قطب تراكم سطحي، وتراكم رأسي في العمق؛ وبالتالي يتراكم عدد متزايد من الناس: من ذوي الشخصيات الساطعة، البارزة، كما يتزايد عدد الأشخاص من ذوي الشخصيات الباهتة. ويبدو أنه، لا بد من تحولات جذرية عميقة في كامل منظومة الثقافة والتربية

والتعليم، كي يغدو الأشخاص من ذوي النفوس العميقة أكثر عدداً من الأشخاص من ذوي النفوس السطحية.

كيف ستجري التحولات لاحقاً في الإنسان؟ ما الذي سيكتب له الفوز: الإثراء النفسي أم الإفقار النفسي؟ كل شيء سيتوقف، غالباً، على ما إذا كنا سنتمكن من خلق منظمة مركبة شاملة من آليات الحياة اليومية - منظومة تعزز إيجابيات الحياة المعاصرة وتحد من شوائبها وسلبياتها.

وعلى هذه الآليات الجديدة لنظام الحياة أن تغير من الجذور، كامل جسم الحياة اليومية، والعمل اليومي بكامله، والحياة المدنية كلها، وكامل منظومة التربية والتعليم. على هذه الآليات أن تغير السيرورة اليومية العادية للحياة، كي تكون هذه النوابض اليومية - التي تؤثر عليها التأثير الأكبر- عامل تعميق وإثراء للناس، بدل أن تكون عامل إفقار وتسطيح.

قد تخلق الثورة العلمية - التقنية مثل هذه المنظومة من الآليات، وقد يكون خلق هذه المنظومة هي مهمتها الرئيسة. ولكن كي تتحول هذه المنظومة إلى واقع، لا بد من جهود اجتماعية جبارة، على مستوى المجتمع ككل، وعلى مستوى كل فرد.

ذلك لأن جهود كل فرد بالذات، تساعد قوى الحياة المفقرة، المدقعة أو المثرية، المعمقة. ولعل عمقنا السيكولوجي أو سطحيتنا النفسية يتوقفان على أي كفة من كفتي الميزان آنفتي الذكر- القوى المعمقة أو القوى المفقرة - ستستقر هذه الجهود...

❖ ❖ ❖

الهوامش :

1)-هكذا تحدث عن الشخصية عالم الاجتماع الروسي (ي. كون) في مقالته «الشخصية في الفلسفة وعلم الاجتماع» - (الموسوعة الفلسفية ج 3 موسكو، 1962). أما في علم النفس، فقد كان عالم النفس الأمريكي الشهير (غ. اولبورت) قد أحصى في الثلاثينات، أكثر من /50/ تعريفاً للشخصية. والآن يزيد عدد تعريفات الشخصية على هذا الرقم كثيراً.

2)- يعد عالم النفس الروسي (ك.ك. بلاتونوف) من أفضل الباحثين في علم نفس الشخصية. وقد عرض آراءه في الشخصية في كتابه «بنية الشخصية ونموها» (موسكو -دار العلم، 1987). يرى بلاتونوف أن بنية الشخصية تتكون من:

1- اتجاهات الشخصية: القناعات، الاهتمامات، المثل العليا.

2-الخبرة. وتشمل: المهارات والقدرات، والعادات والمعارف.

3-الخاصيات النفسية. وتشمل: الإرادة، العاطفة، الإدراك، التفكير، الإحساس، الانفعالات، الذاكرة.

4- الخاصيات البيونفسية (السيكوسوماتية). وتشمل المزاج (اللمفاوي، الصفراوي، السوداوي، الدموي)، خاصيات الجنس والعمر.

وهذا مدخل علمي منهجي للشخصية.

وهناك مدخل آخر للشخصية، يرى أن الشخصية تقتصر على الوجود الاجتماعي للفرد، أي انطباع العلاقات الاجتماعية وأثرها عليه. ومفهوم الشخصية هذا لا يشمل خاصيات الإنسان السيكولوجية والمادية، ولا الأخلاقية؛ أي أن مفهوم الشخصية هذا لا يشمل المزاج، والقدرات، والمهارات، والمعرفة...وقد طرح هذا المفهوم عالم النفس الروسي (آ. ليونتيف) في كتابه «النشاط، الوعي، الشخصية» (موسكو،1977).

ورأينا أن المدخل الشمولي الكلي هو الأفضل للشخصية من المدخل الجزئي، الذي يفصل الإنسان إلى نصفين بصورة ميكانيكية: كائن اجتماعي، وكائن بيوسيكولوجي. وكان عالم النفس الشهير (روبنشتاين) قد رأى أن الشخصية هي المظهر الفردي لجميع خاصيات الإنسان الرئيسة في اندماجها الحي، فالشخصية هي منظومة شمولية تضم جميع خاصيات الفرد - المؤلف -

3)- يمتلك الإنسان حوالي عشرة انفعالات أولية، وهي استجابات عاطفية قصيرة، بمثابة عواطف توجيهية - تقييمية، وهي: الفضول (حب الإطلاع)، الانتباه

والحذر، الرضا وعدم الرضا، السخط، الخوف، الود والصداقة، الحنان، النفور، الخضوع (من كتاب ك. إزارد – انفعالات الإنسان. موسكو، 1980). ويضيف إليها عالم النفس الأمريكي (ماك دوغال) عاطفة أخرى هي الرغبة الجنسية. هنا، لا بد من التذكير، أن سيكولوجية العواطف والانفعالات، كعلم، مازالت ضعيفة، بعيدة عن الوضوح والدقة. وكثيراً ما نخلط بين العواطف والانفعالات، ولا نفرق بينها إلا بصورة ضبابية، ولا يزال علماء النفس على خلاف شديد حول موضوع وجه الاختلاف بين العواطف والانفعالات، ومحركاتها وقوانينها. ولا يزال علم نفس الانفعالات بعيداً جداً عن الدقة. والمفارقة هنا، أن هذا العلم بدأ كعلم دقيق. فقد حاول الفيلسوف الهولندي (سبينوزا)، منذ القرن السابع عشر تأسيس علم العواطف والانفعالات، على نمط علم الهندسة، باعتباره أكثر العلوم فلسفة ودقة آنذاك.

4)- هناك نقطة ضعف في هذه النظرية، وهي التي تثير تحفظ بعض علماء النفس. انطلاقاً من هذه النظرية، يمكن الافتراض، بأن الإنسان، في الأحوال العادية غير المتوترة، يبقى بدون انفعالات وبدون معلومات، عموماً. وبمثل هذه النظرة، يغدو الإنسان آلة مفكرة، محركها الرئيس هو الشعور. أما الانفعالات فلا تظهر إلا عندما يحتاج هذا المحرك إلى المعلومات. غير أن الواقع، أن الانفعالات تعيش وتبقى في الإنسان دائماً، وفي حال توفر المعلومات، لا تختفي الانفعالات بل تضعف فقط. علاوة على ذلك، تتوقف قوة الانفعالات على أساسها البيولوجي، وهي مختلفة لدى الأفراد،حسب أمزجتهم، وحالتهم الصحية والعصبية، وحسب أعمارهم. وهذه حقيقة بديهية تأخذها نظرية سيمونوف بعين الاعتبار.

5)- فرانسوا دولا روشفوكو. حكم وتأملات أخلاقية. موسكو، 1959، ص 15.

هذه العبارة، برأي مؤلف الكتاب، غير دقيقة في جانب منها. فالظمأ للسيطرة هو رغبة الشخص ذي الأنا المركزية المسيطرة، غير أن النفوس الأخرى التي لا تتسم بنزعة الأنا المركزية لا تكون، غالباً، ظامئة إلى السيطرة، بل إلى الإحساس بالاتحاد والاندماج بنفس أخرى – نفس المحب. - المؤلف-.

الفهرس

قالوا في الحب 5

تقديم: - على مر العصور 7

- نحو مدنية جديدة 8

- هذا الكتاب 14

الفصل الأول: علم الحب amouralogy 17

- أصوات الشك 20

الفصل الثاني: أركان الحب الخالدة 27

1-سر الأسرار 27

2- عدسة الحب المزدوجة 30

3- دستور الانفعالات 34

4- بين الأموات والأحياء 37

5- من أعماق النفس 41

6- دور ما تحت الشعور الكبير 43

7- «أنت هو أنا» 45

الفصل الثالث: الطاقة النفسية والحب 49

1- لغز جديد لم يكتشف حتى النهاية 49

2- التخاطر والحب 56

3- كيف حدث الأمر في الواقع 59

4- الطاقة النفسية من وجهات نظر ثلاث 63

الفصل الرابع: الحب الخالد 69

1- تأثير الحضور 69

2- البعد العالمي 71

3- الحب البائس 73
4- الموت حباً 78
5- ماذا يمنحنا الحب البائس 81
6- آداب المصائب 83
7- ما يتكرر وما لا يتكرر في الحب 88
8- مملكة ضرورات المصادفة 92

الفصل الخامس: روح الحب: نحو الآخر كما نحو الذات 99
1- الحب في حده الأدنى 99
2- أين الحب وأين التعلق 101
3- الأنا الغيرية egoaltruism 105
4- الغيرية ذات البعد الواحد 107
5- القدرة على الحب 112
6- معيارا موهبة الحب 115
7- نحو الآخر كما نحو الذات 118
8- منطق الحب التقليدي والمحدث 120
9- موسيقى الكمان وموسيقى البالالايكا 122
10- العاطفة الشمولية العارمة 125
11- الحب وما فوق الشعور 127
12- ماهيتا الحب ودوره الاجتماعي 131

الفصل السادس: الحب والعالم 137
1- طريقة الوصول إلى الحب 137
2- ماهية العاطفة الإنسانية العامة 139
3- نحو الوعي الكوني 141
4- الإنسان العاقل والإنسان الشكلي 143
5- رحلة إلى اليوتوبيا 147
6- حب أفروديت 149
7- بداية الحب الفردي 153
8- حب الفرسان 156

الفصل السابع: تحولات مزدوجة في السيكولوجيا المعاصرة 161
1- مؤثرات في اتجاهين 161
2- تغير أركان الأسرة وثوابتها 162
3- عتلة أرخميدس 166
4- انفجار التحولات وإفقار العواطف 168
5- حسب قانون عمر الآخر 170
6- العدو الثاني 171
7- انفجار التواصل وشخصية الفرد 173
8- المدينة الكبرى والمدنية الجماهيرية 176
9- ما هي الشخصية 178
10- عمى نوابض الطوارىء 179
11- على من تؤثر الإرهاقات العصبية 182
12- الانفعال - ابن مولّدين متنافسين 185
13- هل يستبعد الفكر العاطفة؟ 187
14- عوامل مغذية وأخرى مدقعة 189
15-سيكولوجية الحب المعاصر 191
16- حب الشخصية 198
17- من الأكثر؟ 202

الحب والأسرة عبر العصور

الحب.. سيد العواطف والمشاعر بلا منازع، وأكثرها جاذبية وإغراء، لكنه في الوقت نفسه، أكثرها خداعاً، وخيبة للآمال. إنه يمنح اللذة الأقوى والسعادة الأكبر، لكنه يسبب أيضاً الألم الأشد؛ إنه يمنح المسرة كما يمنح الكآبة، ويعطينا السعادة، كما يعطينا الشقاء. وتندمج أقطاب الحب وتبايناته في سبائك فريدة، ويرى الإنسان الحب في السبيكة التي تكون من نصيبه.

الحب يتبدل عبر العصور؛ وبخاصة في المراحل الانتقالية، عندما ينتهي عصر ويبدأ عصر جديد، حيث تتقاطع المشاعر الإنسانية.

ومنذ القديم كان الحب والأسرة مركز تقاطع جميع قوى العالم التي تحكم الحياة، والحب والأسرة هما مرآة جميع التحولات التي تجري في النوع البشري.

وهذا الكتاب هو كتاب شامل لجميع المسائل والقضايا المعاصرة، الغامضة والعويصة التي نحتك بها يومياً والتي تزداد عدداً وصعوبة. إنه يشمل تلك المسائل المفتاحية التي لا يمكن بدونها فهم القوانين التي تحكم المجتمع والأسرة والتي تتحكم بمشاعرنا وعواطفنا، كما يشمل تلك المسائل السيكولوجية الحيوية الهامة، التي يستحيل بدونها الوصول إلى علاقات جيدة في متاهات الصعوبات الأسرية الهائلة.

ويسر دار كنعان أن تقترح للقارئ العربي هذا الكتاب الذي يشمل جميع جوانب الحب المعاصر والأسرة المعاصرة.

إنه كتاب العواطف، كتاب مكرس لعاطفة الحب، حيث يعالج أسسها الخالدة، والتحولات المعاصرة فيها، وأشكالها السيكولوجية المختلفة.



الناشر



دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح